المنتقى

من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ

للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى
اليحصبي رحمه الله

انتقاه وأعده
مركز المربي
للاستشارات التربوية والتعليمية

المنتقى من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ

المنتقى

من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ

للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى
اليحصبي رحمه الله

انتقاه وأعدّه

مركز المربي

للاستشارات التربوية والتعليمية

(ح) يحيى ابراهيم علي اليحيى ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اليحيى، يحيى إبراهيم
المنتقى من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه
وسلم / يحيى ابراهيم علي اليحيى - المدينة المنورة ١٤٣٦هـ
٢٧٨ ص ،
ردمك: ٨-٨٩٩٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١- السيرة النبوية ٢- الأخلاق الإسلامية ٣- الشمائل المحمدية
ديوي ٢٣٩,٦ ٨٠٨٤ / ١٤٣٦
رقم الإيداع: ٨٠٨٤ / ١٤٣٦
ردمك: ٨-٨٩٩٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه، وجعله خاتماً لأنبيائه ورسله، وجعل الكتاب الذي أنزله معه مهيمناً على كل كتاب قبله، وصلّى الله وسلّم على سيدنا وقدوتنا رسول الله الذي أعلى الله شأنه بتزكية خُلقه ورفع ذِكره، حيث قال جل شأنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وقال: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤]، وعلى أصحابه كلِّهم وتابعيهم بإحسان، صلاةً وسلامًا دائمين ما كوّر الليل على النهار وكوّر النهار على الليل.

أما بعدُ فإن مقامَ سيِّدنا محمّدٍ ﷺ في قلوب المؤمنين عظيم، وكيف لا وهو الواسطة بينهم وبين ربهم في تبليغ وحيه سبحانه وهداه لعباده، وهو سيِّد ولد آدم، أرسله الله رحمة للعالمين، وله الشفاعة الكبرى يوم البعث، وخصّه ربّنا سبحانه بصفاتٍ وخصائص لم يعطها أحداً من الأنبياء قبله.

وقد ألّف كثيرٌ من علماء الإسلام في صفاتِه ﷺ المنصوص عليها في الوحي، أو المنقولة عمّن صحبوه أو شاهَدُوه، وفي حقوقه وما يجبُ على المؤمنين به من طاعته وتبجيله وتوقيره، وما يتعلَّق بهذه من حُرمة جنابه، وحكم من نال منه أو عرَّض به، ومن أشمل ما صنِّف في ذلك كتاب «**الشفا**

بتعريف حقوق المصطفى» للعلاّمة القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبيّ رحمه الله تعالى، وهو كتابٌ جليل القدر، بيَّن فيه القاضي ما أراده وقرّر، وجمع فيه فأكثر حتّى إنه لَيذكر بعضاً من موضوع الروايات وواهيها.

ولما صار غالب أهل زماننا يشُقُّ عليهم التطويل لما يقرأون انتُقي هذا الكتاب منه ليكون أقرب مُتناوَلا؛ فيسهُل إدراك مرامه، واستيعاب أخباره وأحكامه، لا سيما ونحن في زمَنٍ نواجِهُ فيه حملةً شرسة منكرة سرّاً وعلانية على شريعة الله، وإنّ من تعظيم الله سُبحانه تعظيمَ شريعته ومعرفةَ حقّ نبيِّه ﷺ الذي جاء بها من عند الله.

وقد جرينا في العمل على انتقاء الثابت من الروايات مع حذف الأسانيد والمكرّر من الأخبار إلا ما اقتضت الحال إبقاءه، وعلى الاقتصارِ على ما كان ظاهرَ الدّلالة من الآيات أو تفسيرها، وعلى ما له تعلُّق مباشر بالنبيّ ﷺ، والاكتفاءِ في الخلاف بالحقيقيّ مما لا يُثيرُ إشكالاً لدى عموم الناس.

وقد اختصرنا بعض ما يذكره المؤلف من مسائل، وبعضَ ما أطنب فيه، وأضفنا بعض النصوص في الحاشية مما أشار إليه، وشرحنا ما يفتقر إلى شرحٍ من مفردات.

وأما تخريجُ الأحاديث فقد اتّبعنا فيه أنه إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتُفي بالإشارة إلى ذلك، وإذا كان صاحبا الصحيح قد أورداه في أكثر من موضع - كما يفعل ذلك البخاري كثيراً - فإنه يُكتَفى بالإشارة إلى أقرب نص إلى ما ساقه صاحب الشِّفا، فإذا كانت الألفاظ متقاربة فإلى أول

موضـع ورد فيه، فإن لم يكـن في الصحيحين ولا أحدهما فإنه يُخرَّج حسب ما يقتضيه المقام مُراعى في ذلك كلِّه الاختصارُ ما أمكن. ثم المقدَّم في الذكرِ الأقـدمُ وفاة على غـيره إلا أصحاب السنن الأربعـة، فيُقدَّمون على غيرهم حسـب مراتب سننهم فيما بينهـم (أبو داود ثم النسائي ثم الترمذي ثم ابن ماجه).

هـذا وقد استعنّا بنسختـين نفيستين من نسخ الكتـاب المخطوطة، وهما نسخة جامعة ميتشيغـان، ونسخة جامعة برنستون، وذلك في مواضعَ يشكل فيهـا المعنى أو الإعراب، وقد حرصنا أن يخـرُج الكتابُ على ترتيب يُرجَى أن يكـون حسنًا، ونسأل الله تبـارك اسمه وتعالى جَدُّه إذ أعان على إتمام هذا العمـل أن يرحمَ القاضيَ عياضاً رحمة واسعة لقاءَ ما كتب في جناب النبيّ ﷺ وجَمَـع، وأن ينفع بهذا المنتقَى عامة المسلمين، فما هو إلا تذكيرٌ بالأصل خَفَّ محمَلُه، وطوبى لمن ارتفع عند الله قولُه وعملُه.

مركز المربي للاستشارات التربوية والتعليمية

د/ يحيى بن إبراهيم اليحيى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد باسمِهِ الأسمى، الذي ليس دونه مُنْتهًى ولا وراءَهُ مرمًى، وسع كلَّ شـيءٍ رحمةً وعلمًا، وبعث فيهم رسولًا مـن أنْفُسِهم أنْفَسَهم عربًا وعجمًـا، وأرجحَهم عقلًا وحلمًا، وأوفرَهم علمًـا وفهمًا، وأقواهم يقينًا وعزمًا، وأشدَّهم بهم رأفةً ورُحْمًا، وآتاه حكمةً وحُكْمًا، وفتح به أعْيُنًا عُمْيًا وقلوبًا غُلْفًا وآذانًـا صُمًّا، فآمن بـه وعزّره ونصره مَنْ جعل الله له في مغنم السّعادة قَسْمًا، وكذّب بـه وصدف عن آياته مَنْ كَتَبَ الله عليـه الشقاءَ حتمًا، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾، صلـى الله تعالى عليـه صلاةً تنمو وتُنْمَى، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

أمـا بعد فلا يخفى على مـن مارس شيئًا من العلـم، أو خُصَّ بأدنى لمحةٍ من الفهم تعظيمُ الله قـدرَ نبيّنا ﷺ وخصوصُهُ إيّاه بفضائلَ ومحاسنَ؛ فمنها ما صـرّح به تعالى في كتابه، وحضّ العباد على التزامه؛ فكان جلّ جلاله هو الـذي تفضّـل وأولى، ثمّ طهّر وزكّـى، ثمّ مدح بذلك وأثنـى، ثمّ أثاب عليه الجزاء الأوفى، فله الفضل بدءًا وعودًا، والحمد أُولى وأُخْرى.

ومنها ما أبرزه للعِيانِ مِن خلْقِه على أتمِّ وجوهِ الكمالِ والجلالِ، وتخصيصِه بالمحاسنِ الجميلـةِ والأخلاقِ الحميدةِ والمذاهبِ الكريمةِ والفضائلِ العديدة، وتأييدِه بالمعجزات الباهرة والبراهينِ الواضحة والكرامات البيِّنة الّتي شاهدها مَـنْ عاصره، ورآها مَنْ أدركه، وعلِمَها عِلْمَ يقـينٍ مَنْ جاء بعده، حتى انتهى علمُ حقيقةِ ذلك إلينا، وفاضت أنوارُه علينا، صلى الله عليه وسلَّم كثيرًا.

الباب الأوّل في ثناء اللّه تعالى عليه ﷺ وإظهارِه عظيمَ قدرِه لديه

اعلـم أنّ في كتاب الله العزيز آياتٍ كثـيرةً مُفْصِحةً بجميل ذكر المصطفى ﷺ وعـدِّ محاسنِه وتعظيمِ أمـره وتنويه قدره، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه وبان فحواه، وجمعنا ذلك في فصولٍ:

فصلٌ فيما جاء من ذلك مجيءَ المدح والثّناء وتعداد المحاسن

كقوله تعـالى ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] الآية.

وقرئ شاذًّا «من أَنْفَسِكم» بفتح الفاء.

أعلم الله تعالى العربَ أنّه بعث فيهم رسولًا من أنفسهم يعرفونه ويتحقّقون مكانـه ويعلمون صدقه وأمانتـه، فلا يتَّهمونه بالكذبِ وتـركِ النَّصيحةِ لهم لكونِه منهم وأنَّه لم تكن في العرب قبيلةٌ إلا ولها على رسول الله ﷺ ولادةٌ أو قرابـةٌ، وهو عند ابن عبّاسٍ رضي الله عنه وغيره معنى قوله تعالى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وكونه من أشرفِهم وأرفعِهم وأفضلِهم على قراءة الفتح، هذه نهايةُ المدح.

ثـمَّ وصفه بعدُ بأوصافٍ حميـدةٍ، وأثنى عليه بمحامدَ كثـيرةٍ، مِنْ حرصِه علـى هدايتِهم ورُشْدِهـم وإسلامِهم، وشدَّةِ ما يُعْنِتُهـم ويضرُّ بهم في دنياهم وأُخراهـم وعزَّتِه عليه، ورأفتِه ورحمتِه بمؤمنيهـم. قال بعضُهم: أعطاه اسمَيْنِ من أسمائه: رؤوف رحيمٌ.

وقال تعـالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآيـة، وفي الآية الأخـرى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة:٢] الآية، وقال تعالى ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ ﴾ [البقرة:١٥١] الآية.

وروي عـن عليّ بن أبي طالـب رضي الله عنه عنه ﷺ في قوله تعالى (من أنفسكم) قال: «نسبًا وصهرًا وحسبًا، ليس في آبائي من لدن آدم سِفاحٌ كلُّها نِكاحٌ»[(١)].

وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٩] قال: من نبيٍّ إلى نبيٍّ حتّى أخرجتك نبيًّا[(٢)].

وقـد زيَّن الله تعالى محمَّـدًا ﷺ بزينة الرَّحمة، فكان هـو وجميعُ شمائلِه وصفاتِه رحمةً على الخلقِ. ألا ترى أنّ الله تعالى يقول ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾، فكانت حياتُه رحمةً ومماتُه رحمةً، كما قال ﷺ:

«حياتي خيرٌ لكم وموتي خيرٌ لكم»[(٣)]، وكما قال عليه الصّلاة والسّلام:

(١) أورده أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» (٤١٧/٣)، وعزاه السيوطي لابن مردويه. الدر المنثور (٣٢٧/٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٥/١)، والبزار (كشف الأستار ١١٠/٣) عن أبي عاصم النبيل عن شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس، وإسناده لا بأس به، وصححه السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا (ص ٣١).

(٣) أخرجه البزار في مسنده (٣٠٨/٥) من حديث ابن مسعود، وفي سنده ضعف من أجل عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، وله شاهد عند الحارث بن أبي أسامة في مسنده (٨٨٤/٢) من حديث بكر بن عبد الله المزني وسنده

«إذا أراد الله رحمةً بأمّةٍ قبض نبيَّها قبلها فجعله لها فَرَطًا وسَلَفًا»[٤].

وقال السّمرقنديّ : ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني للجنِّ والإنسِ، قيل: لجميع الخلقِ؛ للمؤمنِ رحمةً بالهدايةِ، ورحمـةً للمُنافِقِ بالأمانِ من القتل، ورحمةً للكافر بتأخيرِ العذاب[٦].

قـال ابن عبّاسٍ رضي الله عنه: هو رحمةٌ للمؤمنين والكافرين؛ إذ عُوفُوا ممّا أصاب غيرَهم مِن الأممِ المكذِّبة[٧].

وقد سمَّاه الله تعالى في القرآنِ في غير هذا الموضعِ نورًا وسِراجًا مُنيرًا، فقال تعـالى ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائـدة: ١٥]، وقـال تعالى ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

ومِن هذا قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] إلى آخرِ السُّورة، شَرَحَ: وسَّع، والمراد بالصَّدر هنا: القلبُ، قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنه: شرحه بنورِ الإسلامِ، وقال سهلٌ: بنورِ الرِّسالةِ، وقال الحسن: ملأه حُكْمًا وعِلْمًا.

ضعيف، وأورده الألباني في الضعيفة [٩٧٥].

(٤) صحيح مسلم (١٧٩١/٤).

(٦) بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي (٤٤٥/٢).

(٧) المصدر السابق.

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح: ٢-٣] قيل: ما سَلَفَ من ذنبك، يعني قبلَ النُّبُوَّة، وقيل: أراد ثِقَلَ أيَّامِ الجاهليَّةِ، وقيل: أراد ما أَثْقَلَ ظَهْرَه مِن الرِّسالةِ حتى بلَّغها، حكاه الماورديُّ والسُّلميُّ[٨].

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤] قال يحيى بن آدم: بالنّبوّة، وقيل: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي في قولِ «لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله»، وقيل في الأذان والإقامة.

وهذا تقريرٌ مِن الله جلَّ اسمُه لنبيِّه ﷺ على عظيمِ نِعَمِه لديه وشريفِ منزلتِه عنده وكرامتِه عليه بأنْ شَرَحَ قلبَه للإيمانِ والهدايةِ، ووسَّعه لِوَعْيِ العلمِ وحَمْلِ الحكمة، ورَفَعَ عنه ثِقَلَ أُمورِ الجاهليَّةِ عليه، وبغَّضه لِسِيَرِها وما كانت عليه بِظُهورِ دِينِه على الدِّينِ كلِّه، وحطَّ عنه عُهْدَةَ أعباءِ الرِّسالةِ والنُّبُوَّة لتبليغِه للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم وتنويهِهِ بعظيمِ مكانِه وجليلِ رُتْبَتِه ورِفْعةِ ذِكْرِه وقِرانِه مع اسْمِهِ اسْمَهُ.

قال قتادة: رفع الله تعالى ذكرَه في الدُّنيا والآخرة، فليس خطيبٌ ولا متشهِّدٌ ولا صاحبُ صلاةٍ إلا يقول: «أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله».

وروى أبو سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: إنَّ ربّي وربَّك يقول: تدري كيف رَفَعْتُ ذِكْرَك؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي»[٩].

(٨) انظر: النكت والعيون للماوردي (٦/٢٩٧)، وحقائق التفسير للسلمي (٢/٤٠٤).

(٩) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢/٥٢٢) من طريق ابن لهيعة، وابن حبان في صحيحه (٨/١٧٥) من طريق عمرو بن الحارث، كلاهما عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد به، ودراج أبو السمح في حديثه عن أبي الهيثم ضعف

ومِـنْ ذِكْرِ النبيِّ ﷺ معه تعالى أنْ قَرَنَ طاعَتَـهُ بطاعتِهِ واسْمَهُ باسْمِهِ فقال تعـالى ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمـران: ١٣٢]، ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النسـاء: ١٣٦]، فجمـع بينهما بواو العطف المشرِّكة، ولا يجوز جمعُ هذا الكلام في غير حقِّه ﷺ.

عـن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يقولَنَّ أحدُكم: ما شاء الله وشاء فلانٌ، ولكن ما شاء الله ثمَّ شاء فلانٌ»[١٠].

قـال الخطَّابيُّ: أرشدهـم ﷺ إلى الأدبِ في تقديمِ مشيئـةِ الله تعالى على مشيئـةِ مَنْ سِواه، واختارها بـ«ثمَّ» الّتي هي لِلتَّراخِي بخلاف الواو التي هي للاشتراك[١١].

ومثلـه الحديث الآخـر: أنَّ خطيبًا خَطَبَ عند النبـيِّ ﷺ فقال: من يُطِعِ الله ورسولَـه فقـد رَشَدَ، ومن يَعْصِهِمـا، فقال له النبـي ﷺ: «بِئْسَ خَطِيبُ القـوم أنت، قُمْ - أو قال - اذْهَـبْ»[١٢]. قال أبو سليمان: كَرِهَ منه الجمعَ بين الاسمَيْنِ بحرفِ الكنايةِ لما فيه من التَّسويةِ[١٣]، وذهب غيرُهُ إلى أنَّه إنَّما كَرِهَ له الوقوفَ على «يعصهما».

كما قال ابن حجر، ولذلك أورده الألباني في الضعيفة .

(١٠) أخرجه أبو داود (٤/٢٩٥)، وأحمد (٣٨/٣٠٠، ٣٦٤، ٣٩٦)، وغيرهما وهو حديث صحيح.

(١١) معالم السنن (٤/١٣٢).

(١٢) صحيح مسلم (٢/٥٩٤)، ولفظ المصنف من سنن أبي داود (١/٢٨٨).

(١٣) معالم السنن (٤/١٣١).

وقولُ أبي سليمان أصحُّ لما روي في الحديث الصَّحيحِ أنَّه قال: «ومن يَعْصِهِما فقدْ غَوَى»[١٤]، ولم يذكر الوقوف على «يعصهما».

فصلٌ في وصفِه تعالى له ﷺ بالشهادةِ وما يتعلَّقُ بها من الثناءِ والكرامةِ

قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

جمع الله تعالى له في هاتين الآيتين ضُروبًا مِنْ رُتَبِ الأَثَرَةِ، وجُمْلَةَ أَوْصافٍ مِن المِدْحَة، فجعله شاهدًا على أمَّتِه لنفسِه بإبلاغِهم الرِّسالةَ، وهي من خصائصِه ﷺ، ومبشِّرًا لأهلِ طاعتِه، ونذيرًا لأهلِ معصيتِه، وداعيًا إلى توحيدِه وعبادتِه، وسِراجًا مُنيرًا يُهْتَدَى به للحقِّ.

عن عطاء بن يسارٍ، قال: لقِيتُ عبدَ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقلت: أخبِرْني عن صفةِ رسولِ الله ﷺ، قال: أجلْ، واللهِ إنَّه لموصوفٌ في التَّوْراةِ ببعضِ صفتِه في القرآنِ: «يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتُك المتوكِّل، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا سخَّابٍ في الأسواقِ، ولا يَدْفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ ولكنْ يعفو ويغفِرُ، ولنْ يقبِضَه الله حتَّى يُقيمَ به المِلَّةَ العوجاءَ بأنْ يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعْيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا»[١٥].

(١٤) صحيح مسلم (٢/٥٩٤).

(١٥) صحيح البخاري (٣/٦٦).

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآيتين، وقد قال تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية، قال السّمرقنديّ: ذكَّرهم الله تعالى منَّته أنَّه جعل رسولَه ﷺ رحيمًا بالمؤمنين، رؤوفًا، ليِّنَ الجانب، ولو كان فظًّا خَشِنًا في القولِ لتفرَّقوا مِنْ حولِه، ولكنْ جعله الله تعالى سَمْحًا، سَهْلًا، طَلْقًا، بَرًّا، لَطِيفًا، هكذا قاله الضَّحَّاك[١٦].

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. قال أبو الحسن القابسيّ: أبان الله تعالى فضل نبيّنا ﷺ وفضل أمّته بهذه الآية، وفي قوله في الآية الأخرى ﴿ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨]، وكذلك قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء: ٤١] الآية، وقوله تعالى ﴿ وَسَطًا ﴾ أي: عدولًا خيارًا، ومعنى هذه الآية: وكما هديناكم فكذلك خصّصناكم وفضّلناكم بأن جعلناكم أمّةً خيارًا عدولًا لتشهدوا للأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام على أممهم ويشهد لكم الرّسول بالصِّدق.

قيل: إنّ الله جلّ جلاله إذا سأل الأنبياء: هل بلّغتم؟ فيقولون: نعم، فتقول أممهم: ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ، فتشهد أمّة محمّدٍ ﷺ للأنبياء، ويزكّيهم النّبيّ ﷺ، وقيل: معنى الآية أنّكم حجّةٌ على كلّ من خالفكم، والرّسول ﷺ حجّةٌ عليكم، حكاه السّمرقنديّ[١٧].

(١٦) بحر العلوم (١/٢٦٠).

(١٧) بحر العلوم (١/١٠٠).

فصل فيما ورد من خطابه تعالى مورد الملاطفة والمبرّة

فمن ذلك قوله تعالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣].

قال أبو محمّدٍ مكّيٌّ: قيل هذا افتتاح كلام بمنزلة: أصلحك الله، وأعزّك الله. وقال عون بن عبد الله: أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذّنب.

وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لبٍّ، ومن إكرامه إيّاه وبرّه به ما ينقطع دون معرفة غايته نِياطُ القلب.

ويجب على المسلم المجاهِدِ نفسَهُ، الرائضِ بزمام الشّريعة خُلُقَه أن يتأدَّبَ بآداب القرآن في قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته، فهو عنصر المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدّينيّة والدّنيويّة، وليتأمَّلْ هذه الملاطفة العجيبة في السّؤال من ربِّ الأرباب، المنعمِ على الكلِّ، المستغني عن الجميع ويستثرْ ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وآنس بالعفو قبل ذكر الذنب، إن كان ثَمَّ ذنبٌ.

وقال تعالى ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]. قال بعضهم: عاتب الله الأنبياء صلوات الله عليهم بعد الزّلات، وعاتب نبيّنا ﷺ قبل وقوعه، ليكون بذلك أشدّ انتهاءً ومحافظةً لشرائط المحبّة، وهذه غاية العناية، ثمّ انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه وخيف أن يركن إليه. ففي أثناء عتبه براءتُه، وفي طيِّ تخويفه تأمينُه وكرامتُه.

ومثله قوله تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] الآيــة. قال عليٌّ رضي الله عنه: قال أبو جهلٍ للنّبيّ ﷺ: إنّا لا نكذّبك، ولكن نكذّب بما جئت به، فأنزل الله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ الآية.

وروي أنّ النبــي ﷺ لما كذَّبــه قومه حَزِنَ، فجــاءه جبرئيل عليه السلام فقال: ما يحزنــك؟ قال: كذّبني قومي، فقــال: إنّهم يعلمون أنّك صــادقٌ، فأنزل الله تعالى الآية[١٨].

ففــي هذه الآية منــزعٌ لطيف المأخذ من تسليته تعــالى له ﷺ، وإلطافه في القــول بأنْ قرَّر عنــده أنَّه صادقٌ عندهــم، وأنهم غير مكذِّبــين له، معترفون بصدقــه قــولًا واعتقادًا، وقــد كانوا يسمُّونه قبــل النبوة الأمــينَ، فدفع بهذا التّقريــر ارتماضَ[١٩] نفسِــه بسِمَة الكذب، ثــم جعل الذم لهــم بتسميتهم جاحدين ظالمين، فقــال تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾، إذ الجحد إنّما يكون ممّن علم الشيء ثمَّ أنكره كقوله تعالى ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمــل: ١٤]، ثمَّ عزَّاه وآنسه بما ذكره عمَّن قبله ووعده بالنَّصر بقوله تعــالى ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] الآيــة، فمن قرأ «لا يُكْذِبُونك» بالتّخفيف فمعناه لا يجدونك كاذبًا، وقال الفرّاء والكسائيّ: لا يقولون إنك كاذبٌ، وقيل: لا يحتجُّون على كذبك ولا يثبتونه، ومن قرأ بالتشديد فمعناه لا ينسبونك إلى الكذب، وقيل: لا يعتقدون كذبك.

(١٨) تفسير الطبري (١١/٣٣٣).

(١٩) ارتمض فلانٌ من كذا وكذا: إذا اشتدّ عليه وأغضبه. جمهرة اللغة (٢/٧٥١).

ومما ذكر من خصائصه وبرّ الله تعالى به أنَّ الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم، فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى، يا زكريّا، يا يحيى، ولم يخاطب هو إلا بصفته: يا أيها الرسول، يا أيها النبي، يا أيّها المزّمّل، يا أيّها المدّثّر.

فصل في قَسَمِه تعالى بعظيم قدره ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]. هذا قسمٌ من الله جلَّ جلاله بمدَّة حياة محمَّدٍ ﷺ، وأصله ضمُّ العين من العُمر ولكنَّها فتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقائك يا محمَّد، وقيل: وعيشك، وقيل: وحياتك، وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفْسًا أكرمَ عليه من محمَّدٍ ﷺ، وما سمعتُ الله تعالى أقسم بحياة أحدٍ غيره[٢٠].

قال تعالى: ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢-٣].

قال النقَّاش: لم يُقسم الله تعالى لأحدٍ من أنبيائه بالرّسالة في كتابه إلّا له.

فصل في قَسَمِه تعالى له ﷺ لتحقُّقِ مكانته عنده

قال جلَّ اسمه ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ١-٢]. تضمَّنت هذه السُّورة من كرامة الله تعالى لنبيه ﷺ وتنويهه به وتعظيمه إياه ستة وجوهٍ:

(٢٠) تفسير الطبري (١٧/١١٨).

الأوّل: القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أي وربِّ الضّحى، وهذا من أعظم درجات المبرَّة.

الثاني: بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أي: ما تركك وما أبغضك، وقيل: ما أهملك بعد أن اصطفاك.

الثالث: قوله تعالى ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ قال ابن إسحاق: أي ما لك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا، وقال سهلٌ: أي ما ادَّخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خيرٌ لك مما أعطيتك في الدنيا.

الرابع: قوله تعالى ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ وهذه آيةٌ جامعةٌ لوجوه الكرامة وأنواع السّعادة وشتات الإنعام في الدّارين والزّيادة. قال ابن إسحاق: يرضيه بالفَلْج[٢١] في الدنيا والثواب في الآخرة، وقيل يعطيه الحوض والشفاعة.

الخامس: ما عدّه تعالى عليه من نعمه وقرَّره من آلائه قبله في بقية السورة من الهداية والإغناء والإيواء.

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه وشكر ما شرَّفه به بنشره وإشادةِ ذكره بقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ فإنَّ مِنْ شكرِ النِّعمة التحدُّثَ بها، وهذا خاصٌّ له عامٌّ لأمته.

وقال تعالى ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١] إلى قوله تعالى ﴿ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ

(٢١) قال الخليل بن أحمد: والفلج: الظّفر بمن تخاصمه. العين (١٢٨/٦).

ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النجم: ١٨]. تضمنت هذه الآيات من فضلِهِ وشرفِهِ العِدِّ[٢٢] ما يقف دونه العَدُّ، وأقسم جلَّ اسمه على هداية المصطفى وتنزيهه عن الهوى وصِدْقِه فيما تلا وأنه وحيٌ يوحى أوصله إليه عن الله جبرئيل وهو الشديد القوى.

ثمّ أخبر تعالى عن فضيلته بقصَّة الإسراء وانتهائه إلى سدرة المنتهى وتصديق بصره فيما رأى وأنه رأى من آيات ربه الكبرى.

وقد نبَّه على مثل هذا في أوَّل سورة الإسراء، ولما كان ما كاشفه ﷺ من ذلك الجبروت وشاهده من عجائب الملكوت لا تُحيط به العباراتُ ولا تستقلُّ بحمل سماع أدناه العقولُ رمز عنه تعالى بالإيماء والكناية الدالَّة على التعظيم:

فقال تعالى ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾، وهذا النوع من الكلام يسمِّيه أهل النَّقد والبلاغة بالوحي والإشارة، وهو عندهم أبلغ أبواب الإيجاز، ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾، انحسرت الأفهامُ عن تفصيل ما أوحى، وتاهت الأحلام في تعيين تلك الآيات الكبرى.

اشتملت هذه الآيات على إعلام الله تعالى بتزكيته ﷺ في هذا المسرى، فزكَّى قلبه بقوله تعالى ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾، ولسانه بقوله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾، وبصره بقوله ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وما هو على الغيب بظنينٍ ﴾ أي بمتَّهم، ومن قرأها بالضاد فمعناه ما هو ببخيلٍ بالدُّعاء به والتذكير بحكمه وبعلمه، وهذه لمحمَّدٍ ﷺ باتّفاقٍ.

(٢٢) العدّ بالكسر الماء الذي له مادة لا تنقطع. الصحاح للجوهري (٢/٥٠٦).

وقال تعالى ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ ﴾ [القلم: ١] الآيات. أقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم قسمه على تنزيه المصطفى ﷺ مما غمصته الكفرة به وتكذيبهم له، وآنسه وبسط أمله بقوله محسنًا خطابه ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾ [القلم: ٢]، وهذه نهاية المبرَّة في المخاطبة وأعلى درجات الآداب في المحاورة، ثم أعلمه بما له عنده من نعيم دائم وثوابٍ غير منقطعٍ لا يأخذه عدٌّ ولا يمنُّ به عليه، فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴾ [القلم: ٣].

ثمّ أثنى عليه بما منحه من هِباته وهداه إليه، وأكَّد ذلك تتميمًا للتمجيد بحرفي التأكيد، فقال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ [القلم: ٤]، قيل: القرآن وقيل: الإسلام وقيل: الطبع الكريم.

ثمّ سلَّاه عن قولهم بعد هذا بما وعده به من عقابهم وتوعَّدهم بقوله ﴿ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [القلم: ٥-٧].

ثمّ ذمَّ عدوَّه وذكر سوء خلقه وعدَّ معايبه متولِّيًا ذلك بفضله ومنتصرًا لنبيِّه ﷺ، فذكر بضع عشرة خصلةً من خصال الذّمِّ فيه بقوله تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [القلم: ٨-١٥]، وختم ذلك بالوعيد الصادق بتمام شقائه وخاتمة بواره بقوله تعالى ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴾ [القلم: ١٦]، فكانت نصرةُ الله تعالى لنبيِّه أتمَّ مِن نصرته ﷺ لنفسه وردُّه تعالى على عدوِّه أبلغَ من ردِّه وأثبتَ في ديوان مجده.

فصلٌ فيما ورد من قوله تعالى في جهته ﷺ مورد الشّفقة والإكرام

قال تعالى ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ١ - ٢]. نزلت الآية فيما كان النبيُّ ﷺ يتكلَّفه من السهر والتعب وقيام الليل[٢٣].

ومثل هذا من نمط الشفقة والمبرة قوله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦] أي قاتلٌ نفسك لذلك غضبًا أو غيظًا أو جزعًا. ومثله قوله تعالى أيضًا ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، ثمّ قال تعالى ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤].

ومن هذا الباب قوله تعالى ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] إلى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

وقوله ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ [الأنعام: ١٠]، [الرعد: ٣٢]، [الأنبياء: ٤١] الآية. قال مكّيٌّ: سلاه تعالى بما ذكر وهوَّن عليه ما يلقاه من المشركين وأعلمه أنَّ مَن تمادى على ذلك يحِلُّ به ما حلَّ بمن قبله.

ومثل هذه التسلية قوله تعالى ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ [فاطر: ٤].

---

(٢٣) قال مجاهد في قوله ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ يعني: «في الصّلاة»، وهو كقوله: ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ ﴾، قال: «وكانوا يعلّقون الحبال بصدورهم في الصّلاة». تفسير مجاهد (ص٤٦٠). وينظر: تفسير الطبري (١٨/٢٦٩).

ومن هذا قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾ [الذاريات: ٥٢]، عزّاه الله تعالى بما أخبر به عن الأمم السّالفة ومقالتها لأنبيائهم قبله ومحنتهم بهم، وسلاه بذلك عن محنته بمثله من كفار مكة، وأنه ليس أول من لقي ذلك، ثم طيَّب نفسه وأبان عذره بقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ ﴾، أي: أعرض عنهم ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴾، أي: في أداء ما بلِّغت وإبلاغ ما حمِّلت.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، أي: اصبر على أذاهم، فإنك بحيث نراك ونحفظك، سلاه الله تعالى بهذا في آيٍ كثيرةٍ من هذا المعنى.

فصل فيما أخبر الله تعالى به من عظيم قدره ﷺ وشريف منزلته على الأنبياء عليهم السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال المفسّرون: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبيًّا إلا ذكر له محمَّدًا ونعته وأخذ عليه ميثاقه إنْ أدركه ليؤمننَّ به، وقيل: أن يبيِّنه لقومه ويأخذ ميثاقهم أنْ يبيِّنوه لمن بعدهم.

وقوله ﴿ ثُمَّ جَآءَكُمۡ ﴾، الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمَّدٍ ﷺ، قال علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: لم يبعث الله نبيًّا من آدم فمن بعده إلا أخذ

عليه العهد في محمدٍ ﷺ لئنْ بعث وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه ويأخذنَّ العهد بذلك على قومه[٢٤].

قال الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٣ – ١٦٦].

قال السَّمَرْقَنْدي: في هذا تفضيل نبيِّنا ﷺ لتخصيصه بالذِّكر قبلهم وهو آخرهم بعثًا، المعنى: أخذ الله تعالى عليهم الميثاق إذ أخرجهم من ظهر آدم كالذَّرِّ[٢٥].

وقال تعالى ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية. قال أهل التّفسير: أراد بقوله ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ محمَّدًا ﷺ؛ لأنه بعث إلى الأحمر والأسود وأُحِلَّت له الغنائمُ وظهرت على يديه المعجزات، وليس أحدٌ من الأنبياء أعطي فضيلةً أو كرامةً إلا وقد أعطى محمدًا ﷺ مثلها.

(٢٤) تفسير ابن كثير (٢/٦٧).

(٢٥) بحر العلوم (٣/٤٦).

فصلٌ في إعلام الله تعالى خلقه بصلاته عليه ﷺ وولايته له ورفعه العذاب بسببه

قال الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، أي: ما كنت بمكة. فلما خرج النبي ﷺ من مكة وبقي فيها من بقي من المؤمنين نزل ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وهذا مثل قوله ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ﴾ [الفتح: ٢٥]، وقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ﴾ [الفتح: ٢٥] في آية ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٥]، فلما هاجر المؤمنون نزلت ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وهذا من أبين ما يُظهر مكانته ﷺ ودرأته العذاب عن أهل مكة بسبب كونه ثم كونِ أصحابه بعده بين أظهُرِهم، فلما خلت مكة منهم عذبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم وغلبتهم إياهم وحكَّم فيهم سيوفَهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم

وفي الآية أيضًا تأويلٌ آخر:

عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليَّ أمانين لأمتي: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فإذا مضيت تركت فيكم الاستغفار»[٢٦].

(٢٦) أخرجه الترمذي (٥/٢٧٠) بإسناد ضعيف، لكن له شواهد يرقى بها إلى درجة الحسن إن شاء الله، وقد أوردها

ونحوٌ منه قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال ﷺ: «أنا أمانٌ لأصحابي»[٢٧]، قيل: من البدع، وقيل من الاختلاف والفتن. قال بعضهم: الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم ما عاش، وما دامت سنتُه باقيةً فهو باقٍ، فإذا أميتت سنته فانتظروا البلاء والفتن.

وقال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية.

أبان الله تعالى فضل نبيِّه ﷺ بصلاته عليه ثمَّ بصلاة ملائكته وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه. وقد حكى أبو بكر ابن فورك أن بعض العلماء تأوَّل قوله ﷺ: «وجعلت قرَّة عيني في الصلاة» على هذا، أي: في صلاة الله تعالى عليَّ وملائكته وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة. والصلاة من الملائكة ومنَّا له دعاءٌ ومن الله عزّ وجلّ رحمةٌ، وقيل: يصلُّون يباركون، وقد فرق النبي ﷺ حين علَّم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة والبركة وسنذكر حكم الصلاة عليه.

وقال تعالى ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٞ ﴾ [التحريم: ٤] الآية، مولاه أي وليُّه وصالح المؤمنين، قيل الأنبياء وقيل الملائكة وقيل أبو بكرٍ وعمر، وقيل عليٌّ رضي الله عنهم أجمعين، وقيل المؤمنون على ظاهره.

ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٤/٤٩).

(٢٧) صحيح مسلم (٤/١٩٦١).

فصلٌ فيما تضمَّنته سورة الفتح من كراماته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح: ١ - ١٠].

تضمَّنت هذه الآياتُ من فضله والثناء عليه وكريم منزلته عند الله تعالى ونعمته لديه ما يَقصُر الوصفُ عن الانتهاء إليه؛ فابتدأ جلَّ جلاله بإعلامه بما قضاه له مِن القضاءِ البيِّن بظهوره وغلبته على عدوِّه وعلوِّ كلمته وشريعته وأنه مغفورٌ له غيرُ مُؤاخَذٍ بما كان وما يكون. قال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع أي أنك مغفورٌ لك، وقال مكيٌّ: جعل الله المنة سببًا للمغفرة وكلٌّ من عنده لا إله غيره، منةً بعد منةٍ وفضلًا بعد فضلٍ.

ثم قال: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: يرفع ذكرك في الدنيا وينصرك ويغفر لك. فأعلمه تمام نعمته عليه بخضوع متكبِّري عدوِّه له، وفتح أهمِّ البلاد عليه وأحبِّها له، ورفعِ ذكره، وهدايتِه الصراط المستقيم المبلِّغ الجنَّة والسعادة، ونصرِه النصر العزيز، ومنتِه على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم، وبشارتهم بما لهم عند ربِّهم بعد وفوزهم العظيم والعفو عنهم والستر لذنوبهم، وهلاكِ عدوِّه في الدنيا والآخرة ولعنِهم وبُعْدِهم مِنْ رحمتِه وسوءِ مُنْقَلَبِهم.

ثم قال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الآية، فعدَّ محاسنه وخصائصه من شهادته على أمته لنفسه بتبليغه الرسالة لهم، ومبشِّرًا لأمته بالثواب، ومنذرًا عدوَّه بالعذاب، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾: أي تجلُّونه، وتنصرونه، وتبالغون في تعظيمه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تعظِّمونه، والأكثر والأظهر أنَّ هذا في حقِّ محمَّدٍ ﷺ، ثم قال: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، فهذا راجعٌ إلى الله تعالى؛ قال ابن عطاءٍ: جمع للنبي ﷺ في هذه السورة نِعَمٌ مختلفةٌ من الفتح المبين وهي مِن أعلامِ الإجابة، والمغفرة وهي مِن أعلام المحبَّة، وتمام النِّعمة وهي من أعلام الاختصاص، والهداية وهي من أعلام الولاية؛ فالمغفرة تبرئةٌ من العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة، والهداية وهي الدعوة إلى المشاهدة.

فصلٌ فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته ﷺ عليه ومكانته عنده وما خصّه به

من ذلك عصمته من النَّاس بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله تعالى ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية، وقوله ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠]، وما دفع الله به عنه في هذه القصة مِن أذاهم بعد تحرِّيهم لهلكه وخلوصهم نجيًّا في أمره، والأخذ على أبصارهم عند خروجه عليهم، وذهولهم عن طلبه في الغار وما ظهر في ذلك من الآيات ونزول السكينة عليه، وقصة سُراقةَ بنِ مالك حسبما ذكره أهل الحديث والسِّيَر في قصة الغار وحديث الهجرة.

ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ [الكوثر: ١-٣]. أعلمه الله تعالى بما أعطاه، والكوثر حوضه، وقيل: نهرٌ في الجنَّة، وقيل: الخير الكثير. ثم أجاب عنه عدوَّه وردَّ عليه قولَهُ فقال تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ أي عدوَّك ومبغضك، والأبتر الحقير الذليل أو المفرد الوحيد أو الذي لا خير فيه.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧]، قيل: السبع المثاني السور الطِّوال الأول، والقرآن العظيم أمُّ القرآن، وقيل: السبع المثاني أمُّ القرآن والقرآن العظيم سائره.

وقال: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] الآية، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] الآية. فهذه من خصائصه[٢٨].

وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فخصهم بقومهم وبعث محمدًا ﷺ إلى الخلق كافةً كما قال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»[٢٩].

وقال تعالى ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٦]. قال أهل التّفسير: ﴿ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي ما أنفذه فيهم من أمرٍ فهو ماضٍ عليه كما يمضي حكم السيِّد على عبده، وقيل: اتباع أمره أولى من اتباع رأي النفس، ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ أي هنَّ في الحرمة كالأمهات حرم نكاحهنَّ عليهم بعده تكرمةً له وخصوصيةً، ولأنهن له أزواجٌ في الجنة.

وقال الله تعالى ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] الآية، أي: فضله العظيم بالنبوة.

(٢٨) يشير إلى ما جاء في تمام الآية من كونه ﷺ نبيًّا أمّيًّا.

(٢٩) صحيح مسلم (١/ ٣٧٠)، وهو في صحيح البخاري (١/ ٩٥) أيضًا بلفظ: «وبعثت إلى الناس كافة».

الباب الثّاني في تكميل الله تعالى له ﷺ المحاسن خلقًا وخلقًا وقرانه جميع الفضائل الدّينيّة والدّنيويّة فيه نسقًا

اعلـم أيّها المحبّ لهذا النّبيّ الكريم ﷺ الباحثُ عن تفاصيل جمل قدره العظيم أنّ خصال الجمال والكمال في البشر نوعان: ضروريٌّ دنيويٌّ اقتضته الجبلّـة وضرورة الحياة الدنيا، ومكتسبٌ دينيٌّ وهو ما يحمد فاعله ويقرّب إلى الله تعـالى زلفى، ثمّ هـي على فنّين أيضًا؛ منها مـا يتخلّص لأحد الوصفين ومنها ما يتمازج ويتداخل.

فأمّـا الضّروريّ المحض فما ليس للمرء فيه اختيـارٌ ولا اكتسابٌ، مثل ما كان في جملتـه مـن كمال خلقته وجمـال صورته، وقوّة عقلـه وصحّة فهمه وفصاحة لسانه، وقـوّة حواسه وأعضائه واعتدال حركاته، وشرف نسبه وعزّة قومـه وكرم أرضه. ويلحق به مـا تدعوه ضرورة حياته إليـه من غذائه ونومه وملبسـه ومسكنه ومنكحه ومالـه وجاهه، وقد تلحق هـذه الخصال الآخرة بالأخرويّة إذا قصد بها التّقوّي ومعونة البدن على سلوك طريقها وكانت على حدود الضّرورة وقواعد الشّريعة.

وأمّـا المكتسبـة الأخرويّة فسائر الأخلاق العلميـة والآداب الشّرعيّة من الدّين والعلم والحلم والصّبر والشّكر والعدل والزّهد والتّواضع والعفو والعفّة

والجود والشّجاعة والحياء والمروءة والصّمت والتّؤدة والوقار والرّحمة وحسن الأدب والمعاشرة وأخواتها، وهي الّتي جماعها: حسن الخلق. وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجبلّة لبعض النّاس، وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها ولكنّه لا بدّ أن يكون فيه من أصولها في أصل الجبلّة شعبةٌ كما سنبيّنه إن شاء الله تعالى، وتكون هذه الأخلاق دنيويّةً إذا لم يرد بها وجه الله والدّار الآخرة، ولكنّها كلّها محاسن وفضائل باتّفاق أصحاب العقول السّليمة، وإن اختلفوا في موجب حسنها وتفضيلها.

فصلٌ فيه أنه اجتمع فيه ﷺ من خصال الكمال ما يشرف غيره بواحدة منها

إذا كانت خصال الكمال والجلال ما ذكرناه ورأينا الواحد منّا يتشرّف بواحدةٍ منها أو اثنتين إن اتّفقت له في كلّ عصرٍ إمّا من نسبٍ أو جمالٍ أو قوّةٍ أو علمٍ أو حلمٍ أو شجاعة أو سماحةٍ، حتّى يعظم قدره ويضرب باسمه الأمثال ويتقرّر له بالوصف بذلك في القلوب أثرةٌ وعظمةٌ، وهو منذ عصورٍ خوالٍ رممٌ بوالٍ، فما ظنّك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كلّ هذه الخصال، إلى ما لا يأخذه عدٌّ ولا يعبّر عنه مقالٌ، ولا ينال بكسبٍ ولا حيلةٍ إلّا بتخصيص الكبير المتعال، من فضيلة النّبوّة والرّسالة، والخلّة والمحبّة والاصطفاء، والإسراء والرّؤية والقرب والدّنوّ والوحي، والشفاعة والوسيلة والفضيلة والدّرجة الرّفيعة والمقام المحمود، والبراق والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصّلاة بالأنبياء، والشّهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد، والبشارة والنّذارة، والأمانة والهداية ورحمةٍ للعالمين، وإعطاء

الرّضى والسّؤل والكوثـر، وسماع القول وإتمام النّعمة، والعفو عمّا تقدّم وما تأخّر، وشرح الصّدر ووضع الإصر، ورفع الذّكر وعزّة النّصر، ونزول السّكينة والتّأييـد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة والسّبـع المثاني والقرآن العظيم، وتزكية الأمّة، والدّعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة، والحكم بين النّاس بمـا أراه الله، ووضع الإصر والأغلال عنهم، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات والعجـم، ونبع الماء من بين أصابعه وتكثير القليـل، وانشقاق القمر، والنّصر بالرّعب، وظـلّ الغمام، وتسبيح الحصى وإبراء الآلام، والعصمة من النّاس، إلى مـا لا يحويـه محتفلٌ ولا يحيط بعلمه إلا مانحه ذلـك ومفضّله به لا إله غـيره، إلى ما أعـدّ له في الدّار الآخرة من منـازل الكرامة، ودرجات القدس ومراتـب السّعـادة، والحسنى والزّيادة التي تقف دونهـا العقول، ويحار دون إدراكها الوهم.

فصلٌ في صفاته ﷺ الخَلْقية

إن قلت أكرمك الله لا خفاء على القطع بالجملة أنّه ﷺ أعلى النّاس قدرًا، وأعظمهم محلًّا، وأكملهم محاسـن وفضلًا، وقد ذهبْتَ في تفاصيل خصال الكمال مذهبًا جميلًا، شوّقني إلى أن أقف عليها من أوصافه ﷺ تفصيلًا.

فاعلـم نوّر الله قلبـي وقلبك وضاعف في هذا النّبـيّ الكريم حبّي وحبّك أنّـك إذا نظرت إلى خصال الكمال الّتي هـي غير مكتسبةٍ وفي جبلّة الخلقة وجدتـه ﷺ حائزًا لجميعهـا محيطًا بشتات محاسنهـا، دون خلافٍ بين نقلة الأخبار لذلك، بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع.

أمّا الصّورة وجمالها وتناسب أعضائه في حسنها فقد جاءت الآثار الصّحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من أنّه ﷺ كان أزهر اللّون[١]، أدعج[٢]، أنجل[٣]، أشكل[٤]، أهدب الأشفار[٥]، أبلج[٦]، أزجّ[٧]، أقنى[٨]، أفلج[٩]، مدوّر الوجه، واسع الجبين.

كثّ اللّحية تملأ صدره، سواء البطن والصّدر، واسع الصّدر، عظيم المنكبين، ضخم العظام، عبل العضدين والذّراعين والأسافل[١٠]، رحب الكفّين والقدمين[١١]، سائل الأطراف[١٢].

أنور المتجرّد[١٣]، دقيق المسربة[١٤]، ربعة القدّ ليس بالطّويل البائن ولا القصير المتردّد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحدٌ ينسب إلى الطّول إلّا طاله

(١) أبيض اللون مشرقه. غريب الحديث لابن قتيبة (١/٤٩٠).
(٢) أدعج العينين، والدعج شدة سواد العين في شدة البياض. غريب الحديث لابن الجوزي (١/٣٣٨).
(٣) عظيم المقلتين مع سوادها. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٣/٧٤١).
(٤) أي: كان لونه ﷺ أبيض مشوبًا بحمرة، والشكل اختلاط الحمرة بالبياض. انظر: تهذيب اللغة (١٠/١٦).
(٥) أي: طويل شعر الأجفان. النهاية في غريب الحديث (٥/٢٤٩).
(٦) من البلج، وهو ابيضاض ما بين الحاجبين ونقاؤه. الجمهرة لابن دريد (١/٢٦٩).
(٧) من الزجج، وهو تقوّس في الحاجب مع طول في طرفه. النهاية في غريب الحديث (٢/٢٩٦).
(٨) من القنا، وهو طول مرسن الأنف ودقة أرنبته وحدب في وسطه. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (١/٤٩١).
(٩) رجل أفلج، أي: المتباعد ما بين الرّجلين، فأما في الأسنان فلا يقال إلا أفلج الأسنان ومفلج الأسنان. الجمهرة لابن دريد (١/٤٨٧).
(١٠) أي عريضها. انظر: غريب الحديث للقاسم بن سلام (٣/٢٨).
(١١) وفي رواية مشهورة: شثن الكفين، يعني أنهما تميلان إلى الغلظ. انظر: المصدر السابق (٣/٢٦).
(١٢) يريد الأصابع أنها طوال ليست بمنعقدة ولا متغضنة. غريب الحديث لابن قتيبة (١/٥٠٢).
(١٣) أي: شديد بياض ما ظهر من بدنه، والمتجرد ما جرّد عنه الثوب من بدنه، وأنور من النور، يريد شدة بياضه. انظر: المصدر السابق (١/٥٠٠).
(١٤) المسربة بضم الراء وفتحها: الشعر المستدقّ ما بين اللبة إلى السّرّة. غريب الحديث لابن قتيبة (١/٤٩٧).

ﷺ، رجل الشّعر، إذا افترّ ضاحكًا افترّ عن مثل سنا البرق وعن مثل حبّ الغمام، إذا تكلم رؤي كالنّور يخرج من ثناياه.

أحسن النّاس عنقًا ليس بمطهّمٍ[١٥] ولا مكلثمٍ[١٦]، متماسك البدن ضرب اللّحم[١٧].

قال البراء رضي الله عنه: ما رأيت من ذي لمّةٍ[١٨] في حلّةٍ حمراء أحسن من رسول الله ﷺ[١٩].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ، كأنّ الشّمس تجري في وجهه[٢٠].

وقال جابر بن سمرة رضي الله عنه وقال له رجلٌ: كان وجهه ﷺ مثل السّيف؟ فقال: لا، بل مثل الشّمس والقمر، وكان مستديرًا[٢١].

وقالت أمّ معبدٍ رضي الله عنها في بعض ما وصفته به: أجمل النّاس من بعيدٍ وأحلاه وأحسنه من قريبٍ[٢٢].

---

(١٥) أي لم يكن بالبادن الكثير اللحم. غريب الحديث لابن الجوزي (٢/٤٥).

(١٦) قال أبو عبيد: معناه: لم يكن مستدير الوجه، ولكنه كان أسيلًا، وقال شمر: المكلثم من الوجوه: القصير الحنك، الداني الجبهة المستدير الوجه. قال: ولا تكون الكلثمة إلا مع كثرة اللحم. تهذيب اللغة (١٠/٢٣٥).

(١٧) أي خفيف الجسم. انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين لابن فتوح الأزدي (ص٥٢٣).

(١٨) اللّمّة الشعر إذا جاوز شحمة الأذنين. الجمهرة لابن دريد (١/١٦٨).

(١٩) صحيح مسلم (٤/١٨١٨).

(٢٠) أخرجه الترمذي (٥/٦٠٤)، وأحمد (١٤/٢٥٨) وابن حبان (١٤/٢١٥) وغيرهم.

(٢١) صحيح مسلم (٤/١٨٢٢).

(٢٢) جزء من حديث طويل يحكي قصة أم معبد، أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦/٢٥٢)، وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٢/٨٣٢)، والآجري في الشريعة (٣/١٤٩٦)، والطبراني في الكبير (٤/٤٨)، والحاكم

وقال عليٌّ رضي الله عنه في آخر وصفه له: من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبّه، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ[٢٣].

فصل في نظافة جسمه ﷺ وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن عورات الجسد

وأمّا نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد فكان قد خصّه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره ثمّ تمّمها بنظافة الشّرع وخصال الفطرة العشر.

عن أنسٍ رضي الله عنه: قال ما شممت عنبرًا[٢٤] قطّ ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ[٢٥].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه أنّه ﷺ مسح خدّه، قال: فوجدت ليده بردًا وريحًا كأنّما أخرجها من جؤنة عطّارٍ[٢٦].

قال غيره: مسّها بطيبٍ أم لم يمسّها يصافح المصافح فيظلّ يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصّبيّ فيُعْرَفُ من بين الصّبيان بريحها[٢٧].

في المستدرك (٣/١٠) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢٣) أخرجه الترمذي (٥/٥٩٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/٣٢٨)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٢/٦٠٤)، وغيرهم بإسناد فيه انقطاع.

(٢٤) العنبر الطيب. ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (٢/١١٢٣)، والمحكم لابن سيدة (٢/٤٦٨).

(٢٥) صحيح مسلم (٤/١٨١٤).

(٢٦) صحيح مسلم (٤/١٨١٤). والجؤنة بضم الجيم سفط مغشي بجلد، ظرف لطيب العطار. القاموس المحيط (ص١١٨٥).

(٢٧) أخرجه البيهقي في الدلائل (١/٢٩٨-٣٠٦) من حديث عائشة رضي الله عنها في حديث طويل في صفة رسول الله ﷺ.

ونـام رسول الله ﷺ في دار أنسٍ رضي الله عنه فعرق، فجاءت أمّه بقارورةٍ تجمع فيها عرقه، فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك، فقالت: نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطّيب[٢٨].

وذكـر البخاريّ في تاريخه الكبير عن جابرٍ رضي الله عنه: لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحدٌ إلّا عرف أنّه سلكه من طيبه[٢٩].

ومنه حديث عليٍّ رضي الله عنه: غسّلت النّبيّ ﷺ فذهبت أنظر ما يكون من الميّت فلـم أجد شيئًا، فقلت: طبت حيًّا وميّتًا. قال: وسطعت منه ريحٌ طيّبةٌ لم نجد مثلها قطّ[٣٠].

ومثله قال أبو بكر رضي الله عنه حين قبل النبي ﷺ بعد موته[٣١].

فصل في وفور عقله ﷺ وقوة حواسه

وأمّـا وفور عقله وذكاء لبّـه وقوّة حواسّه وفصاحة لسانـه واعتدال حركاته وحسـن شمائله فلا مرية أنّه كان أعقل النّاس وأذكاهم، ومن تأمّل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة مع عجيب شمائله وبديع سيره فضلًا عمّا أفاضه من العلم وقرّره من الشّرع دون تعلم سبق ولا ممارسةٍ تقدّمت

(٢٨) صحيح مسلم (٤/١٨١٤).
(٢٩) التاريخ الكبير (١/٣٩٩).
(٣٠) سنن ابن ماجه (١/٤٧١)، وإسناده صحيح.
(٣١) صحيح البخاري (٥/٦).

ولا مطالعةٍ للكتب منه لم يمتر في رجحان عقله وثقوب فهمه لأوّل بديهةٍ، وهذا ممّا لا يحتاج إلى تقريره لظهوره.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحدًا أسرع من رسول الله ﷺ في مشيه كأنّما الأرض تطوى له، إنّا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث[٣٢].

وفي صفته عليه السلام أنّ ضحكه كان تبسّمًا، إذا التفت التفت معًا، وإذا مشى مشى تقلّعًا كأنّما ينحطّ من صببٍ[٣٣].

فصل في فصاحة لسانه ﷺ وبلاغة قوله

وأمّا فصاحة اللّسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحلّ الأفضل والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزعٍ وإيجاز مقطعٍ، ونصاعة لفظٍ وجزالة قولٍ، وصحّة معانٍ وقلّة تكلّفٍ، أوتي جوامع الكلم وخصّ ببدائع الحكم، وعلّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كلّ قبيلةٍ منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها، حتّى كان كثيرٌ من أصحابه يسألونه في غير موطنٍ عن شرح كلامه وتفسير قوله، ومن تأمّل حديثه وسيره علم ذلك وتحقّقه.

وأمّا كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألّف النّاس فيها الدّواوين وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها مالا

(٣٢) أخرجه الترمذي (٥/٦٠٤)، وابن حبان في صحيحه (١٤/٢١٥)، وإسناده على شرط مسلم.

(٣٣) أخرجه الترمذي (٥/٥٩٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/٣٢٨)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٢/٦٠٤)، وغيرهم بإسناد فيه انقطاع.

يـوازى فصاحةً ولا يبارى بلاغةً. كقوله: «المسلمـون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم»[٣٤]. وقوله: «المرء مع من أحبّ»[٣٥]. و«الناس معادن»[٣٦]. و«المستشار مؤتمن»[٣٧]. و«رحم الله عبدًا قال خيرًا فغنم أو سكت فسلم»[٣٨]. وقوله: «أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرّتين»[٣٩]. و«إنّ أحبَّكـم إليَّ وأقربَكـم منّـي مجالسَ يـومَ القيامة أحاسنُكـم أخلاقًا، الموطَّؤون أكنافًا الذين يَأْلفون ويُؤْلفون»[٤٠].

ونهيـه عن قيل وقـال وكثرة السّـؤال وإضاعة المال ومنـع وهات وعقوق الأمّهات ووأد البنات[٤١].وقوله: «اتّق الله حيثما كنت، وأتبع السّيّئة الحسنة تمحها، وخالق النّاس بخلقٍ حسنٍ»[٤٢]. وقوله: «الظّلم ظلماتٌ يوم القيامة»[٤٣].

(٣٤) أخرجه أبو داود (٣/٨٠)، وابن ماجه (٢/٨٩٥)، وأحمد (٢/٢٦٨) وغيرهم، وهو حديث صحيح.

(٣٥) صحيح مسلم (٤/٢٠٣٤).

(٣٦) صحيح البخاري (٤/١٤٩)، صحيح مسلم (٤/١٩٥٨).

(٣٧) أخرجه أبو داود (٤/٣٣٣)، والترمذي (٥/١٢٥)، وابن ماجه (٢/١٢٣٣) وغيرهم، وهو حديث صحيح.

(٣٨) أخرجه أحمد في الزهد (ص٢٢٤)، وهناد بن السري في الزهد (٢/٥٣٥)، وابن أبي الدنيا في الصمت (ص ٧١)، وابن المقرئ في معجمه (ص٣٩٤)، والبيهقي في الشعب (٧/١٩،١٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/٣٣٩،٣٣٨) من طريقين عن الحسن مرسلاً ومرفوعاً، وحسنه الألباني في الصحيحة [٨٥٥] بمجموع طرقه.

(٣٩) صحيح البخاري (١/٨)، صحيح مسلم (٣/١٣٩٣).

(٤٠) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/٤٤٣)، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (ص٢٢٦)، ومداراة الناس (ص٧٢) وذم الغيبة والنميمة (ص٣٥)، والطبراني في المعجم الصغير (٢/٨٩)، ومكارم الأخلاق له (ص٣١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/٤٤٠)، وأورده الألباني في الصحيحة [٧٥١].

(٤١) صحيح البخاري (٨/١٠٠)، صحيح مسلم (٣/١٣٤١).

(٤٢) أخرجه الترمذي (٤/٣٥٥) وصححه، وأحمد (٣٥/٢٨٤)، وأورده الألباني في الصحيحة [١٣٧٣].

(٤٣) صحيح البخاري (٣/١٢٩)، صحيح مسلم (٤/١٩٩٦).

إلى مـا روتـه الكافّة عن الكافّة مـن مقاماته ومحاضراتـه وخطبه وأدعيته ومخاطباتـه وعهوده، ممّا لا خلاف أنّه نزل من ذلـك مرتبةً لا يقاس بها غيره وحاز فيها سبقًا لا يقدر قدره.

وقد جمعت من كلماته الّتي لم يسبق إليها ولا قدر أحدٌ أن يفرغ في قالبه عليهـا كقوله: «حمي الوطيس»[٤٤]. و«لا يلـدغ المؤمن من جحرٍ مرّتين»[٤٥]. في أخواتهـا ما يدرك النّاظر العجب في مضمّنهـا ويذهب به الفكر في أداني حكمها.

فصل

وأمّا ما تدعو ضرورة الحياة إليه ممّا فصّلناه فعلى ثلاثة أضربٍ:

ضربٌ الفضل في قلّته وضربٌ الفضل في كثرته وضربٌ تختلف الأحوال فيه.

فأمّا ما التّمدّح والكمال بقلّته اتّفاقًا وعلى كلّ حالٍ عادةً وشريعةً فكالغذاء والنّوم، ولم تزل العـرب والحكماء تتمادح بقلّتهما وتذمّ بكثرتهما لأنّ كثرة الأكل والشّرب دليـلٌ على النّهم والحرص والشّره وغلبـة الشّهوة، مسبّبٌ لمضـارّ الدنيا والآخرة جالبٌ لأدواء الجسد وخثـارة النّفس وامتلاء الدّماغ، وقلّته دليلٌ على القناعة وملك النّفس، وقمع الشّهوة، مسبّبٌ للصّحّة وصفاء الخاطر وحدّة الذّهن، كما أنّ كثرة النّوم دليلٌ على الفسولة والضّعف، وعدم

(٤٤) صحيح مسلم (٣/١٣٩٨).

(٤٥) صحيح البخاري (٨/٣١)، صحيح مسلم (٤/٢٢٩٥).

الـذّكاء والفطنة، مسبّبٌ للكسـل وعادة العجز وتضييـع العمر في غير نفعٍ، وقساوة القلب وغفلته وموته.

وكان النبـي ﷺ قـد أخذ من هذيـن الفنّين بالأقلّ، هـذا ما لا يدفع من سيرته وهو الذي أمر به وحضّ عليه لا سيّما بارتباط أحدهما بالآخر.

عـن المقـدام بن معدِيكَرِب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «ما ملأ ابن آدم وعـاءً شرًّا من بطنه، حسب ابـن آدم أكلاتٌ يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه»[٤٦].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يمتلئ جوف النّبيّ ﷺ شبعًا قطّ[٤٧].

وكان في أهلـه لا يسألهـم طعامًـا ولا يتشهّاه، ما أطعموه قبـل وما سقوه شرب[٤٨].

ولا يعترضـ على هذا بحديث بريرة رضـي الله عنها وقوله «ألم أر البرمة فيهـا لحمٌ؟»[٤٩]، إذ لعلّ سبب سؤاله ظنّـه ﷺ اعتقادهم أنّه لا يحلّ له فأراد

(٤٦) أخرجه الترمذي (٥٩٠/٤)، وابن ماجه (١١١١/٢)، وأحمد (٤٢٢/٢٨)، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٢٦٥]، وصححه في الإرواء (٤١/٧) ورد على القائلين بالانقطاع.

(٤٧) لم أجده، وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها قولها: «ما شبع آل محمد ثلاثا من خبز برٍّ حتى قبض»، أخرجه أحمد (١٢٧/٤٢)، وابن سعد في الطبقات (٤٠١/١)، وقولها: «إن كنّا لننظر إلى الهلال، ثمّ الهلال، ثمّ الهلال، ثلاثة أهلّةٍ في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ»، أخرجه البخاري (١٥٣/٣)، ومسلم (٢٢٨٣/٤).

(٤٨) قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما عاب النّبيّ ﷺ طعامًا قطّ، إن اشتهاه أكله وإلّا تركه». أخرجه البخاري (١٩٠/٤)، ومسلم (١٦٣٢/٣).

(٤٩) صحيح البخاري (٤٧/٧)، وتتمته: «قالوا: بلى، ولكن ذلك لحمٌ تصدّق به على بريرة، وأنت لا تأكل الصّدقة، قال: «عليها صدقةٌ ولنا هديّةٌ».

بيان سنّته، إذ رآهم لم يقدموه إليه مع علمه أنّهم لا يستأثرون عليه به، فصدّق عليهم ظنّه وبيّن لهم ما جهلوه من أمره بقوله «هو لها صدقةٌ ولنا هديّةٌ».

وفي صحيح الحديث قوله ﷺ: «أمّا أنا فلا آكل متّكئًا»[٥٠]. والاتّكاء هو التّمكّن للأكل في الجلوس له كالمتربّع وشبهه من تمكّن الجلسات الّتي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه، والنّبيّ ﷺ إنّما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعيًا، وليس معنى الحديث في الاتّكاء الميل على شقٍّ عند المحقّقين.

وكذلك نومه ﷺ كان قليلًا شهدت بذلك الآثار الصّحيحة.

ومع ذلك فقد قال ﷺ: «إنّ عينيّ تنامان ولا ينام قلبي»[٥١].

وكان نومه على جانبه الأيمن استظهارًا على قلّة النّوم؛ لأنّه على الجانب الأيسر أهنأ لهدوّ القلب وما يتعلّق به من الأعضاء الباطنة حينئذٍ لميلها إلى الجانب الأيسر، فيستدعي ذلك الاستثقال فيه والطّول، وإذا نام النّائم على الأيمن تعلّق القلب وقلق فأسرع الإفاقة ولم يغمره الاستغراق.

فصل

والضّرب الثّاني ما يتّفق التّمدّح بكثرته والفخر بوفوره كالنّكاح والجاه.

أمّا النّكاح فمتّفقٌ فيه شرعًا وعادةً؛ فإنه دليل الكمال وصحّة الذّكوريّة ولم يزل التّفاخر بكثرته عادةً معروفةً والتّمادح به سيرةً ماضيةً.

(٥٠) صحيح البخاري (٧/٧٢) بلفظ: «لا آكل متكئاً».

(٥١) صحيح البخاري (٢/٥٣)، وصحيح مسلم (١/٥٠٩).

وأمّا في الشّرع فسنّةٌ مأثورةٌ.

وقد قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنه: أفضل هذه الأمّة أكثرها نساءً[٥٢]، مشيرًا إليه ﷺ.

وقد قال ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإنّي مباهٍ بكم الأمم»[٥٣].

ونهى عن التّبتّل مع ما فيه من قمع الشّهوة وغضّ البصر اللّذين نبّه عليهما ﷺ بقوله: «من كان ذا طولٍ فليتزوّج فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج»[٥٤]، حتّى لم يره العلماء ممّا يقدح في الزّهد.

وقد روينا عن أنسٍ رضي الله عنه أنّه ﷺ كان يدور على نسائه في السّاعة من اللّيل والنّهار وهنّ إحدى عشرة، قال أنسٌ: وكنّا نتحدّث أنّه أعطي قوّة ثلاثين رجلًا. خرّجه النّسائيّ[٥٥].

وأمّا الجاه فمحمودٌ عند العقلاء عادةً، وبقدر جاهه عظمه في القلوب، وقد قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]، لكن آفاته كثيرةٌ فهو مضرٌّ لبعض النّاس لعقبى الآخرة؛ فلذلك ذمّه من ذمه ومدح ضدّه وورد في الشّرع مدح الخمول وذمّ العلوّ في الأرض.

وكان ﷺ قد رزق من الحشمة والمكانة في القلوب والعظمة قبل النّبوّة عند الجاهليّة وبعدها وهم يكذّبونه ويؤذون أصحابه ويقصدون أذاه في نفسه

---

(٥٢) صحيح البخاري (٣/٧).

(٥٣) لم يصح بهذا اللفظ، وأخرجه أبو داود (٢/٢٢٠) والحاكم في المستدرك (٢/١٧٦) وغيرهما من حديث معقل بن يسار، ولفظه: «تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم»، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٣٨٤].

(٥٤) صحيح البخاري (٣/٢٦)، وصحيح مسلم (٢/١٠١٩) بلفظ: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض..».

(٥٥) سنن النسائي الكبرى (٨/٢٠٧)، وأخرجه البخاري أيضاً (١/٦٢).

خفيةً، حتّى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، وأخباره في ذلك معروفةٌ سيأتي بعضها.

وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته من لم يره كما روي عن قيلة أنّها لمّا رأته أرعدت من الفرق فقال: «يا مسكينة عليك السّكينة»[٥٦].

وفي حديث أبي مسعودٍ رضي الله عنه أنّ رجلًا قام بين يديه فأرعد فقال له: «هوّن عليك فإنّي لست بملكٍ» الحديث[٥٧].

فصل

وأمّا الضّرب الثّالث فهو ما تختلف الحالات في التمدح به والتفاخر بسببه والتّفضيل لأجله ككثرة المال، فصاحبه على الجملة معظّمٌ عند العامّة لاعتقادها توصّله به إلى حاجاته وتمكّن أعراضه بسببه، وإلّا فليس فضيلةً في نفسه، فمتى كان المال بهذه الصّورة وصاحبه منفقًا له في مهمّاته ومهمّات من اعتراه وأمّله وتصريفه في مواضعه مشتريًا به المعالي والثّناء الحسن والمنزلة من القلوب كان فضيلةً في صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا صرفه في وجوه البرّ وأنفقه في سبل الخير وقصد بذلك الله والدّار الآخرة كان فضيلةً عند الكلّ بكلّ حالٍ، ومتى كان صاحبه ممسكًا له غير موجّهه وجوهه حريصًا على

(٥٦) قصة قيلة أخرج طرفًا منها أبو داود (٢٦٢/٤)، والترمذي (١٢٠/٥)، وأخرجها بتمامها ابن سعد في الطبقات (٢٤٠/١-٢٤٢)، وابن أبي خيثمة في تاريخه (٨٢٩/٢-٨٣٨)، والطبراني في الكبير (٨/٢٥-١٠)، وذكر ابن حجر في الإصابة (٢٨٨/٨) تحسين أبي عمر له، ولعله يقصد ابن عبد البر.

(٥٧) أخرجه ابن ماجه (١١٠١/٢)، وابن سعد في الطبقات (٢١/١) وغيرهما، وأورده الألباني في الصحيحة [١٨٧٦].

جمعه عاد كثره كالعدم، وكان منقصةً في صاحبه ولم يقف به على جَدَد السّلامة، بل أوقعه في هوة رذيلة البخل ومذمة النذالة.

فإذًا التّمدّح بالمال وفضيلته عند مفضله ليس لنفسه، وإنّما هو للتّوصّل به إلى غيره وتصريفه في متصرّفاته، فجامعه إذا لم يضعه مواضعه ولا وجّهه وجوهه غير مليءٍ بالحقيقة ولا غنيٍّ بالمعنى ولا ممتدحٍ عند أحدٍ من العقلاء، بل هو فقيرٌ أبدًا غير واصلٍ إلى غرضٍ من أغراضه، إذ ما بيده من المال الموصل لها لم يسلّط عليه، فأشبه خازن مال غيره ولا مال له، فكأنّه ليس في يده منه شيء، والمنفق مليٌّ غنيٌّ بتحصيله فوائد المال وإن لم يبق في يده من المال شيء.

فانظر سيرة نبينا ﷺ وخلقه في المال تجده قد أوتي خزائن الأرض ومفاتيح البلاد، وأحلّت له الغنائم ولم تحلّ لنبيٍّ قبله، وفتح عليه في حياته ﷺ بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشّام والعراق، وجلبت إليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا يجبى للملوك إلّا بعضه، وهادته جماعةٌ من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهمًا، بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوّى به المسلمين، وقال: «ما يسرّني أنّ لي أحدًا ذهبًا يبيت عندي منه دينارٌ إلّا دينارٌ أرصده لدينٍ»[٥٨]، وأتته دنانير مرّةً فقسمها وبقيت منها ستّةٌ، فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذه نومٌ حتّى قام وقسمها، وقال: «الآن استرحت»، ومات ودرعه مرهونةٌ في نفقة

(٥٨) صحيح البخاري (١١٦/٣)، وصحيح مسلم (٦٨٧/٢).

عيالــه واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على مــا تدعوه ضرورته إليه وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجده، فيلبس في الغالب الشّملة والكساء الخشن والبرد الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الدّيباج المخوّصة بالذّهب ويرفع لمــن لم يحضر، إذ المباهاة في الملابس والتّزيّن بها ليست من خصال الشّرف والجلالــة، وهي من سمات النّساء، والمحمــود منها نقاوة الثّوب والتّوسّط في جنسه، وكونه لبس مثله، غير مسقطٍ لمروءة جنسه، ممّا لا يؤدّي إلى الشّهرة في الطّرفين، وقد ذمّ الشّرع ذلك، وغاية الفخر فيه في العادة عند النّاس إنّما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود ووفور الحال، وكذلك التّباهي بجودة المسكن وسعة المنــزل وتكثير آلاته وخدمه ومركوباته، ومن ملك الأرض وجبي إليه ما فيها وتــرك ذلك زهدًا وتنزّهًا فهو حائــزٌ لفضيلة الماليّة ومالك للفخر بهذه الخصلة إن كانــت فضيلةً، زائدٌ عليها في الفخــر ومعرقٌ في المدح بإضرابه عنها وزهده في فانيها وبذلها في مظانّها.

فصل في أخلاقه ﷺ

وأمّا الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشّريفة الّتي اتّفق جميع العقــلاء على تفضيل صاحبها وتعظيم المتصــف بالخلق الواحد منها فضــلًا عمّا فوقه وأثنى الشّرع على جميعها وأمــر بها ووعد السّعادة الدّائمة للمتخلّق بها ووصف بعضها بأنّه من أجزاء النّبوّة وهي المسمّاة بحسن الخلق وهو الاعتدال في قوى النّفس وأوصافها والتّوسّط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها، فجميعها قد كانت خلق نبيّنا ﷺ على الانتهاء في كمالها والاعتدال

إلى غايتهـا حتّى أثنـى الله عليه بذلك فقال تعـالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وقالـت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القـرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه[٥٩]. وقـال ﷺ: «بعثت لأتمّم مكارم الأخـلاق»[٦٠]. وقال أنسٌ رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أحسن النّاس خلقًا[٦١].

فصل في حلمه ﷺ وعفوه وصبره

وأمّـا الحلم والاحتمال والعفو مع المقدرة والصّبر على ما يكره فمن عظيم مـا اتصف به ﷺ، وبين هذه الألقاب فرقٌ، فـإنّ الحلم حالة توقّرٍ وثباتٍ عند الأسباب المحرّكات، والاحتمال حبس النّفس عند الآلام والمؤذيات، ومثلها الصّبر ومعانيها متقاربةٌ، وأمّا العفو فهو ترك المؤاخذة.

وهـذا كلّه ممّا أدّب الله تعـالى به نبيّه ﷺ، فقال تعالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقـال له ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمـان: ١٧]، وقال تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقـاف: ٣٥]، وقال ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ﴾ [النور: ٢٢]، وقال تعـالى ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣]، ولا

(٥٩) عزاه ابن حجر في الفتح (٥٧٥/٦) إلى صحيح مسلم، ولم أجده عنده إلا بلفظ: «فإنّ خلق نبيّ الله ﷺ كان القرآن». انظر: صحيح مسلم (٥١٢/١) وشرح النووي عليه (٢٦/٦).

(٦٠) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٩٢/١)، وأحمد (٥١٣/١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٤٣)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (ص١٣) وغيرهم، وهو حديث صحيح.

(٦١) صحيح البخاري (٤٥/٨)، وصحيح مسلم (٤٥٧/١).

خفـاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأنّ كلّ حليم قد عرفت منه زلّةٌ وحفظت عنـه هفوةٌ، وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلّا صـبرًا وعلى إسراف الجاهل إلّا حلمًا.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ في أمرَيْنِ قطُّ إلّا اختـار أيسرَهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد النّاس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلّا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها»[٦٢].

وروي أنّ النّبـيّ ﷺ لمّـا كُسِرَتْ رَباعِيَتُه وشُجَّ وجهُه يـومَ أُحُدٍ شقَّ ذلك على أصحابِه شقًّا شديدًا، وقالوا: لو دعوْتَ عليهم فقال: «إنّي لم أُبْعَثْ لعّانًا ولكنّي بُعِثْتُ داعيًا ورحمةً، اللهمّ اهْدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون»[٦٣].

انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحسن الخلق وكـرم النّفس وغايـة الصّبر والحلم؛ إذ لم يقتصـر ﷺ على السّكوت عنهم حتّـى عفا عنهم ثمّ أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم، فقال: «اهد»، ثمّ أظهـر سبب الشّفقة والرّحمة بقوله «لقومي»، ثمّ اعتذر عنهم بجهلهم فقال: «فإنّهم لا يعلمون».

---

(٦٢) صحيح البخاري (١٦٠/٨)، وصحيح مسلم (١٨١٣/٤).

(٦٣) لم نجد من أخرجه بهذا السياق، ويشهد للشطر الأول ما أخرجه مسلم (٢٠٠٦/٤) بلفظ: «قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين قال: «إنّي لم أبعث لعّانًا، وإنّما بعثت رحمةً»». والشطر الثاني أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٥٤/٣) من حديث سهل بن سعد ﷺ، ويشهد له ما في البخاري (١٧٥/٤) ومسلم (١٤١٧/٣) من حديث ابن مسعود ﷺ قال: كأنّي أنظر إلى النّبيّ ﷺ، يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدّم عن وجهه ويقول: «اللهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون».

ولما قال له الرّجل: «اعدل، فإنّ هذه قسمةٌ ما أريد بها وجه الله» لم يزده في جوابه أن بيّن له ما جهله ووعظ نفسه وذكّرها بما قال له، فقال: «ويحك، فمن يعدل إن لم أعدل؟ خِبْتُ وخَسِرْتُ إنْ لم أَعْدِلْ»، ونهى من أراد من أصحابه قتله(٦٤).

ولّما تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ورسول الله ﷺ منتبذٌ تحت شجرةٍ وحده قائلًا والنّاس قائلون في غزاةٍ، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلّا وهو قائمٌ والسّيف صلتًا في يده، فقال: من يمنعك منّي؟ فقال: الله، فسقط السّيف من يده، فأخذه النّبيّ ﷺ وقال: من يمنعك منّي؟ قال: كن خير آخذٍ، فتركه وعفا عنه، فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير النّاس(٦٥).

ومِن عظيم خَبَرِه في العفو عفوُه عن اليهوديّةِ الّتي سمَّتْه في الشّاة بعد اعترافِها على الصّحيح من الرّواية(٦٦).

وأنّه لم يُؤاخِذْ لَبِيدَ بن الأعْصَم إذ سحره وقد أُعْلِمَ به وأُوحِيَ إليه لشَرْحِ أمره، ولا عَتَبَ عليه فضلًا عن مُعاقبتِه(٦٧).

---

(٦٤) صحيح البخاري (٤/٢٠٠)، وصحيح مسلم (٢/٧٤٤).

(٦٥) أخرجه أحمد (٢٣/١٩٣)، وأبو يعلى (٣/٣١٢)، وابن حبان في صحيحه (٧/١٣٨)، والحاكم في المستدرك (٣/٣١)، وأصل القصة في الصحيحين، صحيح البخاري (٤/٣٩)، وصحيح مسلم (٤/١٧٨٦) دون ذكر اسم الأعرابي إلى قوله: «فجاء إلى قومه..».

(٦٦) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/٣٤٧)، وفتح الباري لابن حجر (١٠/٢٤٥).

(٦٧) أصل الخبر أخرجه البخاري (٧/١٣٧)، ومسلم (٤/١٧١٩)، وأشار ابن حجر في الفتح (١٠/٢٣١) إلى عفوه عنه في رواية عمرة عن عائشة، وعلق البخاري (٤/١٠١) عن ابن شهابٍ، سئل: أعلى من سحر من أهل العهد قتلٌ؟ قال: بلغنا أنّ رسول الله ﷺ قد صنع له ذلك فلم يقتل من صنعه، وكان من أهل الكتاب.

وكذلك لم يُؤاخِذْ عبد الله بن أبيٍّ وأشباهَه مِن المنافقين بعظيم ما نُقِلَ عنهم في جهته قولًا وفعلًا، بل قال لمن أشار بقتلِ بعضهم: «لا، لئلّا يُتحدَّثَ أنّ محمّدًا يقتل أصحابه»(٦٨).

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجبذه بردائه جبذةً شديدةً، حتّى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثّرت بها حاشية البرد من شدّة جبذته، ثمّ قال: يا محمّد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثمّ ضحك، ثمّ أمر له بعطاءٍ»(٦٩).

وقال أنسٌ رضي الله عنه: هبط ثمانون رجلًا من التّنعيم صلاة الصّبح ليقتلوا رسول الله ﷺ فأخذوا، فأعتقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤](٧٠).

وكان رسول الله ﷺ أبعد النّاس غضبًا وأسرعهم رضًى ﷺ.

فصل في جوده ﷺ وكرمه وسماحته

وأمّا الجود والكرم والسّخاء والسّماحة فكان ﷺ لا يوازى فيها ولا يبارى، بهذا وصفه كلّ من عرفه.

(٦٨) صحيح البخاري (١٥٤/٦)، وصحيح مسلم (١٩٩٨/٤).
(٦٩) صحيح البخاري (١٤٦/٧)، ومسلم (٧٣٠/٢).
(٧٠) صحيح مسلم (١٤٤٢/٣).

ومعانيهـا متقاربةٌ، وقد فـرّق بعضهم بينها بفروقٍ فجعلـوا الكرم الإنفاق بطيـب النّفس فيما يعظم خَطْرُه ونفعـه، وسمَّوه أيضًا جرأةً وهو ضدّ النّذالة، والسماحـة التجـافي عمّـا يستحقّـه المرء عند غـيره بطيب نفسٍ وهو ضدّ الشّكاسـة، والسّخاء سهولة الإنفاق وتجنّب اكتساب ما لا يحمد، وهو الجود وهو ضدّ التّقتير.

عن ابن المنكدر سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء فقال لا[٧١].

وقـال ابن عبّاسٍ رضـي الله عنهما: كان النّبيّ ﷺ أجـود النّاس بالخير، وأجـود ما كان في شهر رمضـان، وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الرّيح المرسلة[٧٢].

وعـن أنسٍ رضي الله عنه أنّ رجـلًا سأله فأعطاه غنمًا بين جبلـين، فرجع إلى قومه وقال: أسلموا؛ فإنّ محمّدًا يعطي عطاء من لا يخشى فاقةً[٧٣].

وأعطـى غير واحدٍ مائةً مـن الإبل، وأعطى صفوان رضي الله عنه مائـةً ثمّ مائةً ثمّ مائةً[٧٤].

(٧١) صحيح البخاري (١٣/٨)، وصحيح مسلم (١٨٠٥/٤).
(٧٢) صحيح البخاري (٨/١)، وصحيح مسلم (١٨٠٣/٤).
(٧٣) صحيح مسلم (١٨٠٦/٤) [٢٣١٢].
(٧٤) صحيح مسلم (١٨٠٦/٤) [٢٣١٣].

وهذه كانت خلقه ﷺ قبل أن يبعث، وقد قال له ورقة بن نوفلٍ رضي الله عنه: إنّك تحمل الكلّ وتكسب المعدوم[٧٥].

وردّ على هوازن سباياها وكانت ستّة آلافٍ[٧٦]. وأعطى العبّاس من الذّهب ما لم يطق حمله[٧٧]. وجاءه رجلٌ فسأله فقال: ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناه فقال له عمر رضي الله عنه: ما كلّفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النّبيّ ﷺ ذلك فقال رجلٌ من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالًا، فتبسّم ﷺ وعرف البشر في وجهه، وقال: بهذا أمرت[٧٨].

والخبر بجوده ﷺ وكرمه كثيرٌ.

فصل في شجاعته ﷺ ونجدته

وأمّا الشّجاعة والنّجدة فكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يجهل، قد حضر المواقف الصّعبة وفرّ الكماة والأبطال عنه غير مرّةٍ وهو ثابتٌ لا يبرح، ومقبلٌ لا يدبر ولا يتزحزح، وما شجاعٌ إلّا وقد أحصيت له فرّةٌ وحفظت عنه

(٧٥) هذا قول خديجة رضي الله عنها لا قول ورقة، وهو في الصحيحين: صحيح البخاري (١/٧)، وصحيح مسلم (١/١٣٩).

(٧٦) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/٣٧٩) وأبو عبيد في الأموال (ص ١٥٦)، وغيرهما من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب مرسلاً، وبعضهم يذكر مع ابن المسيب عروة بن الزبير. وهذا وإن كان مرسلاً فهو مرسل قوي، وقد قال الإمام أحمد: مرسلات سعيد بن المسيب صحاح، لا نرى أصح من مرسلاته. ينظر: شرح علل الترمذي (١/٥٣٩).

(٧٧) أخرجه البخاري (١/٩١) معلقاً بصيغة الجزم. ينظر: تغليق التعليق (٢/٢٢٧).

(٧٨) أخرجه الترمذي في الشمائل (ص٢٠١)، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٦٦١]، وصححه بمجموع طرقه.

جولةٌ[٧٩] سواه ﷺ، والشّجاعة فضيلة قوّة الغضب وانقيادها للعقل، والنّجدة ثقة النّفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوفٍ.

عن أبي إسحاق أنه سمع البراء رضي الله عنه وسأله رجلٌ: أفررتم يوم حنينٍ عن رسول الله ﷺ؟ قال: لكنّ رسول الله ﷺ لم يفرّ، ثمّ قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان[٨٠] آخذٌ بلجامها، والنّبيّ ﷺ يقول: أنا النّبيّ لا كذب.

وزاد غيره: أنا ابن عبد المطّلب[٨١].

وذكر مسلمٌ عن العبّاس رضي الله عنه قال: فلمّا التقى المسلمون والكفّار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفّار، وأنا آخذٌ بلجامها أكفّها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذٌ بركابه ثمّ نادى: يا للمسلمين – الحديث –[٨٢].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ[٨٣].

وقال عليٌّ رضي الله عنه: إنّا كنّا إذا حمي البأس – ويروى اشتدّ البأس – واحمرّت

(٧٩) أي: تردد ونفرة. شرح الشف للملا علي قاري (٢٦١/١).

(٨٠) هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته كما جاء مصرحًا في بعض طرق الحديث عند البخاري ومسلم. انظر: صحيح البخاري (٣٢/٤)، وصحيح مسلم (١٤٠٠/٣).

(٨١) صحيح البخاري (٣٠/٤)، وصحيح مسلم (١٤٠٠/٣).

(٨٢) صحيح مسلم (١٣٩٨/٣).

(٨٣) أخرجه الدارمي في سننه (٢٠٤/١)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (ص ٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢٤٤/٧)، وصححه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص٨٦٦).

الحدق[٨٤] اتّقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدوّ منه، ولقد رأيتني يوم بدرٍ ونحن نلوذ بالنّبيّ ﷺ وهو أقربنا إلى العدوّ، كان من أشدّ النّاس يومئذٍ بأسًا[٨٥].

وعن أنسٍ رضي الله عنه: كان النّبيّ ﷺ أحسن النّاس وأجود النّاس وأشجع النّاس، لقد فزع أهل المدينة ليلةً فانطلق ناسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ فتلقّاهم رسول الله ﷺ راجعًا قد سبقهم إلى الصّوت، وقد استبرأ الخبر على فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ والسَّيْف في عنقه وهو يقول: لن تراعوا[٨٦].

فصل في حيائه ﷺ وإغضائه

وأمّا الحياء والإغضاء فكان النّبيّ ﷺ أشدّ النّاس حياءً وأكثرهم عن العورات إغضاءً، قال الله تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. والحياء رقةٌ تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقّع كراهيته أو ما يكون تركه خيرًا من فعله، والإغضاء التّغافل عمّا يكره الإنسان بطبيعته.

---

(٨٤) جمع حدقة، والحدقة السّواد المستدير وسط بياض العين وقيل: هي في الظّاهر سواد العين، وفي الباطن خرزتها. المحكم (٥٦٧/٢).

(٨٥) الشطر الأول أخرجه النسائي في الكبرى (٣٤/٨)، والحاكم في المستدرك (١٥٥/٢) وصححه، وأخرج الشطر الثاني أحمد (٨١/٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤٢٦/٦)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٥٩٩/٢)، وإسناده صحيح.

(٨٦) صحيح البخاري (٣٩/٤)، وصحيح مسلم (١٨٠٢/٤).

وعن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه[٨٧].

وكان ﷺ لطيف البشرة رقيق الظّاهر، لا يشافه أحدًا بما يكرهه حياءً وكرم نفسٍ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النّبيّ ﷺ إذا بلغه عن أحدٍ ما يكرهه لم يقل: ما بال فلانٍ يقول كذا، ولكن يقول: ما بال أقوامٍ يصنعون أو يقولون كذا، ينهى عنه ولا يسمّي فاعله[٨٨].

وروى أنسٌ رضي الله عنه أنّه دخل عليه رجلٌ به أثر صفرةٍ فلم يقل له شيئًا، وكان لا يواجه أحدًا بما يكره، فلمّا خرج قال: لو قلتم له يغسل هذا، ويروى ينزعها[٨٩].

قالت عائشة رضي الله عنها في الصّحيح: لم يكن النّبيّ ﷺ فحّاشًا ولا متفحّشًا ولا سخّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسّيّئة السّيّئة، ولكن يعفو ويصفح[٩٠].

فصل في حسن عشرته ﷺ وأدبه

وأمّا حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه ﷺ مع أصناف الخلق فبحيث انتشرت به الأخبار الصّحيحة.

(٨٧) صحيح البخاري (٨/٢٦)، وصحيح مسلم (٤/١٨٠٩).

(٨٨) أخرجه أبو داود (٤/٢٥٠) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٥/١١٤)، وصححه الألباني في الصحيحة [٢٠٦٤].

(٨٩) أخرجه أبو داود (٤/٨١)، وأحمد (١٩/٣٦٦)، والطيالسي في مسنده (٣/٥٩٠).

(٩٠) أخرجه الترمذي (٤/٣٦٩)، وأحمد (٤٢/٢٥٧)، وابن حبان في صحيحه (١٤/٣٥٥) بإسناد صحيح.

قال الله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وكان يجيب من دعاه ويقبل الهديّة ولو كانت كراعا ويكافئ عليها.

قال أنسٌ ﷺ: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قطّ، وما قال لشيء صنعته: لم صنعته ولا لشيء تركته: لم تركته[٩١].

وقال جرير بن عبد الله ﷺ: ما حجبني رسول الله ﷺ قطّ منذ أسلمت، ولا رآني إلّا تبسّم[٩٢].

وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم[٩٣].ويداعب صبيانهم ويجلسهم

---

(٩١) صحيح البخاري (١٤/٨)، وصحيح مسلم (١٨٠٤/٤).

(٩٢) صحيح البخاري (٦٥/٤)، وصحيح مسلم (١٩٢٥/٤).

(٩٣) من صور ملاطفته قوله لسفينة ﷺ لما رآه يحمل شيئاً كثيراً: «أنت سفينة»، أخرجه أحمد (٢٥١/٣٦)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١٦٧/٤)، وإسناده حسن.

ومن ذلك ما رواه أحمد (٩٠/٢٠) وغيره من أصحاب المسانيد وابن حبان في صحيحه (١٠٧/١٣) من حديث أنس ﷺ أنّ رجلًا من أهل البادية كان اسمه زاهرًا، وكان يهدي إلى رسول الله ﷺ الهديّة من البادية، فيجهّزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النّبيّ ﷺ: «إنّ زاهرًا باديتنا، ونحن حاضروه». وكان النّبيّ ﷺ يحبّه، وكان رجلًا دميمًا، فأتاه النّبيّ ﷺ يومًا وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرّجل، فقال: أرسلني من هذا، فالتفت فعرف النّبيّ ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النّبيّ ﷺ حين عرفه، وجعل النّبيّ ﷺ يقول: «من يشتري العبد؟» فقال: يا رسول الله، إذًا والله تجدني كاسدًا، فقال النّبيّ ﷺ: «لكن عند الله لست بكاسدٍ» أو قال: «لكن عند الله أنت غالٍ»، وإسناده على شرط الشيخين.

ومن ذلك ما رواه أبو داود (٣٠٠/٤)، وأحمد (٤٢٣/٣٩)، والحاكم في المستدرك (٤٦٩/٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي من حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبّةٍ من أدمٍ، فسلّمت فردّ وقال: «ادخل» فقلت: أكلّي يا رسول الله؟ قال: «كلّك» فدخلت. ونقل أبو داود عن ابن أبي عاتكة (راوي الحديث) قوله: «إنّما قال: «أدخل كلّي» من صغر القبّة».

ومن ذلك ما رواه ابن ماجه (١١٣٩/٢)، والحاكم في المستدرك (٤٥١/٣) وصححه ووافقه الذهبي من حديث صهيب بن سنان ﷺ قال: قدمت على النّبيّ ﷺ، وبين يديه خبزٌ وتمرٌ، فقال النّبيّ ﷺ: «ادن فكل» فأخذت آكل من التّمر، فقال النّبيّ ﷺ «تأكل تمرًا وبك رمدٌ؟» قال، فقلت: إنّي أمضغ من ناحيةٍ أخرى، فتبسّم رسول الله ﷺ.

في حجـره[٩٤]. ويجيب دعوة الحرّ والعبد والأمة والمسكين[٩٥]. ويعود المرضى في أقصى المدينة[٩٦] ويقبل عذر المعتذر.

قال أنسٌ رضي الله عنه: ما التقم أحدٌ أذن رسول الله ﷺ فينحّي رأسه حتّى يكون الرّجـل هو الذي ينحّي رأسه، وما أخذ أحـدٌ بيده فيرسل يده حتّى يرسلها الآخذ[٩٧].

---

(٩٤) من ذلك قصة أبي عمير رضي الله عنه في الصحيحين، البخاري (٣٠/٨)، ومسلم (١٥٩٢/٣)، ومن ذلك ما رواه الشيخان (البخاري ٦٦/٣، ومسلم ١٨٨٢/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ في طائفة من النّهار، لا يكلّمني ولا أكلّمه، حتّى جاء سوق بني قينقاع، ثمّ انصرف، حتّى أتى خِباءَ فاطمة فقال: «أثَمَّ لُكَعُ؟ أثَمَّ لُكَعُ؟» يعني حسنًا، فظننّا أنّه إنّما تحبسه أمّه لأن تغسّله وتلبسه سِخَابًا (قلادة من طِيب)، فلم يلبث أن جاء يسعى، حتّى اعتنق كلّ واحدٍ منهما صاحبه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهمّ إنّي أُحِبُّه، فأَحِبَّه وأَحْبِبْ مَنْ يُحِبُّه».

ومن ذلك ما رواه مسلم (١٨٠٥/٤) من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ مِنْ أحسن النّاس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجةٍ، فقلت: والله لا أذهب! وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبيّ الله ﷺ، فخرجت حتّى أمرّ على صبيانٍ وهم يلعبون في السّوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: يا أنيس، أذهبتَ حيث أمرتُك؟ قال: قلت نعم أنا أذهب يا رسول الله.

ومن ذلك ما رواه النسائي في الكبرى (٣٨٦/٧)، وأحمد (٣٤٥/١٩)، وابن حبان في صحيحه (٢٠٦/٢) من حديث أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار فيسلّم على صبيانهم، ويمسح برءوسهم، ويدعو لهم».

(٩٥) روى الحاكم في المستدرك (٥٠٦/٢) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم»، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة [٢١١٢] بمجموع طرقه.

وأخرج البخاري (٢٠/٨) تعليقاً مجزوماً به، وأحمد (٩/١٩)، وابن حبان في صحيحه (٣٨٧/١٠) من حديث أنس رضي الله عنه قال: «إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به في حاجتها حيث شاءت».

(٩٦) أخرج مسلم في صحيحه (٦٣٧/٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كنّا جلوسًا مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجلٌ مِن الأنصار، فسلّم عليه، ثمّ أدبر الأنصاريّ، فقال رسول الله ﷺ: « يا أخا الأنصار كيف أخي سعد بن عبادة؟، فقال: صالحٌ، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يعوده منكم؟» فقام، وقمنا معه، ونحن بضعة عشر، ما علينا نعالٌ، ولا خفافٌ، ولا قلانس، ولا قمصٌ، نمشي في تلك السّباخ حتّى جئناه.

(٩٧) إلى هنا أخرجه أبو داود (٢٥١/٤) وابن الأعرابي في معجمه (٦٦٣/٢) والبيهقي في الشعب (٤٤٨/١٠)، وإسناده حسن.

وقال عبد الله بن الحارث ﷺ: ما رأيت أحدًا أكثر تبسّمًا من رسول الله ﷺ[٩٨].

وعن أنس ﷺ قال: «كان خدم المدينة يأتون رسول الله ﷺ إذا صلّى الغداة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بآنية إلّا غمس يده فيها، وربّما كان ذلك في الغداة الباردة»[٩٩]، يريدون به التّبرّك.

فصل في شفقته ﷺ ورأفته ورحمته لجميع الخلق

وأمّا الشّفقة والرّأفة والرّحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى فيه ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

عن ابن شهابٍ قال: غزا رسول الله ﷺ غزوةً وذكر حنينًا، قال: فأعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أميّة مائةً من النّعم ثمّ مائةً ثمّ مائةً. قال ابن شهابٍ: حدّثنا سعيد بن المسيّب أنّ صفوان قال: والله لقد أعطاني ما أعطاني وإنّه لأبغض الخلق إليّ فما زال يعطيني حتّى إنّه لأحبّ الخلق إليّ[١٠٠].

---

(٩٨) أخرجه الترمذي (٥/٦٠١)، وفي الشمائل (ص ١٣٦)، وأحمد (٢٩/٢٤٥)، وحسنه السيوطي في مناهل الصفا (ص٧٠)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (ص ١٢٠) بمجموع طرقه.

(٩٩) صحيح مسلم (٤/١٨١٢)، وأخرجه أحمد (١٩/٣٩٣) بإسناد مسلم.

(١٠٠) صحيح مسلم (٤/١٨٠٦).

وروي أنّ أعرابيًّا جاءه يطلب منه شيئًا، فأعطاه ثمّ قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابيّ: لا ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفّوا، ثمّ قام ودخل منزله، وأرسل إليه ﷺ وزاده شيئا، ثمّ قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيرًا، فقال له النّبيّ ﷺ: إنّك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديّ حتّى يذهب ما في صدورهم عليك، قال: نعم. فلمّا كان الغد أو العشيّ جاء فقال ﷺ: إنّ هذا الأعرابيّ قال ما قال فزدناه فزعم أنّه رضي أكذلك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيرًا. فقال النّبيّ ﷺ: مثلي ومثل هذا مثل رجلٍ له ناقةٌ شردت عليه فاتّبعها النّاس فلم يزيدوها إلّا نفورًا فناداهم صاحبها: خلّوا بيني وبين ناقتي فإنّي أرفق بها منكم وأعلم، فتوجّه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتّى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها، وإنّي لو تركتكم حيث قال الرّجل ما قال فقتلتموه دخل النّار[(١٠١)].

ومن شفقته ﷺ على أمّته تخفيفه وتسهيله عليهم، وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم.

(١٠١) أخرجه البزار في مسنده (١٥/٢٩٤)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/٩٢٩)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (١/٤٧٢)، كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو ضعيف. لكن قال المروزي بعد أن ساق متن الحديث: «أخبرني بذلك عدة، منهم: إبراهيم بن الحكم بن أبان». ولم نجد فيما بين أيدينا من المصادر أحدًا من هؤلاء المتابعين، وقد احتج المروزي بهذا الحديث على كفر من رد على النبي ﷺ، ولكن يرفق بمن هذا حاله لجهله ولكون فعله لم يصدر من استهانة، وكذلك فعل شيخ الإسلام ابن تيمية في الصارم المسلول (ص١٧٨).

كقولِـه عليه الصّلاة والسّلام: «لولا أن أشقَّ على أمّتي لأمرتُهم بالسّواك مع كلِّ وضـوءٍ»[١٠٢]. وخبرِ صلاة اللّيل ونهيِهم عـن الوصال[١٠٣]. وكراهتِه دخـولَ الكعبة لئلّا تتعنَّتَ أمَّتُه[١٠٤]. وأنّه كان يسمع بكاءَ الصّبيِّ فيتجوَّز في صلاته[١٠٥].

ومن شفقته ﷺ أن دعا ربّه وعاهده فقال: أيّما رجلٍ سببتُه أو لعنتُه فاجعل ذلك له زكاةً ورحمةً وصلاةً وطُهورًا وقُرْبةً تقرِّبه بها إليك يوم القيامة[١٠٦].

ولمّا كذّبه قومُه أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إنّ الله تعالى قد سمع قول قومك لـك وما ردّوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلّم عليه وقال: مرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، قـال النّبيّ ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا[١٠٧].

وقالـت عائشة رضي الله عنها: ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلّا اختار أيسرهما[١٠٨].

(١٠٢) صحيح البخاري (٣/٣١)، وصحيح مسلم (١/٢٢٠)، وعنده: «عند كل صلاة».

(١٠٣) صحيح البخاري (٣/٣٧)، وصحيح مسلم (٢/٧٧٤).

(١٠٤) أخرج الترمذي (٣/٢١٤)، وابن ماجه (٢/١٠١٨)، وأحمد (٤١/٥٠٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/٣٣٣)، والحاكم في المستدرك (١/٦٥٢)، كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النّبيّ ﷺ من عندي وهو قرير العين، طيّب النّفس، فرجع إليّ وهو حزينٌ، فقلت له، فقال: «إنّي دخلت الكعبة، ووددت أنّي لم أكن فعلت، إنّي أخاف أن أكون أتعبت أمّتي من بعدي»، وهو حديث حسن بمجموع طرقه.

(١٠٥) صحيح البخاري (١/١٤٣)، وصحيح مسلم (١/٣٤٣).

(١٠٦) صحيح البخاري (٨/٧٧)، وصحيح مسلم (٤/٢٠٠٧).

(١٠٧) صحيح البخاري (٤/١١٥)، وصحيح مسلم (٣/١٤٢٠).

(١٠٨) صحيح البخاري (٨/١٦٠)، وصحيح مسلم (٤/١٨١٣).

وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يتخوّلنا بالموعظة مخافة السّآمة علينا(١٠٩).

وعن عائشة رضي الله عنها أنّها ركبت بعيرًا وفيه صعوبةٌ فجعلت تردّده فقال رسول الله ﷺ: عليك بالرّفق(١١٠).

فصل في وفائه ﷺ وحسن عهده وصلة رحمه

وأمّا خلقه ﷺ في الوفاء وحسن العهد وصلة الرّحم، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: كان النّبيّ ﷺ إذا أتي بهديّةٍ قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانةٍ فإنّها كانت صديقةً لخديجة، إنّها كانت تحبّ خديجة(١١١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على امرأةٍ ما غرت على خديجة لما كنت أسمعه يذكرها، وإن كان ليذبح الشّاة فيهديها إلى خلائلها(١١٢). واستأذنت عليه أختها فارتاح لذلك(١١٣).

ودخلت عليه امرأةٌ فهشّ لها وأحسن السّؤال عنها، فلمّا خرجت قال: إنّها كانت تأتينا أيّام خديجة وإنّ حسن العهد من الإيمان(١١٤).

---

(١٠٩) صحيح البخاري (١/٢٥)، وصحيح مسلم (٤/٢١٧٢).

(١١٠) صحيح مسلم (٤/٢٠٠٤).

(١١١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٩٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/٣٨٧)، وابن حبان في صحيحه (١٥/٤٦٧)، وابن بشران في أماليه (ص١٥٨)، وإسناده حسن.

(١١٢) صحيح البخاري (٨/٩)، وصحيح مسلم (٤/١٨٨٨).

(١١٣) صحيح مسلم (٤/١٨٨٩). قال النووي: «فارتاح لذلك» أي هش لمجيئها وسر بها لتذكره بها خديجة وأيامها. شرح مسلم (١٥/٢٠٢)

(١١٤) أخرجه ابن الأعرابي في معجمه (١/٤٠١)، الطبراني في الكبير (٢٣/١٤)، والحاكم في المستدرك (١/٦٢)،

وقال ﷺ: إنّ آل بني فلانٍ ليسوا لي بأولياء، غير أنّ لهم رحمًا سأبلّها ببلالها[١١٥].

وقد صلّى عليه الصّلاة والسّلام بأمامة ابنة ابنته زينب يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها[١١٦].

وفي حديث خديجة رضي الله عنها أنّها قالت له ﷺ: أبشر فوالله لا يحزنك الله أبدًا، إنّك لتصل الرّحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقري الضّيف وتعين على نوائب الحقّ[١١٧].

فصل في تواضعه ﷺ

وأمّا تواضعه ﷺ على علوّ منصبه ورفعة رتبته فكان أشدّ الناس تواضعًا وأعدمهم كبرًا.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكّئًا على عصًا، فقمنا له فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظّم بعضهم بعضًا[١١٨].

وصححه، وصححه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة [٢١٦].

(١١٥) صحيح البخاري (٦/٨)، وصحيح مسلم (١٩٢/١).

(١١٦) صحيح البخاري (١٠٩/١)، وصحيح مسلم (٣٨٦/١).

(١١٧) صحيح البخاري (٧/١)، وصحيح مسلم (١٣٩/١) بلفظ «لا يخزيك الله»، ولفظ المصنف في صحيح مسلم (١٤٢/١). ومعنى «تحمل الكلّ» أي: تعين الضعيف العاجز عن نفسه، وقيل: وترعى اليتيم، ومعنى «تكسب المعدوم» أي: تعطي العائل وترفده، وتعاونه على جمع المال، ومعنى «وتعين على نوائب الحق» أي: من أصابته نوائب – وهي المصائب – في حقٍّ أعنته في ذلك.

(١١٨) أخرجه أبو داود (٣٥٨/٤)، وأحمد (٥١٥/٣٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٣٣/٥)، وغيرهم، وإسناده ضعيف. لكن يشهد له ما أخرجه الترمذي (٩٠/٥)، وأحمد (٣٥٠/١٩)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٣٢٦) وغيرهم من

وفي حديث عمر رضي الله عنه عنه ﷺ: لا تطروني كما أطرت النّصارى ابن مريم، إنّما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله[١١٩].

وعن أنس رضي الله عنه أنّ امرأةً كان في عقلها شيء، جاءته فقالت: إنّ لي إليك حاجةً، قال: اجلسي يا أمّ فلانٍ في أيّ طرق المدينة شئت أجلس إليك حتّى أقضي حاجتك، قال فجلست، فجلس النّبيّ ﷺ إليها حتّى فرغت من حاجتها[١٢٠].

قال أنس رضي الله عنه: وكان يدعى إلى خبز الشّعير والإهالة السّنخة فيجيب[١٢١].

قال: وحجّ ﷺ على رحلٍ رثٍّ وعليه قطيفةٌ ما تساوى أربعة دراهم، فقال: اللهمّ اجعله حجًّا مبرورًا لا رياء فيه ولا سمعة[١٢٢].

هذا، وقد فتحت عليه الأرض، وأهدى في حجته تلك مائة بدنةٍ[١٢٣].

ومن تواضعه ﷺ قوله: «لا تفضّلوني على يونس بن متّى»[١٢٤]. «ولا

حديث أنس قال: «لم يكن شخصٌ أحبّ إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك»، وإسناده على شرط مسلم.

(١١٩) صحيح البخاري (٤/١٦٧).

(١٢٠) صحيح مسلم (٤/١٨١٢).

(١٢١) انظر: صحيح البخاري (٥/١٠٨). والإهالة كل ما يؤتدم به من زيت أو شحم مذاب، والسنخة المتغيرة. انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (٣/٢٣٨-٢٣٩)

(١٢٢) أخرجه ابن ماجه (٢/٩٦٥)، والترمذي في الشمائل (ص١٩٠)، وهناد بن السري في الزهد (٢/٤١٩)، وغيرهم، وصححه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة [٢٦١٧].

(١٢٣) صحيح البخاري (٢/١٧٢).

(١٢٤) لم أجده بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٦/٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود، ومن حديث أبي هريرة (٦/٥٧)، وكذا أخرجه هو (٤/١٥٣) ومسلم (٤/١٨٤٦) من حديث ابن عباس، كلهم عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى».

تفضّلـوا بين الأنبياء ولا تخيّروني على موسـى»[١٢٥]. وعن عائشة رضي الله عنهـا في صفته: كان في بيته في مهنة أهله[١٢٦]؛ يفلي ثوبه ويحلب شاته[١٢٧]. ويرقع ثوبه ويخصف نعله[١٢٨].

وعن أنسٍ ﷺ قال: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت حتّى تقضي حاجتها[١٢٩].

ودخـل عليـه رجلٌ فأصابته من هيبتـه رعدةٌ فقال له: هـوّن عليك فإنّي لست بملكٍ، إنّما أنا ابن امرأةٍ من قريشٍ تأكل القديد[١٣٠].

فصل في عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته

وأمّـا عدله ﷺ وأمانته وعفّته وصدق لهجته، فكان ﷺ آمن النّاس وأعدل النّاسـ وأعـفّ الناس، أصدقهـم لهجةً منذ كان اعترف لـه بذلك محادّوه وعداه، وكان يسمى قبل نبوّته الأمين.

---

(١٢٥) صحيح البخاري (٣/١٢٠).

(١٢٦) صحيح البخاري (٧/٦٥) من حديث عائشة.

(١٢٧) أخرجه أحمد (٤٣/٢٦٣)، وابن حبان في صحيحه (١٢/٤٨٩)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٩٠) عنها. وقوله: «يفلي ثوبه» أي: يبحث عن القمل فيه. انظر: القاموس المحيط (ص١٣٢٢).

(١٢٨) أخرجه أبو زرعة الدمشقي في الفوائد المعللة (ص١٤٩) من حديث أيضاً عائشة.

(١٢٩) أخرجه البخاري (٨/٢٠) تعليقاً مجزوماً به، ووصله أحمد (١٩/٩)، وابن حبان في صحيحه (١٠/٣٨٧.

(١٣٠) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/٢١) من حديث قيس بن أبي حازم مرسلًا، والحاكم في المستدرك (٢/٥٠٦) متصلاً عن جرير بن عبد الله ﷺ، وصححه على شرط الشيخين، وأورده الألباني في الصحيحة [١٨٧٦].

قال ابن إسحاق: كان يسمّى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصّالحة[١٣١].

ولمّا اختلفت قريشٌ وتحازبت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكّموا أوّل داخلٍ عليهم، فإذا بالنّبيّ ﷺ داخلٌ وذلك قبل نبوّته، فقالوا: هذا محمّدٌ، هذا الأمين قد رضينا به[١٣٢].

وعن الرّبيع بن خثيمٍ قال: كان يُتحاكَمُ إلى رسول الله ﷺ في الجاهليّة قبل الإسلام[١٣٣].

وعن عليٍّ رضي الله عنه أنَّ أبا جهلٍ قال للنّبيِّ ﷺ: إنّا لا نكذِّبُك ولكنْ نكذِّبُ بما جئتَ به، فأنزل الله تعالى ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣][١٣٤]، وروى غيره: لا نكذّبك وما أنت فينا بمكذّبٍ.

وسأل هرقل عنه أبا سفيان رضي الله عنه فقال: هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا[١٣٥].

---

(١٣١) سيرة ابن هشام (١/١٦٧).

(١٣٢) أخرجه أحمد (٢٤/٢٦٢)، والحاكم في المستدرك (١/٦٢٨)، وأبو نعيم في الدلائل (١/١٧٥) من حديث عبد الله بن السائب رضي الله عنه قال: «كنت فيمن بنى البيت...» فذكره، ورجال إسناده ثقات، وصححه الحاكم.

(١٣٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/١٢٧)، والزهد للإمام أحمد (ص٢٧٤).

(١٣٤) أخرجه الترمذي (٥/٢٦١)، وابن أبي حاتم في التفسير (٤/١٢٨٢)، والحاكم في المستدرك (٢/٣٤٥) وصححه.

(١٣٥) صحيح البخاري (١/٨)، وصحيح مسلم (٣/١٣٩٣).

فصل في وقاره ﷺ وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه

وأمّـا وقاره ﷺ وصمته وتؤدته ومروؤته وحسن هديه فكان كثير السّكوت لا يتكلّم في غير حاجة، وكان ضحكه تبسّمًا[١٣٦]، وكلامه فصلًا لا فضول ولا تقصير[١٣٧]، مجلسه مجلس حلـم وحياءٍ وخيرٍ وأمانةٍ، لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم[١٣٨]، إذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطّير[١٣٩].

وفي صفته: يخطو تكفُّؤًا[١٤٠] ويمشي هَوْنًا كأنّما ينحطُّ مِنْ صَبَبٍ[١٤١].

وعـن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيلٌ أو ترسيلٌ[١٤٢].

وقالـت عائشة رضي الله عنهـا: كان رسول الله ﷺ يحدّث حديثًا لو عدّه العادّ أحصاه[١٤٣].

---

(١٣٦) أخرج الترمذي (٤/٤٣٧) وصححه، وأحمد (٣٤/٤٠٥)، والطبراني في الأوسط (٧/١٢٠)، وغيرهم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان ﷺ طويل الصّمت، قليل الضّحك، وكان أصحابه يذكرون عنده الشّعر، وأشياء من أمورهم، فيضحكون، وربّما تبسّم»، وهو في صحيح مسلم (١/٤٦٣) بهذا الإسناد دون قوله: «طويل الصمت قليل الضحك».

(١٣٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النّبيّ ﷺ يحدّث حديثًا، لو عدّه العادّ لأحصاه»، أخرجه البخاري (٤/١٩٠)، ومسلم (٤/٢٢٩٨).

(١٣٨) أي: لا تقرف فيه، يقال: أبنته بكذا من السّرّ إذا رميته به. غريب الحديث لابن قتيبة (١/٥٠٥).

(١٣٩) انظر: مسند أحمد (٣٠/٣٩٤)، وصحيح ابن حبان (١٦/١٨٥).

(١٤٠) التكفّؤ التمايل كما تتكفأ السفينة في الماء يمينًا وشمالًا. تهذيب اللغة (١٠/٢١٢).

(١٤١) انظر: الترمذي (٥/٥٩٨)، مسند الطيالسي (١/١٤٢)، وأحمد (٢/١٤٤)، وهو حديث صحيح.

(١٤٢) أخرجه أبو داود (٤/٢٦٠)، وأحمد في الزهد (ص ٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/٨٧٣).

(١٤٣) صحيح البخاري (٤/١٩٠)، وصحيح مسلم (٤/٢٢٩٨).

وكان ﷺ يُحبُّ الطِّيب والرّائحة الحسنة، ويستعملهما كثيرًا ويحضُّ عليهما ويقول: حبّب إليّ من دنياكم النّساء والطّيب وجعلت قرّة عيني في الصّلاة[١٤٤].

ومن مروءته ﷺ نهيُه عن النّفخ في الطّعام والشّراب[١٤٥].

ومنه الأمر بالأكل ممّا يلي[١٤٦]. والأمر بالسّواك[١٤٧]. وإنقاء البراجم والرّواجب[١٤٨] واستعمال خصال الفطرة[١٤٩].

فصل في زهده ﷺ في الدنيا

وأمّا زهده ﷺ في الدنيا فقد تقدّم من الأخبار أثناء هذه السّيرة ما يكفي، وحسبك من تقلّله منها وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقت إليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها أن توفّي ﷺ ودرعه مرهونةٌ عند يهوديٍّ في نفقة عياله[١٥٠]، وهو يدعو ويقول: اللهمّ اجعل رزق آل محمّدٍ قوتًا[١٥١].

---

(١٤٤) أخرجه النسائي في المجتبى (٦١/٧)، وأحمد (٣٠٥/١٩)، وابن حبان في صحيحه (٢٨١/١٢) وغيرهم، وحسنه ابن حجر في التلخيص الحبير (٢٥٣/٣).

(١٤٥) أخرجه الترمذي وغيره، وهو حديث صحيح، بل نهى عن التنفس أيضاً فيه، انظر: صحيح البخاري (٤٢/١)، وصحيح مسلم (١٦٠٢/٣).

(١٤٦) صحيح البخاري (٦٨/٧)، وصحيح مسلم (١٥٩٩/٣).

(١٤٧) صحيح البخاري (٤/٢)، وصحيح مسلم (٢٢٠).

(١٤٨) البراجم: رؤوس السلاميات من ظهر الكفّ اذا قبض القابض كفه نشزت وارتفعت، والرواجب: بطون السلاميات. غريب الحديث لابن قتيبة (٤١٠/٢).

(١٤٩) صحيح مسلم (٢٢٣/١).

(١٥٠) صحيح البخاري (٤١/٤).

(١٥١) صحيح البخاري (٩٨/٨)، وصحيح مسلم (٧٣٠/٢).

وعــن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيّامٍ تِباعًا من خبزٍ حتّى مضى لسبيله[١٥٢].

وقالــت عائشة رضي الله عنها: ما ترك رسول الله ﷺ دينارًا ولا درهمًا ولا شاةً ولا بعيرًا[١٥٣].

وعــن عائشة رضي الله عنها قالــت: إنْ كنّا آل محمّــدٍ لَنمكُثُ شهرًا ما نستوقد نارًا، إنْ هو إلّا التّمر والماء[١٥٤].

قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يَبيت هو وأهله اللّياليَ المتتابعة طاويًا لا يجدون عَشاءً[١٥٥].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما أكل رسول الله ﷺ على خُوانٍ ولا في سُكُرُّجَةٍ ولا خُبِزَ له مرقَّقٌ ولا رأى شاةً سَمِيطًا قطّ[١٥٦].

وعــن عائشة رضي الله عنهاقالت: إنّما كان فراشُه ﷺ الذي يَنام عليه أَدَمًا حَشْوُه لِيفٌ[١٥٧].

---

(١٥٢) صحيح مسلم (٤/٢٢٨١).

(١٥٣) صحيح مسلم (٣/١٢٥٦).

(١٥٤) صحيح مسلم (٤/٢٢٨٢).

(١٥٥) أخرجه الترمذي (٤/٥٨٠)، وابن ماجه (٢/١١١١)، وأحمد (٤/١٥٠)، وغيرهم، وحسنه الألباني في الصحيحة [٢١١٩].

(١٥٦) صحيح البخاري (٧/٧٥، ٩٧). والسّكرّجة: ما صغر من الصحاف، والخوان المائدة أو ما يقوم مقامها، والسميط: الشاة المشوية. انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين لأبي عبد الله الحميدي (ص٢٦٠)، والنهاية في غريب الحديث (٢/٤٠٠).

(١٥٧) صحيح البخاري (٨/٩٧)، وصحيح مسلم (٣/١٦٥٠). والأدم جمع الأديم، وأديم كلّ شيءٍ ظاهر جلده. تهذيب اللغة (١٤/١٥١).

وكان ينامُ أحيانًا على سَرِيرٍ مَرْمُولٍ بِشَرِيطٍ حتّى يؤثّر في جنبه[١٥٨].

فصل في خوفه ﷺ ربه وطاعته له وشدة عبادته

وأمّا خوفه ربّه وطاعته له وشدّة عبادته فعلى قدر علمه بربّه.

ولذلك كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»[١٥٩].

زاد في رواية التّرمذيّ عن أبي ذر رضي الله عنه: «إنّي أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون؛ أَطَّتِ السّماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلّا وملكٌ واضعٌ جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، وما تلذّذتم بالنّساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تَجْأَرُون إلى الله»[١٦٠].

وفي حديث المغيرة رضي الله عنه قال: صلى رسول الله ﷺ حتّى انتفخت قدماه، وفي روايةٍ: كان يصلّي حتّى تَرِمَ قدماه، فقيل له: أَتَكَلَّفُ هذا وقد غُفِرَ لك ما تقدَّم مِنْ ذنبِك وما تأخّر؟ قال: أفلا أكونُ عَبْدًا شَكُورًا؟[١٦١]

---

(١٥٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص٣٩٨) عن أنس رضي الله عنه، وإسناده جيد، وأصله في الصحيحين (البخاري ١٥٦/٦، مسلم ١١٠٨/٢) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم. قوله: «مرمول بشريط»، قال ابن قتيبة: رملت السّرير، وأرملته: إذا نسجته بشريطٍ من خوصٍ أو ليفٍ. انظر: تاج العروس (٩٨/٢٩).

(١٥٩) صحيح البخاري (٥٤/٦)، وصحيح مسلم (٣٢٠/١).

(١٦٠) جامع الترمذي (٥٥٦/٤)، وانظر: السلسلة الصحيحة [١٧٢٢].

(١٦١) صحيح البخاري (٥٠/٢، ١٣٥/٦)، وصحيح مسلم (٢١٧١/٤، ٢١٧٢).

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان عمل رسول الله ﷺ ديمةً، وأيّكم يطيق؟[١٦٢].

وقالت: كان يصوم حتّى نقول: لا يفطر، ويفطر حتّى نقول: لا يصوم[١٦٣].

وقال أنس رضي الله عنه: كنت لا تشاء أن تراه في اللّيل مصلّيًا إلّا رأيته مصليا، ولا نائمًا إلّا رأيته نائمًا[١٦٤].

وقال عوف بن مالكٍ رضي الله عنه: كنتُ مع رسول الله ﷺ فاستاك ثمّ توضّأ ثمّ قام يصلّي، فقمت معه فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمرّ بآية رحمةٍ إلّا وقف فسأل، ولا يمرّ بآية عذابٍ إلّا وقف فتعوّذ، ثمّ ركع فمكث بقدر قيامه يقول: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثمّ سجد وقال مثل ذلك ثمّ قرأ آل عمران، ثمّ سورةً سورةً، يفعل مثل ذلك[١٦٥].

وعن حذيفة رضي الله عنه مثله وقال: سجد نحوًا من قيامه، وجلس بين السّجدتين نحوًا منه وقام حتّى قرأ البقرة وآل عمران والنّساء والمائدة[١٦٦].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله ﷺ بآيةٍ من القرآن ليلةً[١٦٧].

---

(١٦٢) صحيح البخاري (٣/٤٢).

(١٦٣) صحيح البخاري (٣/٣٨)، وصحيح مسلم (٢/٨١٠).

(١٦٤) صحيح البخاري (٢/٥٢).

(١٦٥) أخرجه أبو داود (١/٢٣٠)، والنسائي في المجتبى (٢/٢٢٣)، وأحمد (٣٩/٤٠٥)، وإسناده حسن.

(١٦٦) صحيح مسلم (١/٥٣٦).

(١٦٧) أخرجه الترمذي (٢/٣١٠)، وحسنه، وصححه السيوطي في مناهل الصفا (ص٨٤)، والألباني في مختصر الشمائل (ص١٥٠).

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يصلّي ولجوفه أَزِيزٌ كأَزِيزِ المِرْجَلِ[١٦٨].

وقال ﷺ: «إنّي لأستغفر الله في اليوم مائةَ مرّةٍ»، وروي «سبعين مرّةً»[١٦٩].

(١٦٨) أخرجه أبو داود (١/٢٣٨)، والنسائي في المجتبى (٣/١٣)، وأحمد (٢٦/٢٣٩)، وابن خزيمة (٢/٥٣)، وابن حبان (٢/٤٤٠) في صحيحيهما، والحاكم في المستدرك (١/٣٩٦) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
وقوله: «كأزيز المرجل» يعني: غليان جوفه بالبكاء. غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (١/٢٢٢).

(١٦٩) صحيح البخاري (٨/٦٧) «أكثر من سبعين مرة»، وصحيح مسلم (٤/٢٠٧٥) «مائة مرة».

الباب الثالث فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره ﷺ عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين من كرامته

لا خلاف أنه ﷺ أكرمُ البشر، وسيدُ ولد آدم، وأفضلُ الناس منزلةً عند الله، وأعلاهم درجةً، وأقربهم زُلْفى.

واعلم أنَّ الأحاديث الواردة في ذلك كثيرةٌ جدًا، وقد اقتصرنا منها على صحيحها ومنتشرها.

عن واثلةَ بن الأسْقَع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى مِن ولدِ إبراهيمَ إسماعيلَ واصطفى مِن ولدِ إسماعيلَ بني كِنانة واصطفى من بني كنانة قُرَيشًا واصطفى مِن قريشٍ بني هاشمٍ واصطفاني مِن بني هاشمٍ»[1].

وعن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ أُتِي بالبُراقِ ليلةَ أُسْري به، فاستصعب عليه فقال له جبريل: بمحمدٍ تفعل هذا؟ فما ركبك أحدٌ أكرمُ على الله منه، فارفضَّ عرقًا[2].

---

(١) صحيح مسلم (١٧٨٢/٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠١/٥)، وأحمد (١٠٧/٢٠)، وابن حبان في صحيحه (٢٣٠/١)، وغيرهم، وإسناده على شرط الشيخين. قوله: «فارفض عرقًا» أي: جرى عرقه وسال. النهاية في غريب الحديث (٢٤٣/٢).

وروى عنه ﷺ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: «أُعْطِيت خمسًا لم يُعْطَهنَّ نبيٌّ قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهرٍ، وجُعلت لي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا؛ فأيُّما رجلٍ مِن أمتي أدركته الصلاةُ فليصلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائمُ ولم تُحلَّ لنبيٍّ قبلي، وبُعثتُ إلى الناس كافةً، وأُعطيتُ الشفاعة»[٣].

وعن العِرباض بن سارية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لَمُنجدِلٌ في طينته[٤]، وعِدَة أبي إبراهيم، وبِشارة عيسى ابن مريم»[٥].

وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: «نُصرتُ بالرعب، وأُوتيتُ جوامعَ الكلم، وبينا أنا نائم إذ جيء بمفاتيحِ خزائنِ الأرض، فوُضعتْ في يدي»[٦].

وعن عُقبة بن عامرٍ رضي الله عنه أنه قال: قال ﷺ: «إني فَرَطٌ لكم، وأنا شهيدٌ عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أُعطيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشرِكوا بعدي، ولكنِّي أخافُ عليكم أن تَنافَسُوا فيها»[٧].

---

(٣) صحيح البخاري (١/٧٤)، وصحيح مسلم (١/٣٧٠).

(٤) أي: مطروح على وجه الأرض صورةً من طين لم تجر فيه الروح بعد. غريب الحديث للخطابي (٢/١٥٦).

(٥) أخرجه أحمد (٢٨/٣٧٩)، وابن حبان في صحيحه (١٤/٣١٣)، والحاكم في المستدرك (٢/٦٥٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) صحيح البخاري (٩/٣٦)، وصحيح مسلم (١/٣٧٢).

(٧) صحيح البخاري (٢/٩١، ٥/١٠٣، ٨/٩٠).

وعـن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبـي ﷺ: قال «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أُعْطِيَ مِن الآياتِ ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحيًا أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعًا يوم القيامة»[٨].

معنـى هذا عند المحقِّقين بقـاءُ معجزته ما بقيت الدنيـا، وسائرُ معجزات الأنبيـاء ذهبت للحـين، ولم يُشاهِدْها إلا الحاضرُ لهـا، ومعجزةُ القرآنِ يقف عليها قرنٌ بعد قرن عِيانًا لا خبرًا إلى يوم القيامة.

وقال ﷺ: «إن الله قد حبس عن مكة الفيلَ وسلَّط عليها رسولَه والمؤمنين، وإنها لا تَحِلُّ لأحدٍ بعدي، وإنما أُحِلَّتْ لي ساعةً من نهارٍ»[٩].

وعـن خالد بن مَعْدان أن نفرًا مِن أصحابِ رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، أخْبِرْنـا عن نفسك، فقال: نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، يعني قوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبشَّر بي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نورٌ أضاء له قصور بُصْرى مِن أرضِ الشام، واسْتُرْضِعْتُ في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخٍ لي خلف بيوتنا نرعى بَهْمًا[١٠] لنا إذ جاءني رجـلان عليهما ثيابٌ بيضٌ. وفي حديثٍ آخر: ثلاثة رجالٍ بطستٍ مِن ذهبٍ مملـوءٍ ثلجًا، فأخذاني فشقَّا بطني. قال في غير هـذا الحديث: من نحري إلى مَـراقِّ بطني[١١]، ثم استخرجا منه قلبي، فشقـاه فاستخرجا منه علقةً سوداء

(٨) صحيح البخاري (١٨٢/٦)، (١٣٤/١).

(٩) صحيح البخاري (١٢٥/٣)، وصحيح مسلم (٩٨٨/٢).

(١٠) البهم: صغار الغنم. العين للخليل بن أحمد (٦٢/٤).

(١١) أي: ما رق منه ولان، ولا واحد له. مختار الصحاح (ص١٢٧).

فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه.

وفي روايةٍ: ثم قال أحدهما لصاحبه: زِنْه بعشرةٍ من أمته، فوزنني بهم فرجحْتُهم، ثم قال: زنه بمائةٍ من أمته فوزنني بهم، فوزنتهم ثم قال: زنه بألفٍ من أمته فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنها[١٢].

فصل في تفضيله ﷺ بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية وإمامة الأنبياء والعروج به إلى سدرة المنتهى وما رأى من آيات ربه الكبرى

ومن خصائصه ﷺ قصة الإسراء وما انطوت عليه من درجات الرفعة مما نبَّه عليه الكتاب العزيز وشرحَتْه صِحاحُ الأخبار.

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١-١٨]، فلا خلافَ بين المسلمين في صِحَّة الإسراء به ﷺ، إذ

(١٢) أخرجه ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ١٦٦/١)، والطبري في التاريخ (١٦٥/٢) من حديث خالد بن معدان عن نفر من أصحاب النبي ﷺ، وأخرجه الدارمي وأبو نعيم، وإسماعيل الأصبهانيان في دلائليهما (٢٢١/١)، (ص٣١) من حديث أبي ذر، وصححه الألباني بمجموع طرقه [١٥٤٥].

هـو نصُّ القرآن وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه وخواصِّ نبينا محمدٍ ﷺ فيه أحاديـثُ كثيرةٌ منتشرةٌ رأينا أن نقدِّم أكملَها ونشيرَ إلى زيادةٍ من غيره يجب ذكرها:

عـن أنس ين مالكٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «أُتيتُ بالبُراقِ وهو دابةٌ أبيضُ طويلٌ فوق الحمار ودون البغل، يضعُ حافـرَه عند منتهى طرْفِه. قال: فركبتـه حتى أتيتُ بيت المقدس، فربطته بالحلقة التـي يربط بها الأنبياء، ثم دخلـتُ المسجد فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجـتُ فجاءني جبرئيلُ بإناءٍ مِن خمرٍ وإنـاءٍ من لبنٍ، فاخترتُ اللبنَ فقال جبريـل: اخترتَ الفطرة. ثم عرج بنـا إلى السماءِ فاستفتح جبريل فقيل: مَنْ أنـت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معـك؟ قال: محمدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم ﷺ، فرحَّب بي ودعا لي بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ، قيل: وقـد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففُتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مـريم ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما، فرحبـا بي ودعوا لي بخيرٍ، ثم عرج بنـا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففتـح لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ، وإذا هـو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعـة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخيرٍ. قال الله تعالى ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مـريم: ٥٧]، ثـم عُـرج بنا إلى السماء الخامسـة، فذكر مثله، فـإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعـا لي بخير، ثم عُرج بنا إلى السماء السادسة، فذكـر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عُرج بنا إلى السماء

السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخلـه كل يومٍ سبعـون ألف ملكٍ لا يعودون إليه، ثـم ذهب بي إلى سدرة المنتهـى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرهـا كالقِلال[١٣]، قال: فلما غَشِيَها مِـن أمرِ الله مـا غشي تغيَّرتْ، فما أحدٌ مِن خلـق الله يستطيعُ أن ينعتها مِن حُسنهـا، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض علـيَّ خمسين صلاةً في كل يومٍ وليلةٍ، فنزلـتُ إلى موسى، فقال: ما فرض ربُّك على أمتك؟ قلت: خمسين صـلاةً، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيـف؛ فإنَّ أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوتُ بني إسرائيل وخبرتُهم. قال: فرجعتُ إلى ربي فقلتُ: يا ربِّ، خفِّـفْ عن أمتي، فحطَّ عني خمسًا، فرجعـتُ إلى موسى فقلتُ: حطَّ عني خمسًـا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلـك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قـال: فلـم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتـى قال: يا محمد، إنهنَّ خمسُ صلواتٍ كلَّ يوم وليلة، لِـكلِّ صلاةٍ عَشْرٌ، فتلـك خمسون صلاةً، ومَـن هـمَّ بحسنةٍ فلم يعملها كُتِبَـتْ له حسنةً، فإن عملهـا كُتِبَتْ له عشرًا، ومـن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تُكْتَبْ شيئًا، فـإن عملها كُتِبَتْ سيئةً واحدةً. قـال: فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى فأخبرتُه، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ: فقلتُ: قد رجعتُ إلى ربي حتى استحييتُ منه»[١٤].

(١٣) جمع قلة، وهي الحب العظيم، أي الجرة. النهاية في غريب الحديث (٤/١٠٤).
(١٤) صحيح مسلم (١/١٤٥-١٤٦).

وقد وقعتْ في حديث الإسـراء زياداتٌ نذكر منها نكتًا مفيدةً في غرضنا، منها:

في حديـث ابن شهابٍ، وفيـه: قولُ كلِّ نبيٍ له: «مرحبًـا بالنبي الصالح والأخ الصالح»، إلا آدم وإبراهيم، فقالا له: «والابن الصالح»[١٥].

وفيـه من طريـق ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «ثـم عرج بي حتى ظهرت بمستوًى أسمع فيه صَرِيفَ الأقلام»[١٦].

وعن أنسٍ رضي الله عنه: «ثم انْطُلِقَ بي حتى أتيتُ سدرة المنتهى، فغشيها ألوانٌ لا أدري ما هي، قال: ثم أُدْخِلْتُ الجنة»[١٧].

وفي حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه: «فلما جاوزته - يعني موسى - بكى، فنودي: ما يُبكيك؟ قال: ربِّ، هذا غلامٌ بعثته بعدي، يدخل مِن أمته الجنةَ أكثرُ مما يدخل مِن أمتي»[١٨].

وفي حديث أبي هريـرة رضي الله عنه: «وقد رأيتني في جماعةٍ من الأنبياء، فحانتِ الصـلاةُ فأممتُهم، فقال قائلٌ: يـا محمدُ، هذا مالكٌ خازنُ النـارِ فسلِّمْ عليه، فالتفتُّ فبدأني بالسلام»[١٩].

---

(١٥) صحيح البخاري (١/٧٨)، وصحيح مسلم (١/١٤٨).

(١٦) المصدران السابقان.

(١٧) صحيح البخاري (٤/١٣٥)، وصحيح مسلم (١/١٤٨).

(١٨) صحيح مسلم (١/١٤٩).

(١٩) صحيح مسلم (١/١٥٦).

والحـق من هذا والصحيح إن شاء الله أنه إسراءٌ بالجسد والروح في القصة كلهـا، وعليه تـدلُّ الآيةُ وصحيحُ الأخبـار والاعتبارُ، ولا يُعْـدَل عن الظاهرِ والحقيقـةِ إلى التأويلِ إلا عند الاستحالة، وليسـس في الإسراء بجسده وحالَ يقظته استحالةٌ؛ إذ لو كان منامًا لقال: بروح عبده ولم يقل بعبده، وقوله تعالى ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧]، ولـو كان منامًا لما كانـت فيه آيةٌ ولا معجزةٌ، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته.

فصل في تفضيله ﷺ بالمحبة والخلة

عـن أبي سعيـدٍ الخدري رضي الله عنه عن النبـي ﷺ أنه قال: «لـو كنت متخذًا خليـلًا غير ربي لاتخـذت أبا بكـرٍ»[٢٠]. وفي حديثٍ آخـر: «وإنَّ صاحبَكم خليلُ الله»[٢١].

واختلـف في تفسير الخُلَّة وأصل اشتقاقهـا، فقيل: الخليل المنقطع إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبته له اختلالٌ، وقيل: الخليل المختص واختار هذا القول غير واحدٍ، وقيل فيها غير ذلك.

(٢٠) صحيح البخاري (٤/٥)، صحيح مسلم (١٨٥٤/٤).
(٢١) صحيح مسلم (١٨٥٥/٤).

فصل في ذكر تفضيله ﷺ في القيامة بخصوص الكرامة

عــن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: قال رســول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما نبيٌّ يومئذٍ آدمُ فمَنْ سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول مَنْ تنشقُّ عنه الأرض ولا فخر»[٢٢].

وعــن أبي هريــرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا سيِّد ولــد آدم يوم القيامة، وأولُ مَن ينشقُّ عنه القبرُ، وأول شافعٍ وأول مُشفَّع»[٢٣].

وعن أنسٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا أولُ الناسِ يَشْفَع في الجنة، وأنا أكثرُ الناس تبعًا»[٢٤].

قولــه: «أنا سيِّد الناس يــوم القيامة»، هو سيدهم في الدنيــا ويوم القيامة، ولكــن أشار ﷺ لانفراده فيه بالسؤدد والشفاعة دون غيره؛ إذ لجأ الناس إليه في ذلــك، فلم يجدوا ســواه، والسيد هو الذي يلجأ الناس إليه في حوائجهم، فكان حينئذٍ سيدًا منفردًا مِن بينِ البشر لم يُزاحمه أحدٌ في ذلك ولا ادَّعاه.

وعــن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رســول الله ﷺ: «آتي بابَ الجنــة يوم القيامة، فأستفتــحُ فيقول الخازن: مَن أنــت؟ فأقول: محمدٌ، فيقول: بك أُمِرتُ أن لا أفتح لأحدٍ قبلك»[٢٥].

---

(٢٢) أخرجه الترمذي (٥/٥٨٧) وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/٣٠٩).
(٢٣) صحيح مسلم (٤/١٧٨٢).
(٢٤) صحيح مسلم (١/١٨٨).
(٢٥) صحيح مسلم (١/١٨٨).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهرٍ، وزواياه سواءٌ، وماؤه أبيضُ من الورِق وريحُه أطيبُ من المِسْك، كِيزانُه كنجومِ السماءِ، مَن شرِب منه لم يظمأ أبدًا»(٢٦).

وعن أبي ذرٍ رضي الله عنه نحوه، وقال: «طُوله ما بين عَمَّانَ إلى أيلة، يَشْخَبُ فيه ميزابانِ مِن الجنةِ»(٢٧).

فصل في تفضيله ﷺ بالشفاعة والمقام المحمود

قال الله تعالى ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

عن آدم بن عليٍّ قال: سمعتُ ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إنَّ الناسَ يصيرون يوم القيامة جثًى، كل أمةٍ تتبع نبيَّها، يقولون: يا فلانُ اشفع لنا، يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود(٢٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل عنها رسول الله ﷺ، يعني قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، فقال: «هي الشفاعة»(٢٩).

---

(٢٦) صحيح البخاري (١١٩/٨).

(٢٧) صحيح مسلم (١٧٩٨/٤).

(٢٨) صحيح البخاري (٨٦/٦).

(٢٩) أخرجه الترمذي (٣٠٣/٥)، وحسنه، وأحمد (٤٥٨/١٥) وغيرهما، وله شاهد في صحيح البخاري (١٣١/٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وروى كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَر الناسُ يومَ القيامة، فأكـونُ أنا وأمتي على تلٍّ، ويكسوني ربي حُلَّةً خضراء، ثم يُؤْذَن لي فأقولُ ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود»[٣٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما - وذكر حديث الشفاعة - قال: «فيمشي حتى يأخذَ بحلقة الجنة، فيومئذٍ يبعثه الله المقام المحمود الذي وعده»[٣١].

وعـن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خُـيِّرْتُ بين أن يَدْخُلَ نِصْفُ أمتي الجنةَ وبـين الشفاعة، فاخترتُ الشفاعة؛ لأنها أعـمُّ، أترونها للمتَّقين؟ ولكنها للمُذْنِبين الخطَّائين»[٣٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، ماذا ورد عليك في الشفاعة؟ فقال: «شفاعتي لمن شهِد أن لا إله إلا الله مُخلصًا يُصَدِّقُ لسانُه قلبَه»[٣٣].

وعـن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أريتُ ما تلقى أُمَّتـي مِن بعدي، وسَفْـكَ بعضِهم دماءَ بعضٍ، وسَبَقَ لهـم مِن الله ما سبق للأمم قبلهم، فسألتُ الله أن يؤتيني شفاعةً يوم القيامة فيهم، ففعل»[٣٤].

(٣٠) أخرجه ابن أبي داود في البعث (ص٣١)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٦/٣)، وقال الذهبي: «حديث صالح الإسناد». السير (٣٦٢/٦).

(٣١) صحيح البخاري (١٢٣/٢).

(٣٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٤١/٢)، وأحمد (٣٢٧/٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٦٨/٢)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٦٠/٤).

(٣٣) أخرجه أحمد (٤٣٣/١٣)، وابن حبان في صحيحه (٣٨٤/١٤)، والحاكم (١٤١/١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣٧٢/٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٦٥٧/٢)، والطبراني في مسند الشاميين (١٥٦/٤)، والحاكم في المستدرك (٦٨/١)، وصححه على شرط الشيخين، وأورده الألباني في الصحيحة [١٤٤٠].

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ليزيد الفقير: سمعت بمقام محمدٍ؟ - يعني الذي يبعثه الله فيه - قال: قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمدٍ المحمود الـذي يخـرج الله به من يخرج، يعنـي من النار، وذكر حديـث الشفاعة في إخراج الجهنميين[٣٥].

وفي حديـث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغمِّ ما لا يُطيقـون ولا يحتملون، فيقولون: ألا تنظرون مـن يَشْفَعُ لكم؟ فيأتون آدم، فيقولـون - زاد بعضهم - أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك مِن روحِه وأسكنك جنَّته، وأسجد لك ملائكته وعلَّمك أسماءَ كلِّ شيء، اشْفَعْ لنـا عند ربك حتى يُريحنا مِن مكاننـا، ألا ترى ما نحن فيه؟، فيقول: إن ربي غضِب اليوم غضبًا لم يغضبْ قبلـه مثله، ولا يغضبُ بعده مثله، ونهاني عن الشجـرة فعصيتُ، نفسي نفسـي، اذهبوا إلى غيري، اذهبـوا إلى نوح، فيأتون نوحًا، فيقولون: أنـت أولُ الرسل إلى أهل الأرض، وسمَّاك الله عبدًا شكورًا، ألا تـرى ما نحن فيـه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنـا إلى ربك؟ فيقول: إن ربـي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثلـه ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي. - قال في رواية أنسٍ: ويذكر خطيئته التي أصاب، سؤاله ربه بغير علم. - وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: وقد كانت لي دعوةٌ دعوتها على قومي، اذهبوا إلى غيري، اذهبـوا إلى إبراهيم؛ فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله وخليلُه مِن أهلِ الأرض، اشفعْ لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربـي قد غضِب اليوم غضبًا، - فذكـر مثله، ويذكر ثلاثَ كلماتٍ كذبهن،

(٣٥) صحيح مسلم (١/١٧٩).

- نفسي نفسي، لستُ لها، ولكن عليكم بموسى؛ فإنه كليمُ الله، - وفي روايةٍ: فإنه عبدٌ آتاه الله التوراة وكلَّمه وقرَّبه نجيًا -. قال: فيأتون موسى، فيقول: لستُ لها، - ويذكر خطيئتَه التي أصاب وقتله النفس -، نفسي نفسي، ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه روحُ الله وكلمتُه، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وكلمتَ الناس في المهد صبيًا، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضِب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبًا، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمدٍ، فيأتون محمدًا، فيقولون: يا محمدُ أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحدٍ قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك سلْ تُعْطَه، واشفعْ تُشفَّعْ، فأرفعُ رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد، أدخِلْ مِن أمتك مَن لا حسابَ عليهم مِن البابِ الأيمنِ مِن أبوابِ الجنة، وهم شركاءُ الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»[٣٦].

ولم يذكر في روايةِ أنسٍ هذا الفصل، وقال مكانه: «ثم أخِرُّ ساجدًا فيقال لي يا محمد ارفع رأسك وقل يُسْمَعْ لك واشفعْ تُشَفَّعْ وسَلْ تُعْطَه، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبةٍ من بُرَّةٍ أو شَعيرةٍ من إيمانٍ فأخرجه، فأنطلق فأفعل ثم أرجع إلى ربي، فأحمده بتلك المحامد.

(٣٦) صحيح البخاري (٦/٨٤)، وصحيح مسلم (١/١٨٤).

وذكر مثل الأول وقال فيه: مثقال حبةٍ من خردلٍ. قال: فأفعل ثم أرجع، وذكر مثـل ما تقدم وقال فيه: من كان في قلبـه أدنى أدنى من مثقال حبةٍ من خـردلٍ فأفعل، وذكر في المرة الرابعة: فيقـال لي: ارفع رأسك وقل يُسمعْ لك واشفـعْ تُشفَّـع وسَلْ تُعْطَه، فأقول: يا رب ائـذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: ليس ذلك إليك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأُخْرِجَنَّ مِن النار مَن قال: لا إله إلا الله، ومن رواية قتادة عنه قال: فلا أدري في الثالثة أو الرابعـة فأقول: يا رب ما بقـي في النار إلا مَن حبسه القرآن، أي من وجب عليه الخلود»[٣٧].

فقد اجتمع مِن اختلاف ألفاظ هذه الآثار أن شفاعته ﷺ ومقامه المحمود مِـن أولِ الشفاعات إلى آخرها مِن حين يجتمع الناسُ للحشر وتَضيقُ بهم الحناجرُ ويبلُغُ منهم العـرقُ والشمسُ والوقوفُ مبلغَه، وذلك قبل الحساب، فيشفع حينئذٍ لإراحة الناس من الموقف، ثم يُوضع الصراطُ ويُحاسَب الناسُ، فيشفـع في تعجيل مَن لا حسـاب عليه مِن أمته إلى الجنـة، ثم يشفع فيمن وجب عليه العذاب ودخل النار منهم حسبما تقتضيه الأحاديث الصحيحة، ثم فيمن قال: لا إله إلا الله وليس هذا لسواه ﷺ.

وفي الحديث المنتشر الصحيح: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ يدعو بها واختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة»[٣٨].

(٣٧) صحيح البخاري (١٤٦/٩)، وصحيح مسلم (١٨٢/١).

(٣٨) صحيح البخاري (٦٧/٨، ١٣٩/٩)، وصحيح مسلم (١٩٠/١، ١٨٩).

قال أهـل العلم: معناه دعوةٌ أعلم أنها تستجاب لهم ويبلغ فيها مرغوبهم، وإلا فكـم لـكلِ نبي منهم من دعـوةٍ مستجابةٍ، ولنبينا ﷺ منهـا ما لا يُعدُّ، لكـن حالهم عند الدعاء بها بين الرجاء والخـوف وضمنت لهم إجابة دعوة فيمـا شاؤوه يدعون بها على يقينٍ مـن الإجابة. فتكون هذه الدعوة المذكورة مخصوصةً بالأمة مضمونةَ الإجابـة، وإلَّا فقد أخبر ﷺ أنه سأل لأمته أشياءَ مِـن أمورِ الدين والدنيا أُعْطِي بعضَها ومُنِـع بعضَها، وادَّخَر لهم هذه الدعوةَ ليـوم الفاقةِ وخاتمةِ المِحَن وعظيم السؤال والرغبة؛ جزاه الله أحسن ما جزى نبيًّا عن أمته وصلى الله عليه وسلَّم كثيرًا.

فصل في تفضيله ﷺ في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة

عـن عبد الله بن عمرو بـن العاص رضي الله عنهما أنـه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنه مَن صلَّى عليَّ مرةً صلَّى الله عليه عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلَّا لعبدٍ مِن عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمَن سأل الله لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة» (٣٩).

وفي حديـثٍ آخر عـن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «الوسيلـةُ أعلى درجةٍ في الجنة» (٤٠).

(٣٩) صحيح مسلم (١/٢٨٨).

(٤٠) أخرجه الترمذي (٥/٥٨٦)، وأحمد (١٣/٤٠)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/٣١٥)، وغيرهم، وأورده الألباني في صحيح الجامع (١/٦٧٩).

وعن أنسٍ ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا أسيرُ في الجنة إذ عُرِض لي نهرٌ حافَّتاه قِبابُ اللؤلؤ، قلت لجبريل: ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله، قال: ثم ضرب بيده إلى طينته فاستخرج مسكًا»[٤١].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مثله، قال: «ومجراه على الدرِّ والياقوت، وماؤه أحلى من العسل وأبيضُ مِن الثلج»[٤٢].

وفي روايةٍ عنه: «فإذا هو يجري ولم يُشقَّ شقًا، عليه حوضٌ ترد عليه أمتي»، وذكر حديث الحوض[٤٣].

وعن حذيفة ﷺ فيما ذكر ﷺ عن ربه: «وأعطاني الكوثر نهرًا مِن الجنة يسيل في حوضي»[٤٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ٥] قال: ألفُ قصرٍ مِن لؤلؤٍ تُرابُهن المسكُ وفيه ما يُصلِحهن. وفي روايةٍ أخرى: وفيه ما ينبغي له من الأزواج والخدم[٤٥].

---

(٤١) صحيح البخاري (١٢٠/٨).

(٤٢) أخرجه الترمذي (٤٤٩/٥)، وأحمد (١٤٥/١٠)، والدارمي في سننه (١٨٧٤/٣)، وابن حبان في صحيحه (٣٧١/١٤)، وغيرهم، وإسناده جيد.

(٤٣) أخرجه أحمد (٢٠٠/٢١)، وأبو يعلى في مسنده (٢٣٦/٦)، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (ص٨٤)، وإسناده على شرط مسلم.

(٤٤) أخرجه أحمد (٣٦٢/٣٨)، وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٦٨٢/١)، وفي إسناده ضعف من أجل ابن لهيعة، لكن يشهد له الأحاديث الصحيحة المتقدمة.

(٤٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٨٧/٢٤)، والطبراني في الأوسط (١٧٩/١)، والآجري في الشريعة (١٦٢١/٤)، والحاكم في المستدرك (٥٧٣/٢) وصححه، وتعقبه الذهبي بتفرد أحد رواته، والحق أنه لم يتفرد به، ولذلك صححه الألباني في الصحيحة [٢٧٩٠].

فصل في أسمائه ﷺ وما تضمنته من فضيلته

عن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسةُ أسماءٍ، أنا محمدٌ وأنا أحمدُ وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»[٤٦].

وقد سمَّاه الله تعالى في كتابه محمدًا وأحمد؛ فممَّا خصَّه الله تعالى به أنْ ضمَّن أسماءَه ثناءَه. فأما اسمه أحمد فأفعلُ مبالغة مِن صفة الحمد، ومحمَّدٌ مُفعَّلٌ مبالغة مِن كثرةِ الحمد، فهو ﷺ أجلُّ مَن حُمِد وأفضلُ مَن حُمِد من البشر وأكثرُهم حمدًا، فهو أحمدُ المحمودين وأحمدُ الحامدين ومعه لِواءُ الحمد يوم القيامة، ليَتِمَّ له كمالُ الحمدِ ويتشهَّر في تلك العَرَصاتِ بصفة الحمد، ويبعثه ربه هناك مقامًا محمودًا كما وعده، يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم، ويفتح عليه فيه من المحامد كما قال ﷺ ما لم يُعطَ غيرُه، وسمَّى أمتَه في كُتُب أنبيائه بالحمَّادِين فحقيقٌ أن يُسمَّى محمدًا وأحمد.

ثم في هذينِ الاسمينِ مِن عجائبِ خصائصِه وبدائعِ آياته فنٌّ آخرُ، هو أنَّ الله جل اسمه حمى أن يُسمَّى بهما أحدٌ قبلَ زمانه؛ أما أحمدُ الذي أتى في الكُتُب وبشَّرتْ به الأنبياءُ فمنع الله تعالى بحكمته أن يُسمَّى به أحدٌ غيره ولا يُدْعَى به مدعوٌّ قبله حتى لا يدخل لبسٌ على ضعيف القلب أو شكٌّ.

وكذلك محمدٌ أيضًا لم يُسمَّ به أحدٌ مِن العربِ ولا غيرهم إلى أن شاع قُبَيْلَ وجوده ﷺ وميلادِه أن نبيًّا يُبْعَثُ اسمُه محمدٌ، فسمَّى قومٌ قليلٌ مِن

(٤٦) صحيح البخاري (٤/١٨٥)، وصحيح مسلم (٤/١٨٢٨).

العـربِ أبناءَهم بذلك رجـاءَ أنْ يكونَ أحدهم هـو، واللهُ أعلمُ حيثُ يجعل رسالتـه، وهم: محمـد بن أُحَيْحَة ابن الجُلاح الأوسـي، ومحمَّد بن مسلمة الأنصاري، ومحمَّد بن براءٍ البَكْري، ومحمَّد ابن سُفيان بن مجاشع، ومحمد بن حُمْران الجعفي، ومحمد بن خزاعي السلمي، لا سابع لهم[٤٧].

ويقـال: أولُ مـن سُمِّي محمـدًا محمد بـن سفيان، واليمـن تقول: بل محمد بن اليحمد مِن الأزد، ثم حمى الله كلَّ مَن تسمَّى به أن يدَّعي النبوة أو يدعيهـا أحـدٌ له أو يظهر عليـه سببٌ يُشكِّك أحـدًا في أمره حتى تحقَّقت السمتان له ﷺ ولم ينازع فيهما.

وأمـا قوله ﷺ: «وأنا الماحي الذي يمحـو الله بي الكفر» ففُسِّر في الحديث، ويكـون محوُ الكفرِ إما مِن مكة وبلاد العربِ ومـا زُوِي له مِن الأرضِ ووُعِد أنَّـه يبلُغُه ملكُ أمتـه، أو يكون المحوُ عامًا بمعنى الظهور والغلبة كما قال تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، [الفتح: ٢٨]، [الصف: ٩].

وقولـه: «وأنـا الحاشر الذي يُحْشَـر الناسُ على قدمـي» أي: على زماني وعهدي، أي: ليس بعدي نبيٌ كما قال ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وسمِّي عاقبًا لأنه عَقَبَ غيرَه من الأنبياء.

وفي الصحيح: «أنا العاقبُ الذي ليس بعدي نبيٌّ»[٤٨].

---

(٤٧) ردَّ عليه ابن حجر في الفتح (٦/٥٥٦)، فقال: «وهو حصر مردود، وقد جمعت أسماء من تسمى بذلك في جزء مفرد، فبلغوا نحو العشرين، لكن مع تكرر في بعضهم ووهم في بعض، فيتلخص منهم خمسة عشر نفسًا».

(٤٨) صحيح مسلم (٤/١٨٢٨). وفيه «بعده أحد» مكان «بعديَ نبي».

وفي حديثٍ عن جُبَير بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه: هي ستٌ: محمَّدٌ وأحمدُ وخاتمٌ وعاقبٌ وحاشرٌ وماحٍ[٤٩].

وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان ﷺ يسمِّي لنا نفسه أسماءً فيقول: «أنا محمدٌ وأحمدُ والمقفِّي والحاشرُ ونبيُّ التوبةِ ونبيُّ الملحمة»[٥٠].

وكلٌّ صحيحٌ إن شاء الله، ومعنى المقفي معنى العاقب، وأما نبيُّ الرحمة والتوبة فقد قال الله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكما وصفه بأنه يُزكِّيهم ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم، وبالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ، وقد قال في صفة أمته: إنها أمةٌ مرحومةٌ، وقد قال تعالى فيهم ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، أي يرحم بعضهم بعضًا، فبعثه ﷺ ربه تعالى رحمةً لأمته ورحمةً للعالمين ورحيمًا بهم ومترحِّمًا ومُسْتَغْفِرًا لهم، وجعل أمته أمة مرحومة ووصفها بالرحمة وأمرها ﷺ بالتراحم وأثنى عليه.

فقال: «إن الله يُحِبُّ مِن عِباده الرحماء»[٥١]. وقال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يرحمْكم مَن في السماء»[٥٢].

---

(٤٩) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/٨٥)، والبخاري في تاريخه الأوسط (١/١٠)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/٢٦٦)، والحاكم في المستدرك (٤/٣٠٤)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٥٠) صحيح مسلم (٤/١٨٢٨)، وفيه «نبي الرحمة» بدل «نبي الملحمة»، وبلفظ المؤلف أخرجه أحمد (٣٢/٣٩٧، ٤٢٠)، والطيالسي في مسنده (١/٣٩٦)، والبزار (٨/٤٠)، وابن حبان في صحيحه (١٤/٢٢١)، والحاكم وصححه (٢/٦٥٩) ووافقه الذهبي.

(٥١) صحيح البخاري (٢/٧٩)، وصحيح مسلم (٢/٦٣٥).

(٥٢) أخرجه أبو داود (٤/٢٨٥)، والترمذي (٤/٣٢٣) وصححه، وصححه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة [٩٢٥].

وأمـا رواية «نبيُّ الملحمة» فإشارةٌ إلى مـا بعث به ﷺ من القتال والسيف، وهي صحيحةٌ.

وروى حذيفـة مثـل حديث أبي موسـى رضي الله عنهمـا، وفيه: «ونبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملاحم»[٥٣].

وقـد جاءت من ألقابه ﷺ وسماته في القـرآن عدةٌ كثيرةٌ سوى ما ذكرناه، كالنور والسـراج المنير والمنذر والنذيـر والمبشر والبشـير والشاهد والشهيد وخـاتم النبيين والـرؤوف الرحيم والأمـين ورحمةٍ للعالمـين والكريم والنبي الأمي وداعي الله، في أوصافٍ كثيرةٍ وسماتٍ جليلةٍ.

وجـرى منها في كتب الله المتقدمة وكتب أنبيائه وأحاديث رسوله وإطلاق الأمة جملةٌ شافيةٌ، مثل المصطفى والمجتبى وأبي القاسم ورسول رب العالمين والشفيـع المشفَّع والمتقي والمصلح والصادق والمصـدوق والهادي وسيد ولد آدم وسيـد المرسلـين وإمام المتقين وقائـد الغُر المحجَّلـين وصاحب الحوض المورود والشفاعة والمقام المحمود وصاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وصاحب التاج والمعراج واللواء وصاحب الحجة والخاتم والبرهان.

وكانت كنيته المشهورة أبا القاسم.

(٥٣) أخرجه أحمد (٤٣٦/٣٨)، والترمذي في الشمائل (ص ٢١٥)، وعمر بن شبة في تاريخ المدينة (٦٣٢/٢)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٢/١٤)، وغيرهم وهو حديث صحيح.

الباب الرابع فيما أظهره الله تعالى على يديه ﷺ من المعجزات وشرَّفه به مِن الخصائص والكرامات

وإذا تأمَّــل المتأمِّل المنصِفُ ما قدَّمناه مِن جميلِ أثره وحميد سِيَره وبراعة علمــه ورجاحــة عقله وحلمــه وجملة كماله وجميــع خِصالــه وشاهد حاله وصواب مقاله لم يَمْتَرِ في صحة نبوته وصدق دعوته، وقد كفى هذا غيرَ واحدٍ في إسلامه والإيمان به.

عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدِم رسولُ الله ﷺ المدينة جئتُه لأنظرَ إليه، فلما استبنْتُ وجهَه عرفتُ أنَّ وجهَه ليس بوجهِ كذَّابٍ[1].

ولما جاء ضِمادٌ رضي الله عنه النبيَّ ﷺ قال له: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، مَن يهــده الله فلا مُضِلَّ لــه، ومَن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهــد أن لا إله إلا الله وحــده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، قــال له: أَعِدْ عليَّ كلماتِك هؤلاءِ فلقد بلغن قاموسَ البحر[2]، هاتِ يدك أُبايِعْك[3].

(١) أخرجه الترمذي (٤/٦٥٢)، وابن ماجه (١/٤٢٣)، وأحمد (٣٩/٢٠١)، وغيرهم، وإسناده صحيح.

(٢) في صحيح مسلم: «ناعوس البحر»، وهو بمعنى قاموس البحر. قال أبو عبيد: قاموس البحر وسطه، وقال ابن دريد: لجته، وقال صاحب كتاب العين: قعره الأقصى. ينظر: إكمال المعلم للمؤلف (٣/٢٧٢)، وشرح النووي على مسلم (٦/١٥٧).

(٣) صحيح مسلم (٢/٥٩٣).

فصل في معنى النبوة والرسالة والوحي

النبــوءة في لغة من همز مأخودةٌ من النبإ وهو الخبر، وقد لا يهمز على هذا التأويــل تسهيلاً، والمعنى أنَّ الله تعالى أطلعه على بعض غيبه وأعلمه أنه نبيه فيكــون نبي منبــأ فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، أو يكون مُخْــبِرًا عما بعثه الله تعالى به ومُنْبِئًــا بمــا أطلعه الله عليه، فعيلٌ بمعنى فاعــلٍ، ويكون عند من لم يهمزه من النبــوة، وهو ما ارتفع من الأرض، معناه أن له رتبــةً شريفةً ومكانةً نبيهةً عند مولاه مُنيفةً، فالوصفانِ في حقه مُؤْتلفان.

وأمــا الرسول فهو المرسل، ولم يأت فعــولٌ بمعنى مُفْعَلٍ في اللغة إلا نادرًا، وإرسالــه أمرُ الله لــه بالإبلاغِ إلى من أرسله إليــه، واشتقاقه من التتابع، ومنه قولهــم: جاء الناس أرسالًا إذا تبع بعضهم بعضًا، فكأنَّه ألزم تكرير التبليغ أو ألزمت الأمة اتباعه.

وأول الرسل آدم وآخرهم محمدٌ ﷺ.

وأمــا الوحي فأصله الإسراع، فلما كان النبي يتلقى ما يأتيه من ربه بعجلٍ سمِّي وحيًا، وسمِّيت أنواع الإلهامات وحيًا تشبيهًا بالوحي إلى النبي، وسمي الخط وحيًا لسرعة حركة يد كاتبه، ووحي الحاجب واللحظ سرعة إشارتهما، ومنه قوله تعــالى ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، أي أومأ ورمز، وقيل: كتب، ومنه قولهم: الوحا الوحا أي السرعة السرعة.

وقيل: أصل الوحي السر والإخفاء، ومنه سمي الإلهام وحيًا، ومنه قوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي يوسوسون في صدورهم، ومنه قوله ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧]، أي ألقي في قلبها، وقد قيل ذلك في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]، أي ما يلقيه في قلبه دون واسطةٍ.

فصل في معنى المعجزة

اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزةً هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، كإحياء الموتى، وقلب العصا حيةً، وإخراج ناقةٍ من صخرةٍ، وكلام شجرةٍ، ونبع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر، مما لا يمكن أن يفعله أحدٌ إلا الله، فيكون ذلك على يد النبي ﷺ من فعل الله تعالى، وتحدِّيه مَن يكذِّبه أن يأتي بمثله تعجيزٌ له.

واعلم أنَّ المعجزاتِ التي ظهرت على يد نبينا ﷺ - وهو أكثر الرسل معجزةً وأبهرهم آيةً وأظهرهم برهانًا كما سنبينه - هي في كثرتها لا يحيط بها ضبطٌ؛ فإن واحدًا منها وهو القرآن لا يحصى عدد معجزاته بألفٍ ولا ألفين ولا أكثر؛ لأن النبي ﷺ قد تحدى بسورةٍ منه فعُجِزَ عنها، قال أهل العلم: وأقصر السور ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣]، فكل آيةٍ أو آياتٍ منه بعددها وقدرها معجزةٌ، ثم فيها نفسها معجزاتٌ على ما سنفصله فيما انطوى عليه من المعجزات. وكثيرٌ من هذه المعجزات المأثورة عنه ﷺ معلومةٌ بالقطع.

أمـا انشقاق القمر فالقرآن نصَّ بوقوعـه وأخبر عن وجوده، ولا يعدل عن ظاهـرٍ إلا بدليلٍ، وجاء برفـع احتماله صحيحُ الأخبار مـن طرقٍ كثيرةٍ، ولا يُوهِـن عَزْمَنا خلافُ أخرقَ مُنْحلّ عُرى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدعٍ يُلقـي الشك على قلـوب ضعفاء المؤمنين، بل نُرْغِم بهذا أنفَـه ونَنْبِذ بالعَراء سُخْفَه.

وكذلـك قصة نبـع الماء وتكثير الطعـام رواها الثقات والعـدد الكثير عن الجـمِّ الغفير عن العدد الكثير من الصحابة، ومنها مـا رواه الكافة عن الكافة متصـلًا عمن حدث بها من جملة الصحابة وأخيارهم أن ذلك كان في موطن اجتماع الكثير منهم: في يوم الخندق، وفي غزوة بُواطٍ، وعمرة الحديبية، وغزوة تبوك، وأمثالها من محافـل المسلمين ومجمع العساكر، ولم يُؤْثَر عن أحدٍ من الصحابـةِ مُخالفةٌ للراوي فيما حكاه ولا إنكارٌ عمَّـا ذُكِر عنهم أنهم رأوه كما رواه. فسكـوت الساكت منهم كنطق الناطـق؛ إذ هم المنزَّهون عن السكوت علـى باطلٍ والمداهنةِ في كذبٍ، وليس هناك رغبةٌ ولا رهبةٌ تمنعهم، ولو كان ما سمِعوه منكـرًا عندهم وغير معروفٍ لديهم لأنكـروه، كما أنكر بعضُهم على بعضٍ أشياءَ رواها مِـن السنن والسِّيَر وحروفِ القـرآن، وخطَّأ بعضُهم بعضًا ووهَّمـه في ذلك مما هو معلومٌ. فهذا النـوع كله يُلحَق بالقطعي مِن معجزاته لما بيناه.

وأيضًا فإن أمثال الأخبار التي لا أصل لها وبُنيتْ على باطلٍ لا بُد مع مرور الأزمـان وتداوُل الناس وأهلِ البحث مِـن انكشافِ ضعفها وخمول ذكرها،

كما يشاهد في كثيرٍ من الأخبار الكاذبة والأراجيف الطارئة، ومعجزاتُ نبينا ﷺ لا تـزداد مع مرور الزمان إلا ظهورًا، ومع تداوُل الفرق وكثرة طعن العدو وحرصه على توهينها وتضعيف أصلها وإجهاد الملحد على إطفاء نورها إلا قوةً وقبولًا، ولا للطاعن عليها إلا حسرةً وغليلًا.

وكذلـك إخبارُه عن الغيوب وإنباؤه بما يكـون وكان معلومٌ مِن آياته على الجملة بالضرورة، وهذا حقٌ لا غطاء عليه.

فصل في إعجاز القرآن

اعلم – وفقنا الله وإياك – أنَّ كتاب الله العزيز مُنطوٍ على وجوهٍ من الإعجاز كثيرةٍ، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوهٍ:

أولهـا: حُسن تأليفه، والْتِئـامُ كلمه، وفصاحته، ووجـوه إيجازه، وبلاغته الخارقـةُ عـادةَ العـرب؛ وذلـك أنهـم كانـوا أربـابَ هـذا الشـأن وفرسانَ الـكلام، قـد خُصُّـوا مِـن البلاغـة والحكم مـا لم يُخصَّ به غيرُهـم مِن الأمم، وأُوتـوا مِـن ذَرابـةِ اللسان مـا لم يُؤْتَ إنسـانٌ، ومِـن فَصْل الخطاب مـا يقيِّـد الألباب، جعـل الله لهم ذلـك طبعًا وخِلقـةً، وفيهم غريـزةً وقوةً، يأتـون منـه علـى البديهة بالعجـب، ويُدْلون بـه إلى كل سبـبٍ؛ فيخطبون بديهًا في المقامات وشديد الخَطْب، ويرتجزون به بين الطعن والضَّرْب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسَّلون ويتوصَّلون، ويرفعون ويضعون، فما راعهم إلا رسولٌ كريمٌ بكتابٍ عزيزٍ لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِن خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، أُحكمت آياته وفُصِّلت كلماته، وبَهَرت بلاغتُه العقولَ وظهرت فصاحتُه على

كلِّ مقولٍ، صارخًا بهم في كل حين ومُقَرِّعًا لهم بضعًا وعشرين عامًا على رؤوس الملأ أجمعين: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨]، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤] ، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، و﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: ١٣]، فلم يزل يُقرِّعهم ﷺ أشدَّ التقريع ويوبِّخهم غايةَ التوبيخ ويسفِّه أحلامهم ويحطُّ أعلامهم ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كلِّ هذا ناكصون عن مُعارضته، مُحْجِمون عن مماثلته، يُخادِعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والإغراء بالافتراء، وقولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٢٥]، ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ٢٤]، و﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ٢]، و﴿ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤]، و ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١]، والمُباهتةِ والرضى بالدنيئة كقولهم ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ [البقرة: ٨٨]، و ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥]، و ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، والادِّعاء مع العجز بقولهم ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ [الأنفال: ٣١]، وقد قال لهم الله ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٤]، فما فعلوا ولا قدروا، ومَن تعاطى ذلك مِن سُخفائهم كمُسَيْلِمَة كُشِفَ عَوارُه لجميعهم، وسلبهم الله ما أَلِفوه مِن فصيحِ كلامهم، وإلا فلم يَخْفَ على أهل المِيَز منهم أنه ليس مِن نَمَطِ فصاحتهم ولا جِنْسِ بلاغتهم، بل ولَّوْا عنه مُدبِرين، وأَتَوْا مُذْعِنين مِن بين مُهْتدٍ وبين مفتونٍ.

ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة مِن النبي ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] قال: والله إنَّ له لحلاوةً وإنَّ عليه لطلاوةً وإن أسفله لَمُغْدِقٌ[٤] وإن أعلاه لَمُثْمِرٌ، ما يقول هذا بشرٌ[٥].

وذكر أبو عبيدٍ أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد وقال: سجدت لفصاحته، وسمع آخر رجلاً يقرأ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحُكِي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يومًا نائمًا في المسجد، فإذا هو بقائم على رأسه يتشهَّد شهادة الحق، فاستخبره فأعلمه أنه مِن بطارقة الروم ممَّن يُحْسِن كلامَ العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً مِن أسرى المسلمين يقرأ آيةً مِن كتابكم فتأملتُها، فإذا قد جُمِعَ فيها ما أنزل الله على عيسى بن مريم مِنْ أحوالِ الدنيا والآخرة، وهي قوله ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جاريةٍ فقال لها: قاتلكِ الله ما أفصحكِ! فقالت: أويُعدُّ هذا فصاحةً بعد قول الله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ

(٤) المغدق المروي، والكثير الماء. انظر: غريب الحديث للخطابي (١/٤٤١)، الفائق في غريب الحديث (١/٣٤١).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٥٥٠)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]؟، فجمع في آيةٍ واحدةٍ بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، فهذا نوعٌ من إعجازه منفردٌ بذاته غير مضافٍ إلى غيره.

وكون القرآن أتى به النبي ﷺ من عند الله معلومٌ ضرورةً[٦]، وكونه ﷺ متحديًا به معلومٌ ضرورةً، وعجز العرب عن الإتيان به معلومٌ ضرورةً، وكونه في فصاحته خارقًا للعادة معلومٌ ضرورةً للعالِمين بالفصاحة ووجوه البلاغة، وسبيلُ مَن ليس مِن أهلها علمُ ذلك بعجز المنكرين مِن أهلها عن معارضته واعترافِ المقرِّين بإعجاز بلاغته، وأنت إذا تأملت قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥١]، وقوله ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠] وأشباهَها من الآي بل أكثرَ القرآن حققتَ ما بينتُه مِن إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها، وأن تحت كل لفظةٍ منها جملًا كثيرةً وفصولًا جمةً وعلومًا زواخر مُلِئت الدواوينُ مِن بعضِ ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها، ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف - التي يَضْعُف في عادة الفصحاء عندها

(٦) أي: بداهة لا تحتاج إلى فكر وبحث.

الـكلامُ ويذهب ماءُ البيان - آيةٌ لمتأمله مِن ربط الكلام بعضِه ببعضٍ والتئامِ سرده وتناصـفِ وجوهه، كقصة يوسف على طولها، ثـم إذا ترددت قصصُه اختلفـت العبارات عنها على كثرة ترددها حتـى تكاد كلُّ واحدةٍ تنسي في البيـان صاحبتها وتُناصِف في الحسـن وجهَ مقابِلتها، ولا نفـورَ للنفوس من ترديدها ولا معاداةَ لِـمُعادها.

فصل

الوجـه الثاني مِن إعجازه صورةُ نظمِه العجيـبِ المخالفِ لأساليب كلام العـرب ومناهج نظمها ونثرهـا، والأسلوبُ البديع الذي جـاء عليه، ووقفَتْ مقاطـعُ آيه وانتهـتْ فواصلُ كلماته إليـه، ولم يوجد قبلـه ولا بعده نظيرٌ له ولا استطـاع أحدٌ مماثلـةَ شيءٍ منه، بل حارت فيه عقولهـم وتدلَّهت[٧] دونه أحلامُهـم، ولم يهتدوا إلى مثلـه في جنس كلامهم من نثرٍ أو نظمٍ أو سجعٍ أو رجزٍ أو شعرٍ.

ولما سمع كلامَه ﷺ الوليدُ بن المغيرة وقرأ عليه القرآنَ رقَّ، فجاءه أبو جهلٍ مُنْكِرًا عليه، قال: والله ما مِنكم أحدٌ أعلمُ بالأشعارِ مني، والله ما يُشْبِهُ الذي يقول شيئًا مِن هذا.

وفي خبره الآخرِ حين جمع قريشًا عند حضور الموسم وقال: إنَّ وفود العرب تَرِدُ فأجمعوا فيه رأيًا لا يُكذِّب بعضُكم بعضًا، فقالوا: نقول كاهنٌ، قال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمته ولا سجعه، قالوا: مجنونٌ، قال: ما هو بمجنونٍ ولا

(٧) من الدله، وهو ذهاب الفؤاد من هم. انظر: العين للخليل (٤/٢٥).

بخنقه ولا وسوسته، قالوا: فنقول شاعرٌ، قال: ما هو بشاعرٍ، قد عرفنا الشعر كله رَجَـزَه وهَزَجَه وقريضَه ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعرٍ، قالوا: فنقول ساحرٌ، قـال: ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده، قالـوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين مـن هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطـلٌ، وإنَّ أقرب القول أنه ساحرٌ؛ فإنه سحرٌ يُفرِّق بين المرء وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجه والمرء وعشيرته، فتفرقوا وجلسوا على السُّبُل يحذِّرون الناس، فأنزل الله تعالى في الوليد ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ [المدثر: ١١-١٧].

وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم، قد علمتم أني لم أترك شيئًا إلا وقد علمتـه وقرأته وقلته، والله لقد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.

وفي حديث إسلام أبي ذر رضي الله عنه ووَصَفَ أخاه أُنَيْسًا فقال: والله ما سمعت بأشعـر من أخي أنيسٍ، لقد ناقض اثنـي عشر شاعرًا في الجاهلية أنا أحدهم، وأنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي ﷺ. قلت: فما يقول الناس؟ قـال: يقولون شاعـرٌ كاهنٌ ساحرٌ، لقد سمعت قـول الكهنة فما هو بقولهم، ولقـد وضعته على أَقْرَاء[٨] الشعر فلم يَلْتَئِمْ، وما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعرٌ وإنه لصادقٌ وإنهم لكاذبون[٩].

(٨) أنواعه وطرقه. غريب الحديث لابن قتيبة (٢/١٨٧).

(٩) صحيح مسلم (٤/١٩١٩).

والأخبار في هذا صحيحةٌ كثيرةٌ، والإعجاز بكل واحدٍ من النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها، والأسلوب الغريب بذاته، كل واحدٍ منهما نوع إعجازٍ على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحدٍ منهما؛ إذ كل واحدٍ خارجٌ عن قدرتها مباينٌ لفصاحتها وكلامها، وإلى هذا ذهب غير واحدٍ من أئمة المحققين.

ووجه عجزهم عنه أن ما جمع في قوةٍ جزالته ونصاعة ألفاظه وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصحُّ أن يكون في مقدور البشر، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن إقدار الخلق عليها كإحياء الموتى وقلب العصا وتسبيح الحصا.

فصل

الوجه الثالث من الإعجاز ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع، فوُجِدَ كما ورد على الوجه الذي أخبر، كقوله تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وقوله تعالى ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]، وقوله ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، وقوله ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣]، فكان جميع هذا كما قال؛ فغلبت

الـروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في الإسلام أفواجًا، فما مات ﷺ وفي بـلاد العرب كلها موضـعٌ لم يدخله الإسلام، واستخلـف الله المؤمنين في الأرضـ ومكن فيهـا دينهم وملكهم إياها من أقصـى المشارق إلى أقصى المغارب كما قـال ﷺ: «زُوِيَت لي الأرضُ، فأُريتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وسيَبْلُغ مُلْكُ أمتي ما زُوِيَ لي منها»[(١٠)].

وقولـه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فكان كذلك لا يكاد يُعَـدُّ مَـنْ سعى في تغيـيره وتبديل محكمه مـن الملحدة والمعطِّلـة لا سيما القرامطـة، فأجمعوا كيدهم وحَوْلَهم وقوتهم، فما قدروا على إطفاءِ شيءٍ مِن نوره ولا تغييرِ كلمةٍ مـن كلامه، ولا تشكيك المسلمين في حرفٍ من حروفه والحمد لله.

ومنه قوله ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]، وقوله ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبـة: ١٤]، وقولـه ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبـة: ٣٣]، وقولـه ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١١١]، فكان كل ذلك.

ومـا فيه من كشف أسـرار المنافقين واليهود ومقالهـم وكذبهم في حلفهم وتقريعهـم بذلك كقولـه ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة: ٨]، وقوله ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآية، وقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

(١٠) صحيح مسلم (٤/٢٢١٥).

ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ ﴾ [النساء: ٤٦] ، وقد قال مبديًا ما قدره الله واعتقده المؤمنون يوم بدر ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٧].

ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥]، ولما نزلت بشر النبي ﷺ بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم، وكان المستهزؤن نفرًا بمكة، ينفرون الناس عنه ويؤذونه فهلكوا، وقوله ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان كذلك على كثرة من رام ضره وقصد قتله، والأخبار بذلك معروفةٌ صحيحةٌ.

فصل

الوجه الرابع ما أنبأ به مِن أخبارِ القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة، مما كان لا يَعْلَمُ منه القصةَ الواحدة إلا الفذُّ مِن أحبارِ أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلُّم ذلك، فيورده النبي ﷺ على وجهه ويأتي به على نصِّه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه وأن مثله لم ينله بتعليمٍ، وقد

علمـوا أنه ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتـب ولا اشتغل بمدارسةٍ ولا مُثافَنَةٍ[11] ولم يَغِبْ عنهم ولا جَهِلَ حالَه أحدٌ منهم.

وقد كان أهلُ الكتاب كثيرًا ما يسالونه ﷺ عن هذا فينزل عليه من القرآن مـا يتلو عليهم منه ذكـرًا، كقصص الأنبياء مع قومهـم وخبر موسى والخضر ويوسف وإخوته وأصحاب الكهـف وذي القرنين ولقمان وابنه وأشباه ذلك مِـن الأنباء، وبـدء الخلق وما في التـوراة والإنجيل والزبـور وصُحُف إبراهيم وموسـى مما صدَّقه فيه العلماء بهـا ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمِن موفقٍ آمن بما سبق له من خيرٍ، ومِن شقيٍ مُعاندٍ حاسدٍ، ومـع هـذا لم يُحْكَ عن واحدٍ من النصارى واليهـود على شدة عداوتهم له وحرصهـم علـى تكذيبه وطول احتجاجـه عليهم بما في كتبهـم وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم وكثرة سؤالهم له ﷺ وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم وأسرار علومهم أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم صرح بصحةِ نُبُوَّته وصِدْق مقالتـه واعترف بعناده وحسده إياه كأهل نجـران وابن صوريا وابني أخطب وغيرهم.

ومن باهت في ذلك بعض المباهتة وادَّعى أن فيما عندهم مِن ذلك لِما حكاه مخالفةً دُعِيَ إلى إقامة حجته وكشف دعوته، فقيل له ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [آل عمـران: ٩٣-٩٤]، فقرَّع ووبَّخ ودعـا إلى إحضار ممكنٍ غير ممتنعٍ، فمِنْ مُعترفٍ بما

(١١) ثافن الرجل إذا باطنه ولزمه حتى يعرف دخلته والمثافن المواظب. المحكم لابن سيدة (١٠/١٦٥).

جحـده ومُتواقحٍ يُلْقي على فضيحته مِن كتابه يَـدَهُ، ولم يُؤْثَرْ أنَّ واحدًا منهم أظهـر خلاف قوله مِنْ كتبـه ولا أبدى صحيحًا ولا سقيمًـا من صحفه، قال الله تعـالى ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فصل

هذه الوجـوه الأربعة مِن إعجازه بيِّنةٌ لا نزاعَ فيهـا ولا مِرْيَة، ومِن الوجوه البينـة في إعجـازه مِـن غير هـذه الوجـوه أيٌ وردت بتعجيز قـومٍ في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على ذلك كقوله لليهود ﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥].

قال أبو إسحاق الزجاج: في هذه الآية أعظم حجةٍ وأظهر دلالةٍ على صحة الرسالـة، لأنه قال لهم فتمنـوا الموت وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبدًا فلم يتمنه واحدٌ منهم[١٢].

(١٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (١/٧٥).

قال أبو محمدٍ الأصيلي: من أعجب أمرهم أنه لا يوجد منهم جماعةٌ ولا واحـدٌ من يوم أمـر الله بذلك نبيه يقدم عليه ولا يجيـب إليه، وهذا موجودٌ مشاهدٌ لمن أراد أن يمتحنه منهم.

وكذلـك آية المباهلة من هـذا المعنى حيث وفد عليه أساقفـة نجران وأبوا الإسلام فأنزل الله تعالى عليه آية المباهلة بقوله ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [آل عمـران: ٦١]، فامتنعـوا منها ورَضُوا بأداءِ الجزيـة، وذلك أنَّ العاقب عظيمَهم قال لهم: قد علمتم أنه نبيٌّ وأنه ما لاعن قومًا نبيٌّ قطُّ فبقي كبيرهم ولا صغيرهم[١٣]. ومثله قوله ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقـرة: ٢٣-٢٤] ، فأخبرهـم أنهم لا يفعلون كمـا كان، وهذه الآية أدخل في باب الإخبار عن الغيب ولكن فيها من التعجيز ما في التي قبلها.

فصل

ومنها الروعـةُ التي تلحق قلوبَ سامعيه وأسماعَهـم عند سماعه والهيبةُ التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وإنافة خطره، وهى على المكذِّبين به أعظمُ حتى كانـوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورًا كما قال تعالى، ويودُّون انقطاعه لكراهتهم له.

(١٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٥٨٣)، تفسير الطبري (٥/٤٧١).

وأما المؤمن فـلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته تُولِيه انجذابًا وتَكْسِبُه هَشاشةً لِـمَيْلِ قلبه إليه وتصديقه به، قال الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣] وقـال ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

ويدل على أن هذا شيءٌ خُصَّ به أنه يعتري مَنْ لا يفهم معانيَه ولا يعلم تفاسيره، كما رُوِي عـن نصرانيٍّ أنه مرَّ بقارئٍ فوقف يبكي، فقيل: له م بكيت؟ قال: للشجا والنظم.

وهذه الروعة قد اعْتَرَتْ جماعةً قبل الإسلام وبعده، فمنهم مَنْ أسلم لها لأولِ وهلـةٍ وآمن به ومنهم مَنْ كفر. فحكي في الصحيح عن جُبَيْر بن مُطْعِم رضي الله عنه قـال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] إلى قولـه ﴿ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٧] كاد قلبي أن يطير[١٤]. وفي روايةٍ: وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي[١٥].

وعـن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبي ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه، فتلا عليـه ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ

(١٤) صحيح البخاري (٦/١٤٠).

(١٥) صحيح البخاري (٥/٨٦).

لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١-١٣]، فأمسك عتبة بيده على في النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكف. وفي روايةٍ: فجعل النبي ﷺ يقرأ وعتبة مُصْغٍ مُلْقٍ يديه خلف ظهره معتمدٌ عليهما حتى انتهى إلى السجدة، فسجد النبي ﷺ وقام عتبة لا يدري بم يُراجِعُه، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أَتَوْهُ، فاعتذر لهم وقال: والله لقد كلَّمني بكلامٍ، والله ما سمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له[١٦].

وقد حكي عن غير واحدٍ ممن رام معارضته أنه اعترته روعةٌ وهيبةٌ كفَّ بها عن ذلك، فحكي أن ابن المقفَّع طلب ذلك ورامه وشرع فيه، فمرَّ بصبيٍّ يقرأ ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤]، فرجع فمحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يُعارَض، وما هو من كلام البشر، وكان مِنْ أفصحِ أهلِ وقته[١٧].

(١٦) أخرجه الدوري في تاريخ ابن معين (٥٤/٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٠٣/٢)، وإسماعيل الأصفهاني في دلائل النبوة (٢٢١/١)، وأورده الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص١٦١).

(١٧) انظر: تفسير الماوردي المسمى بالنكت والعيون (٣١/١).

وكان يحيى بن حكم الغَزَال بليغ الأندلس في زمنه، فحكي أنه رام شيئًا مِنْ هذا فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها، قال: فاعترتني منه خشيةٌ ورقَّة حملتني على التوبة والإنابة.

فصل

ومن وجوه إعجازه المعدودة كونه آيةً باقيةً لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز الباهرة آياته الظاهرة معجزاته على ما كان عليه لأول نزوله إلى وقتنا هذا، حجته قاهرةٌ ومعارضته ممتنعة، والأعصارُ كلها طافحةٌ بأهل البيان وحملةِ علم اللسان وأئمةِ البلاغة وفرسان الكلام وجهابذة البراعة، والملحدُ فيهم كثيرٌ، والمعادي للشرع عتيدٌ، فما منهم مَن أتى بشيءٍ يُؤْثَرُ في معارضته ولا ألَّف كلمتين في مُناقضته، ولا قدر فيه على مطعنٍ صحيح، ولا قدح المتكلِّف مِنْ ذهنه في ذلك إلا بزندٍ شحيحٍ، بل المأثور عن كلِّ مَنْ رام ذلك إلقاؤه في العجز بيديه والنكوص على عقيبه.

فصل وجوه أخرى للإعجاز

وقد عدَّ جماعـةٌ من الأئمة ومقلِّدي الأمة في إعجازه وجوهًا كثيرةً، منها: أن قارئـه لا يَـمَلُّه وسامعه لا يَـمُجُّه، بل الإكبـابُ على تلاوته يزيده حلاوةً وترديـدُه يُوجِب له محبةً لا يـزال غضًّا طريًّا، وغيرُه مِـن الكلام ولو بلغ في الحسـنِ والبلاغة مبلغَه يُـمَـلُّ مع الترديد ويُعادَى إذا أُعِيـد، وكتابُنا يُسْتلذُّ بـه في الخلـواتِ ويُؤْنَسُ بتلاوته في الأزمـات، وسِواه مِـن الكُتُبِ لا يوجد فيهـا ذلك، حتى أحدث أصحابُها لها لُحُونًـا وطُرُقًا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهـم على قراءتها، أما القرآن فإنـه لا يَخْلَقُ على كثرة الردِّ ولا تنقضي عِبَرُه ولا تفنى عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل لا يَشْبَعُ منه العلماءُ ولا تزيغ بـه الأهـواء، ولا تلتبس به الألسنة، هو الذي لم تنتـه الجن حين سمعته أن قالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢].

ومنهـا: جمعه لعلـوم ومعارِفَ لم تُعْهَد العربُ عامـةً ولا محمدٌ ﷺ قبل نبوتـه خاصةً بمعرفتها ولا القيام بها، ولا يُحيـط بها أحدٌ مِن علماء الأمم، ولا يشتمـل عليها كتابٌ من كتبهـم، فجُمعَ فيه مِن بيان عِلـمِ الشرائع والتنبيهِ علـى طرق الحجـج العقليات والردِّ على فـرق الأمم ببراهينَ قويـةٍ وأدلةٍ بيِّنةٍ سهلـةِ الألفاظ موجـزةِ المقاصد، رام المُتَحَذْلِقُون بعـدُ أن ينصبوا أدلةً مثلها، فلم يقـدروا عليها؛ كقوله تعـالى ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]، وقولـه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وقولـه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] إلى ما حواه مِنْ علوم

السِّيَر وأنبـاءِ الأمم والمواعظ والحِكَم وأخبارِ الـدار الآخرة ومحاسن الآداب والشِّيَـم، قـال الله جـل اسمـه ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦]، وقال: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، فجمـع فيه مع وجازة ألفاظه وجوامع كلمه أضعاف ما في الكتب قبله التي ألفاظها على الضعف منه مراتٍ.

ومنها: جمعه فيه بين الدليل ومدلوله وذلك أنه احتج بنظم القرآن وحسن رصفـه وإيجازه وبلاغته وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه ووعده ووعيده، فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معًا من كلامٍ واحدٍ وسورةٍ منفردةٍ.

ومنها: تيسـيرُه تعالى حفظه لمتعلِّميه وتقريبُه على متحفِّظيه قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمـر: ١٧]، وسائـر الأمم لا يحفـظ كتبهـا الواحد منهم، فكيـف الجمَّاءُ على مرور السنين عليهم والقرآن ميسَّرٌ حفظه للغِلْمانِ في أقرب مدةٍ.

ومنهـا: مشاكلـة بعض أجزائـه بعضًا، وحسـن ائتلاف أنواعهـا والتئام أقسامهـا، وحسن التخلص من قصـةٍ إلى أخرى، والخروج من بابٍ إلى غيره على اختلاف معانيه، وانقسام السورة الواحدة إلى أمرٍ ونهيٍ وخبرٍ واستخبارٍ

ووعدٍ ووعيدٍ وإثبات نبوةٍ وتوحيدٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، إلى غير ذلك من فوائده دون خللٍ يتخلل فصوله.

ومنها: الجملة الكثيرة التي انطوت عليها الكلمات القليلة.

وهـذا كله وكثيرٌ مما ذكرنا أنه ذكـر في إعجاز القرآن إلى وجوهٍ كثيرةٍ ذكرها الأئمة لم نذكرها، والله ولي التوفيق.

فصلٌ انشقاق القمر

قال الله تعـالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢]. أخبر تعالى بوقـوع انشقاقه بلفظ الماضي وإعراض الكفرة عن آياته، وأجمع أهل السنة على وقوعه.

عـن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: انشق القمر علـى عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقةٌ فوق الجبل وفرقةٌ دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا[١٩].

قال عليٌّ رضي الله عنه: انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ[٢٠].

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر مرتين حتى رأوا حراء بينهما[٢١].

(١٩) صحيح البخاري (٦/١٤٢).
(٢٠) أخرجه الطحاوي في شرح المشكل (٢/١٧٧)، وسنده حسن.
(٢١) صحيح البخاري (٦/١٤٠).

فصل في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته ﷺ

أما الأحاديث في هذا فكثيرةٌ جدًا.

عن أنس بن مالـكٍ رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوَضوء فلم يجدوه، فأُتِيَ رسول الله ﷺ بوَضوءٍ فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضؤوا منه. قال: فرأيت الماء ينبَع مِن بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا مِن عند آخرهم(٢٢).

وعـن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ وليس معنا ماءٌ، فقـال لنا رسول الله ﷺ: «اطلبوا من معه فضل ماءٍ»، فأتي بماءٍ فصبه في إناءٍ، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ(٢٣).

وعـن جابـرٍ رضي الله عنه قال: عطش الناسـ يوم الحديبية، ورسـول الله ﷺ بين يديـه ركوةٌ، فتوضأ منهـا، وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليسـ عندنا ماءٌ إلا ما في ركوتك، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثـال العيون. وفيه: فقلت: كم كنتم؟ قال: لو كنـا مائة ألفٍ لكفانا، كنا خمس عشرة مائةً(٢٤).

وفي رواية الوليد بن عبادة بن الصامت عنه رضي الله عنه في حديث مسلمٍ الطويل في ذكـر غزوة بُواطٍ قال: قال لي رسول الله ﷺ: يـا جابر، نادِ الوَضوء، وذكر

(٢٢) صحيح البخاري (١/٤٥)، وصحيح مسلم (٤/١٧٨٣).
(٢٣) صحيح البخاري (١/٤٥)، وصحيح مسلم (٤/١٧٨٣).
(٢٤) صحيح البخاري (٤/١٩٣).

الحديث بطوله، وأنه لم يجد إلا قطرةً في عَزْلاء شَجْبٍ[٢٥]، فأتى به النبي ﷺ، فغمزه وتكلم بشيء لا أدري ما هو وقال: نادِ بجفنة الركب، فأتيت فوضعتها بين يديه، وذكر أن النبي ﷺ بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه، وصبَّ جابرٌ عليه، وقال: بسم الله. قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة، واستدارت حتى امتلأت وأمر الناس بالاستقاء، فاسْتَقَوْا حتى رَوُوا، فقلت: هل بقي أحدٌ له حاجةٌ؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأى[٢٦].

ومثل هذا في هذه المواطن الحفلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدث به؛ لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جبلت عليه النفوس من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطلٍ، فهؤلاء قد رَوَوْا هذا وأشاعوه ونسبوا حضور الجماء الغفير له ولم ينكر أحدٌ من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم له.

ومما يشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته وابتعاثه بمسه ودعوته.

عن معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه في قصة غزوة تبوك وأنهم وردوا العين وهي تَبِضُّ بشيءٍ مِن ماءٍ مثل الشِّراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيءٍ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه وأعاده فيها، فجرت بماءٍ كثيرٍ، فاستقى

(٢٥) عزلاء بفتح العين وإسكان الزاي: فم القربة، والشجب بالإسكان السقاء الذي قد أخلق وبلي وصار شنًا. شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١٤٥).

(٢٦) صحيح مسلم (٤/٢٣٠٧).

الناس. قال في رواية: فانخرق من الماء ما له حسٌّ كحسِّ الصواعقِ ثم قال: يُوشِكُ يا معاذ إن طالتْ بك حياةٌ أن ترى ما ها هنا قد مُلِئَ جِنانًا[٢٧].

وفي حديث البراء وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهما في قصة الحديبية: وهم أربع عشرة مائةً وبئرها لا تروي خمسين شاةً، فنزحناها فلم نترك فيها قطرةً فقعد رسول الله ﷺ على جَباها[٢٨]. قال البراء: وأتي بدلوٍ منها فبصق فدعا. وقال سلمة: فإما دعا وإما بصق فيها فجاشتْ فأرْوَوْا أنفُسَهم ورِكابهم[٢٩].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه وذكر أن الناس شكوا إلى رسول الله ﷺ العطش في بعض أسفاره، فدعا بالمِيضأة فجعلها في ضِبْنِه[٣٠]، ثم التقم فمها، فالله أعلم نفث فيها أم لا، فشرب الناس حتى رَوُوا ومَلَؤُوا كل إناءٍ معهم، فخُيِّل إليَّ أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلا[٣١].

ومن ذلك حديث عمران بن حصينٍ رضي الله عنهما حين أصاب النبي ﷺ وأصحابه عطشٌ في بعض أسفارهم، فوجه رجلين من أصحابه وأعلمهما أنهما يجدان امرأةً بمكان كذا معها بعير عليه مزادتان... الحديث، فوجداها وأتيا بها إلى النبي ﷺ، فجعل في إناءٍ من مزادتيها وقال فيه ما شاء الله أن

(٢٧) الموطأ برواية أبي مصعب الزهري (١/١٤٣)، وهو عند مسلم (٤/١٧٨٤).

(٢٨) بفتح الجيم وتخفيف الباء الموحدة، مقصور: ما حول البئر. شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/١٧٥).

(٢٩) حديث البراء في صحيح البخاري (٥/١٢٢)، وحديث سلمة في صحيح مسلم (٣/١٤٣٣).

(٣٠) قال ابن سيدة: الضبن الإبط وما يليه، وقيل: الضبن ما بين الإبط والكشح، وقيل: ما بين الخاصرة ورأس الورك، وقيل: أعلى الجنب. المحكم (٨/٢١١).

(٣١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/٤١٢)، وهو عند مسلم بسياق آخر، وقد أورد بعضه المؤلف بعد هذا الحديث.

يقــول، ثم أعاد الماء في المزادتين، ثم فتحت عزاليهمــا[٣٢] وأمر الناس فملؤوا أسقيتهــم حتى لم يدعوا شيئًا إلا ملؤوه. قال عمــران: ويخيل إلي أنهما لم تزدادا إلا امتلاءً، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد حتى ملأ ثوبها، وقال النبي ﷺ: فإنا لم نأخذ من مائك شيئًا، ولكن الله سقانا»[٣٣].

وعــن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال نبي الله ﷺ: هل مِن وَضوءٍ؟ فجاء رجــلٌ بإداوةٍ فيها نطفةٌ، فأفرغها في قدحٍ، فتوضأنا كلُّنا نُدَغْفِقُه دَغْفَقَةً[٣٤] أربع عشرة مائةً[٣٥].

وفي حديث عمر رضي الله عنه في جيش العسرة وذكر ما أصابهم من العطش، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، فرغب أبو بكرٍ رضي الله عنه إلى النبي ﷺ في الدعاء، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء[٣٦] فانسكبت، فملؤوا ما معهم من آنيةٍ، ولم تجاوز العسكر[٣٧].

(٣٢) جمع عزلاء، وهي فم القربة، تقدم.

(٣٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣٢/١)، وأصله في صحيح البخاري (٧٦/١)، وصحيح مسلم (٤٧٤/١).

(٣٤) الدغفقة من دغفق الماء دغفقةً، إذا صبه صبًا كثيرًا. الجمهرة لابن دريد (١١٤٨/٢)

(٣٥) صحيح مسلم (١٣٥٤/٣).

(٣٦) قالت السماء: إذا أمطرت مطرًا يسمع صوته. لسان العرب (٢٢٠/٦).

(٣٧) أخرجه البزار (٣٣١/١)، وابن خزيمة في صحيحه (٥٢/١)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٣/٤)، والحاكم في المستدرك (٢٦٣/١)، وغيرهم، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقواه أيضًا في السير (٣٣٩/٢) وتاريخ الإسلام (٦٣٥/٢)، وكذا ابن كثير في البداية والنهاية (٩٣/٦).

فصل

ومن معجزاته ﷺ تكثير الطعام ببركته ودعائه، عن جابرٍ رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي ﷺ يستطعمه فأطعمه شطر وَسْقِ شعيرٍ فما زال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم[٣٨].

ومن ذلك حديث أبي طلحة رضي الله عنه المشهور وإطعامه ﷺ ثمانين أو سبعين رجلًا من أقراص من شعيرٍ جاء بها أنسٌ رضي الله عنه تحت يده - أي إبطه - فأمر بها ففُتَّتْ وقال فيها ما شاء الله أن يقول[٣٩].

وحديث جابرٍ رضي الله عنه في إطعامه ﷺ يوم الخندق ألف رجلٍ من صاع شعيرٍ وعناقٍ، وقال جابرٌ: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا ليخبز، وكان رسول الله ﷺ بصق في العجين والبرمة وبارك[٤٠].

وعن سمرة بن جندبٍ رضي الله عنه قال: أتي النبي ﷺ بقَصْعةٍ فيها لحم فتعاقبوها من غدوةٍ حتى الليل يقوم قومٌ ويقعد آخرون[٤١].

---

(٣٨) صحيح مسلم (١٧٨٤/٤).

(٣٩) صحيح البخاري (١٩٣/٤)، وصحيح مسلم (١٦١٢/٣)، وفيه بعد قوله «ما شاء الله أن يقول»: ثم قال: «ائذن لعشرةٍ» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرةٍ» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرةٍ» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرةٍ» فأكل القوم كلهم وشبعوا.

(٤٠) صحيح البخاري (١٠٨/٥)، وصحيح مسلم (١٦١٠/٣).

(٤١) أخرجه الترمذي (٥٩٣/٥) وصححه، وأحمد (٣٦١/٣٣)، والدارمي في سننه (٢٠١/١)، وابن حبان في صحيحه (٤٦٤/١٤)، والحاكم في المستدرك (٦٧٥/٢)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائةً، وذكر في الحديث أنه عُجِنَ صاعٌ من طعام وصُنِعَتْ شاةٌ، فشُوِيَ سوادُ بطنها[٤٢]. قال: وايم الله ما مِن الثلاثين ومائةٍ إلا وقد حَزَّ له حزّةً مِن سوادِ بطنها ثم جعل منها قصعتين، فأكلنا أجمعون وفضل في القصعتين، فحملته على البعير[٤٣].

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري عن أبيه رضي الله عنه ومثله لسلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن مخمصةً أصابت الناس مع النبي ﷺ في بعض مغازيه، فدعا ببقية الأزواد فجاء الرجل بالحثية من الطعام وفوق ذلك، وأعلاهم الذي أتى بالصاع من التمر، فجمعه على نطع، - قال سلمة: فحزرته كرَبْضَة العنز -، ثم دعا الناس بأوعيتهم، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملؤوه، وبقي منه قدر ما جعل وأكثر[٤٤].

ومن ذلك حديث جابر في دين أبيه رضي الله عنهما بعد موته وقد كان بذل لغرماء أبيه أصل ماله فلم يقبلوه، ولم يكن في ثمرها سنتين كفافُ دَيْنِهم، فجاء النبي ﷺ بعد أن أمره بجذِّها وجعلها بيادر في أصولها فمشى فيها ودعا، فأوفى منه جابرٌ غرماء أبيه وفضل مثل ما كانوا يجُدُّون[٤٥] كل سنةٍ، وفي رواية مثل ما أعطاهم.

---

(٤٢) سواد البطن هو الكبد. غريب الحديث لابن قتيبة (٣٤٣/١).

(٤٣) صحيح البخاري (٦٩/٧)، وصحيح مسلم (١٦٢٦/٣).

(٤٤) حديث سلمة في صحيح مسلم (١٣٥٤/٣)، وحديث عبد الرحمن بن أبي عمرة أخرجه أحمد (١٨٥/٢٤) وسنده جيد.

(٤٥) من الجداد، وهو صرام النخل وقطع ثمرها. انظر: النهاية في غريب الحديث (٢٤٤/١).

قال: وكان الغرماءُ يهودَ فعجبوا من ذلك[٤٦].

ومنه أيضًا حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين أصابه الجوع فاستتبعه النبي ﷺ فوجد لبنًا في قدحٍ قد أهدي إليه وأمره أن يدعو أهل الصفة، قال: فقلت: ما هذا اللبن فيهم؟ كنت أحق أن أصيب منه شربةً أتقوى بها، فدعوتهم وذكر أمر النبي ﷺ له أن يسقيهم، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يأخذه الآخر حتى روي جميعهم. قال: فأخذ النبي ﷺ القدح وقال: بقيت أنا وأنت، اقعد فاشرب، فشربت ثم قال: اشرب، وما زال يقولها وأشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا، فأخذ القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة[٤٧].

وفي حديث أنسٍ رضي الله عنه قال: تزوج رسول الله ﷺ فصنعت أمي أم سليم حيسًا فجعلته في تورٍ، فذهبت به إلى رسول الله ﷺ فقال: ضعه وادع لي فلانًا وفلانًا ومن لقيت، فدعوتهم ولم أَدَعْ أحدًا لقيتُه إلا دعوته، وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتى ملؤوا الصفة والحجرة، فقال لهم النبي ﷺ: تحلقوا عشرةً عشرةً، ووضع النبي ﷺ يده على الطعام فدعا فيه وقال ما شاء الله أن يقول، فأكلوا حتى شبعوا كلهم، فقال لي: ارفع، فما أدري حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت[٤٨].

---

(٤٦) أخرجه البخاري في صحيحه (١٤/٤) بمعناه. والبيدر الموضع الذي يداس فيه الطعام، قاله الجوهري في الصحاح (٥٨٧/٢)، وقال الثعالبي: «والمربد لأهل الحجاز كالأندر لأهل الشام والبيدر لأهل العراق». فقه اللغة (ص٣٣).

(٤٧) صحيح البخاري (٩٦/٨).

(٤٨) صحيح مسلم (١٠٥١/٢).

فصل في كلام الشجر وشهادتها له ﷺ بالنبوة وإجابتها دعوته

وفي الصحيح في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما الطويل قال: ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فلم ير شيئًا يستتر به، فإذا بشجرتين بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصنٍ من أغصانها فقال: انقادي علي بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش[٤٩] الذي يصانع قائده، وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك حتى إذا كان بالمَنْصَفِ بينهما قال: التئما علي بإذن الله فالتأمتا. وفي رواية أخرى: فقال: يا جابر قل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله ﷺ: الحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما فزحفت حتى لحقت بصاحبتها فجلس خلفها، فخرجت أحضر وجلست أحدث نفسي فالتفت فإذا رسول الله ﷺ مقبلًا والشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدةٍ منهما على ساقٍ فوقف رسول الله ﷺ وقفةً فقال برأسه هكذا يمينًا وشمالا[٥٠].

ومن ذلك حديث أنسٍ رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ ورآه حزينًا: أتحب أن أريك آيةً؟ قال: نعم، فنظر رسول الله ﷺ إلى شجرةٍ من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، قال: مرها فلترجع، فعادت إلى مكانها[٥١].

---

(٤٩) هو البعير الذي يجعل في أنفه خشاش أي: عود إذا كان البعير صعبًا، ليذل وينقاد. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٣/١٨).

(٥٠) صحيح مسلم (٢٣٠٦/٤).

(٥١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٦/٢)، وأحمد (١٦٥/١٩)، والبزار في مسنده (٥٦/١٤)، وابن حبان في صحيحه

وعــن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قــال لأعرابي: أرأيت إن دعــوت هذا العذق من هذه النخلــة أتشهد أني رسول الله؟ قال نعم، فدعاه فجعل ينقز حتى أتاه فقال ارجع فعاد إلى مكانه[٥٢].

فصل في قصة حنين الجذع

قــال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كان المسجد مسقوفًا على جذوع نخــلٍ، فــكان النبي ﷺ إذا خطب يقــوم إلى جذعٍ منها، فلمــا صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار[٥٣].

وفي رواية: حتى ارْتَجَّ المسجد بخواره[٥٤]، وفي أخرى: حتى تصدع وانشق حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت[٥٥].

وفي أخرى: فقال النبي ﷺ: إن هذا بكى لما فقد من الذكر[٥٦].

وفي روايةٍ: «والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة»، تحزنًا على رسول الله ﷺ[٥٧].

(١٤/٤٣٥)، وإسناده على شرط مسلم.

(٥٢) جامع الترمذي (٥/٥٩٤) وقال: حسن صحيح، والبخاري في تاريخه الكبير (٣/٣)، والطبراني في الكبير (١٢/١١٠)، والحاكم في المستدرك (٢/٦٧٦) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي

(٥٣) صحيح البخاري (٤/١٩٥).

(٥٤) صحيح ابن خزيمة (٣/١٤٠)، وشرح مشكل الآثار (١٠/٣٧٨)، وهو صحيح.

(٥٥) سنن الدارمي (١/١٨٠)، وإسناده حسن.

(٥٦) مسند أحمد (٢٢/١١٧)، وصحيح ابن خزيمة (٣/١٤٠)، وهو صحيح.

(٥٧) سنن الدارمي (١/١٨٤)، وشرح مشكل الآثار (١٠/٣٧٨)، وإسناده صحيح.

وفي روايــة عــن أُبَيٍّ رضي الله عنه قال: فكان إذا صلى النبــي ﷺ صلى إليه، فلما هدم المسجد أخذه أُبَيٌّ، فكان عنده إلى أن أكلته الأرض وعاد رفاتًا[٥٨].

فــكان الحســن إذا حدث بهذا بكى وقــال: يا عبــاد الله الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه لمكانه فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه[٥٩].

فصل فيما جاء في الطعام والشجر والحجر

عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: قال لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[٦٠].

وفي غير هذه الرواية عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه[٦١].

وقال عليٌّ رضي الله عنه: كنا بمكة مع رسول الله ﷺ، فخرج إلى بعض نواحيها، فما استقبله شجرةٌ ولا جبلٌ إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله[٦٢].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلِّم عليَّ[٦٣].

---

(٥٨) أخرجه ابن ماجه (٤٥٤/١)، وأحمد (١٧٢/٣٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٧٦/١٠)، وفي إسناده ضعف.

(٥٩) الزهد لابن المبارك (ص٣٦١)، ومسند أبي يعلى (١٤٢/٥)، وصحيح ابن حبان (٤٣٧/١٤).

(٦٠) صحيح البخاري (١٩٤/٤).

(٦١) أخرجه الترمذي (٥٩٧/٥)، وابن أبي شيبة في مسنده (٢٤٧/١) ومصنفه (٣١٦/٦)، وابن خزيمة في صحيحه (١٠٢/١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥/٩)، وهو صحيح.

(٦٢) أخرجه الترمذي (٢٥/٦)، والحاكم في المستدرك (٦٧٧/٢) وصححه، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة [٢٦٧٠].

(٦٣) صحيح مسلم (١٧٨٢/٤).

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: صعد النبي ﷺ وأبو بكرٍ وعمر وعثمان أحدًا فرجف بهم، فقال: اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديقٌ وشهيدان[٦٤].

فصل في الآيات في ضروب الحيوانات

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندنا داجنٌ[٦٥]، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قر وثبت مكانه فلم يجئ ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب[٦٦].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما - في قصة شكوى جمل - قال: وكان لا يدخل أحدٌ الحائط إلا شد عليه الجمل، فلما دخل عليه النبي ﷺ دعاه، فوضع مِشْفَرَه على الأرض وبرك بين يديه، فخطمه، وقال: ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس[٦٧].

وفي خبرٍ آخر في حديث الجمل أن النبي ﷺ سألهم عن شأنه، فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه. وفي رواية: أن النبي ﷺ قال لهم: إنه شكا كثرة العمل وقلة العلف[٦٨].

---

(٦٤) صحيح البخاري (٥/٩).

(٦٥) هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم ولا يبعث بها إلى المرعى. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (١/٥٥٤).

(٦٦) أخرجه أحمد (٤١/٣٢٠)، والبزار في مسنده (١٨/٢٣٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/١٩٥)، وغيرهم، وهو صحيح.

(٦٧) أخرجه أحمد (٢٢/٢٣٦)، والدارمي في سننه (١/١٦٩)، وعبد بن حميد في مسنده (ص٣٣٧)، ومن طريقه ابن حبان في الثقات (٤/٢٢٣)، وأورده الألباني في الصحيحة [١٧١٨].

(٦٨) أخرجه أحمد (٢٩/١٠٦) وغيره، وفي إسناده ضعف، لكن أخرج أبو داود (٣/٢٣) وأحمد (٣/٢٧٤) وغيرهما من حديث عبد الله بن جعفر بسند صحيح على شرط مسلم - وأصله في صحيحه (صحيح مسلم ١/٢٦٨) دون

وعن عبد الله بن قُرْطٍ ﷺ قال: قرب إلى النبي ﷺ بدناتٌ خمسٌ أو ستٌّ أو سبعٌ لينحرها يوم عيد، فازدلفن إليه بأيهن يبدأ[٦٩].

ومن هذا الباب ما روي من تسخير الأسد لسفينة ﷺ مولى رسول الله ﷺ إذ وجهه إلى معاذٍ باليمن، فلقي الأسد فعرفه أنه مولى رسول الله ﷺ ومعه كتابه، فهمهم وتنحى عن الطريق، وذكر في منصرفه مثل ذلك[٧٠]. وفي روايةٍ أخرى عنه: أن سفينةً تكسرت به فخرج إلى جزيرةٍ، فإذا الأسد فقلت: أنا مولى رسول الله ﷺ فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق[٧١].

فصل في إبراء المرضى وذوي العاهات

أصيب يوم أحدٍ عين قتادة بن النعمان ﷺ حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن عينيه[٧٢].

وتفل في عيني عليٍّ ﷺ يوم خيبر وكان رَمِدًا فأصبح بارئًا[٧٣]. ونفث على ضربةٍ بساق سلمة بن الأكوع ﷺ يوم خيبر فبرئت[٧٤]. واشتكى علي بن

قصة الجمل.

(٦٩) أخرجه أبو داود (١٤٨/٢)، وأحمد (٤٢٧/٣١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٦٧/٤)، والطحاوي في شرح المشكل (٣٥٩/٣)، وشرح المعاني (٥٠/٣)، وإسناده صحيح.

(٧٠) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦٧٥/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية (٣٦٩/١)، والبيهقي في الاعتقاد (ص٣١٦).

(٧١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٨١/١١)، والبزار (٢٨٥/٩)، والروياني في مسنده (٤٣٦/١)، وغيرهم.

(٧٢) أخرجه ابن إسحاق (ص٣٢٩)، ومن طريقه ابن هشام في السيرة (٨٢/٢) وابن أبي شيبة في المصنف (٤٠٠/٦).

(٧٣) صحيح البخاري (١٣٤/٥)، وصحيح مسلم (١٨٧٢/٤).

(٧٤) صحيح البخاري (١٣٣/٥).

أبـي طالبٍ رضي الله عنه فجعـل يدعو، فقال النبي ﷺ: اللهم اشفـه - أو عافه - ثم ضربه برجله، فما اشتكى ذلك الوجع بعد(٧٥).

فصل في إجابة دعائه ﷺ

وهذا بـاب واسع جدًا، وإجابة دعوة النبي ﷺ لجماعةٍ بما دعا لهم وعليهم متواترٌ على الجملة معلومٌ ضرورةً.

عـن أنسٍ رضي الله عنه قال: قالت أمي: يا رسـول الله، خادمك أنسٌ ادع الله له، قال: اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته(٧٦).

ومـن رواية عكرمة قال أنـس رضي الله عنه: فو الله إن مالي لكثيرٌ، وإن ولدي وولد ولدي لَيَتَعادُّون اليوم على نحو المائة(٧٧).

ومنـه دعاؤه لعبد الرحمن بن عـوفٍ رضي الله عنه بالبركة، قال عبد الرحمن: فلو رفعت حجرًا لرجوت أن أصيب تحته ذهبًا(٧٨).

ودعـا لسعـد بـن أبي وقاصٍ رضي الله عنه أن يجيـب الله دعوته، فـكان مجاب الدعوة(٧٩).

---

(٧٥) أخرجه الترمذي (٥٦٠/٤)، والطيالسي (١٢٢/١)، وأحمد (٢٠٥/٢)، والبزار (٢٨٧/٢) في مسانيدهم، وابن حبان في صحيحه (٣٨٨/١٥)، وهو حديث حسن.

(٧٦) صحيح البخاري (٧٣/٨)، وصحيح مسلم (١٩٢٨/٤).

(٧٧) صحيح مسلم (١٩٢٩/٤).

(٧٨) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٢٦/٣)، وأحمد (٣٤٦/٢١)، وعبد بن حميد (ص٣٩٥)، وإسناده صحيح.

(٧٩) أخرج الترمذي (٦٤٩/٥)، والبزار في مسنده (٥٤/٤)، وابن حبان في صحيحه (٤٥٠/١٥)، والحاكم في المستدرك (٥٧٠/٣)، وصححه عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال لسعد: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك»، وفي بعض طرقه: «اللهم سدد رميته وأجب دعوته»، وصححه الألباني في تخريجه للمشكاة [٦١١٦]، وفي تعليقاته الحسان على

ودعا لعز الإسلام بعمر رضي الله عنه أو بأبي جهل، فاستجيب له في عمر[٨٠].

وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر[٨١].

وأصاب الناس في بعض مغازيه عطشٌ، فسأله أبو بكر رضي الله عنه الدعاء فدعا، فجاءت سحابةٌ، فسقتهم حاجتهم ثم أقلعت[٨٢].

ودعا في الاستسقاء فسُقُوا، ثم شَكَوْا إليه المطر فدعا فصَحَوْا[٨٣].

وقال للنابغة رضي الله عنه: لا يَفْضُضِ الله فاك، فما سقطت له سنٌّ، وفي رواية: فكان أحسنَ الناس ثغرًا، إذا سقطتْ له سنٌّ نبتت له أخرى، وعاش عشرين ومائةً، وقيل أكثر من هذا[٨٤].

ودعا لابن عباسٍ رضي الله عنهما فقال: اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل[٨٥]، فسُمِّيَ بعدُ الحبرَ وترجمانَ القرآن.

صحيح ابن حبان (١٠/١٠٧).

(٨٠) حديث صحيح، روي من حديث ابن عمر كما في جامع الترمذي (٥/٦١٧)، ومسند عبد بن حميد (ص٢٤٥)، وصحيح ابن حبان (١٥/٣٠٥)، ومن حديث خباب كما في مسند البزار (٦/٥٧)، وغيرهما من الصحابة، وأورد الحافظ ابن حجر للحديث عدة طرق أخرى في الفتح (٧/٤٨) وقواه بها.

(٨١) صحيح البخاري (٥/٢٢).

(٨٢) أخرجه البزار في مسنده (١/٣٣١)، وابن خزيمة في صحيحه (١/٥٢)، وابن حبان في صحيحه (٤/٢٢٣)، والحاكم في المستدرك (١/٢٦٣)، وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال في السير (٢/١٦٢): «حديث حسن قوي».

(٨٣) صحيح البخاري (٢/١٢)، وصحيح مسلم (٢/٦١٢) نحوه.

(٨٤) انظر: الإصابة للحافظ ابن حجر (٦/٢٠٩-٢١٢)، فقد أطال في ذكر طرق هذه القصة.

(٨٥) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (٤/٢٣٠)، وأحمد (٤/٢٢٥)، وفي فضائل الصحابة (٢/٩٥٥)، وابن حبان في صحيحه (١٥/٥٢١)، وغيرهم، وإسناده على شرط مسلم، وهو في صحيح البخاري (١/٤١) دون لفظ «وعلمه التأويل».

ودعا لعبد الله بن جعفرٍ رضي الله عنهما بالبركة في صفقة يمينه فما اشترى شيئًا إلا رَبِح فيه[٨٦].

ودعا بمثله لعروة بن أبي الجعد رضي الله عنه، فقال: فلقد كنت أقوم بالكناسة، فما أرجع حتى أربح أربعين ألفًا، وقال البخاري في حديثه: فكان لو اشترى التراب ربح فيه[٨٧].

ودعا لأم أبي هريرة رضي الله عنهما فأسلمت[٨٨].

ودعا لعلي رضي الله عنه أن يكفى الحر والقر، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف وفي الصيف ثياب الشتاء ولا يصيبه حَرٌّ ولا بردٌ[٨٩].

ودعا على مُضَرَ فأَقْحَطُوا حتى استعطفته قريشٌ فدعا لهم فسُقُوا[٩٠].

ودعا على كسرى حين مزَّق كتابه أن يمزِّق الله ملكه[٩١]، فلم تبق له باقيةٌ ولا بقيت لفارس رياسةٌ في أقطار الدنيا.

---

(٨٦) أخرجه الطيالسي في مسنده (٢/٢٨٧)، وابن سعد في الطبقات (٤/٢٧)، وأحمد (٣/٢٧٩)، والنسائي في الكبرى (٧/٣١٥)، والطحاوي في شرح المشكل (٧/٣١٥)، وغيرهم، وإسناده صحيح.

(٨٧) صحيح البخاري (٤/٢٠٧).

(٨٨) صحيح مسلم (٤/١٩٣٨).

(٨٩) أخرجه ابن ماجه (١/٤٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/٣٦٧)، وأحمد (٢/٣٤٢)، وفي فضائل الصحابة (٢/٥٦٤)، والبزار في مسنده (٢/١٣٥)، والنسائي في خصائص علي (ص٣٩)، والطبراني في الأوسط (٢/٣٨٠)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/١٢٢)، وكذا الألباني في صحيح سنن ابن ماجه [١١٧].

(٩٠) صحيح مسلم (٤/٢١٥٦).

(٩١) صحيح البخاري (١/٢٣).

وقال لرجلٍ رآه يأكل بشماله: كل بيمينك، فقال: لا أستطيع، فقال: لا استطعت فلم يرفعها إلى فيه[٩٢].

وقال لعتبة بن أبي لهب: اللهم سلِّط عليه كلبًا من كلابك، فأكله الأسد[٩٣].

وحديثه المشهور من رواية عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه في دعائه على قريشٍ حين وضعوا السَّلا على رقبته - وهو ساجدٌ - مع الفَرْثِ والدَّمِ، وسماهم، وقال: فلقد رأيتُهم قُتِلُوا يومَ بدرٍ[٩٤].

فصل في كرامته ﷺ وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن أهل المدينة فزعوا مرةً، فركب رسول الله ﷺ فرسًا لأبي طلحة كان يَقْطِف - أو به قِطافٌ[٩٥] -، وقال غيره: يُبَطَّأُ، فلما رجع قال: وجدنا فرسك بحرًا، فكان بعدُ لا يُجارى[٩٦].

ونخس جمل جابرٍ رضي الله عنه وكان قد أعيا، فنشط حتى كان ما يملك زمامه[٩٧].

وفي الصحيح عن أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله عنهما أنها أخرجت جبة

(٩٢) صحيح مسلم (١٥٩٩/٣).

(٩٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (كما في بغية الباحث (٥٦٢/٢))، ومن طريقه أبو نعيم في معجم الصحابة (٢٤٨٨/٥)، والحاكم في المستدرك (٥٨٨/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى (٣٤٦/٥)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٩/٤).

(٩٤) صحيح البخاري (١١٠/١)، وصحيح مسلم (١٤١٩/٣).

(٩٥) القطاف السير البطيء. غريب الحديث لابن قتيبة (٤٣٦/١).

(٩٦) صحيح البخاري (٢٢/٤)، وصحيح مسلم (١٨٠٢/٤).

(٩٧) صحيح البخاري (١٨٩/٣)، وصحيح مسلم (١٢٢١/٣).

طيالسةٍ وقالت: كان رسول الله ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها[٩٨].

وكان لأم مالـكٍ رضي الله عنهـا عُكَّةٌ تُهدي فيها للنبي ﷺ سمنًا، فأمرها النبـي ﷺ أن لا تَعْصِرَهـا ثم دفعها إليها، فإذا هي مملـوءةٌ سمنًا فيأتيها بنوها يسألونهـا الأَدْمَ وليس عندهم شيء، فتعمد إليهـا فتجد فيها سمنًا، فكانت تقسم أَدْمَها حتى عصرتها[٩٩].

ومن ذلك بركة يده فيما لمسه وغرسه لسلمان رضي الله عنه حين كاتبه مواليه على ثلثمائـة وَدِيَّةٍ[١٠٠] يغرسها لهم، كُلُّها تَعْلَقُ وتُطْعِمُ[١٠١]، وعلى أربعين أوقيةً من ذهـبٍ، فقـام ﷺ وغرسها له بيده إلا واحدةً غرسها غـيره، فأخذتْ كلُّها إلا تلك الواحدة، فقلعها النبي ﷺ وردَّها فأخذت[١٠٢].

وفي روايـة: فأطعـم النخل من عامـه إلا الواحدة، فقلعهـا رسول الله ﷺ وغرسها، فأطعمت من عامها[١٠٣].

وأعطـى قتادة بن النعمان رضي الله عنه – وصلى معه العشاء في ليلةٍ مظلمةٍ مطيرةٍ – عرجونًـا، وقـال: انطلق به، فإنـه سيضيء لك من بين يديـك عشرًا ومن

(٩٨) صحيح مسلم (٣/١٦٤١).

(٩٩) صحيح مسلم (٤/١٧٨٤).

(١٠٠) هي الفسيل. انظر: الجمهرة (٢/٦٨٩).

(١٠١) أي: أدرك ثمرها. القاموس المحيط (ص١١٣٣).

(١٠٢) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/٢٠١-٢٠٣)، وابن سعد في الطبقات (٤/٥٦-٥٩)، وأحمد (٣٩/١٤٧) مختصراً، والطحاوي في مشكل الآثار (١١/١٦٣)، وغيرهم، وإسناده حسن.

(١٠٣) مسند البزار (١٠/٢٩٣).

خلفك عشـرًا، فإذا دخلت بيتـك فسترى سوادًا فاضربه حتـى يخرج فإنه الشيطـان، فانطلق فأضاء له العرجون حتـى دخل بيته ووجد السواد فضربه حتى خرج[١٠٤].

ومنـه بركتـه في درور الشيـاه الحوائـل[١٠٥] باللبن الكثير كقصـة شاة أم معبـدٍ[١٠٦]. وغنم حليمة رضي الله عنها مرضعته وشارفها[١٠٧]. وشاة عبد الله بن مسعود ﷺ وكانت لم يَنْزُ عليها فحلٌ[١٠٨]. وشاة المقداد[١٠٩].

وكان يوجـد لعتبة بن فرقـدٍ ﷺ طيبٌ يغلب طيب نسائه؛ لأن رسول الله ﷺ مسح بيده على بطنه وظهره[١١٠].

---

(١٠٤) أخرجه أحمد (١٨/١٦٩)، والبزار (كما في كشف الأستار ٣/٢٦١)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/٨١)، وإسناده لا بأس به.

(١٠٥) قال الأزهري: «وحالت الناقة... وغيرها إذا لم تحمل، وناقة حائل ونوق حوائل». تهذيب اللغة (٥/١٥٧).

(١٠٦) القصة أخرجها ابن سعد في الطبقات (١/٢٣٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦/٢٥٢)، وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٢/٨٢٩-٨٣٢)، والطبراني في الكبير (٤/٤٨، ٧/١٠٥)، والحاكم في المستدرك (٣/١٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في تعليقه على فقه السيرة (ص١٦٨).

(١٠٧) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/١٦٢)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/٩٣)، وابن حبان في صحيحه (١٤/٣٤٤)، والطبراني في الكبير (٢٤/٢١٢)، وأبو نعيم في الدلائل (١/١٥٥) وغيرهم. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٢٢١): «رواه أبو يعلى والطبراني.. ورجالهما ثقات».

(١٠٨) أخرج القصة الطيالسي (١/٢٧٦)، وابن أبي شيبة (١/٢١٥، ٢٥٨)، وأحمد (٦/٨٢، ٧/٤١٦) كلهم في مسانيدهم، والطحاوي في مشكل الآثار (١١/٢٧٨)، وابن حبان في صحيحه (١٤/٤٣٢)، وغيرهم، وهو صحيح بمجموع طرقه.

(١٠٩) القصة في صحيح مسلم (٣/١٦٢٥).

(١١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا في الآحاد والمثاني (٣/٧٢)، وأسلم الواسطي في تاريخ واسط (ص١٠٠)، والطبراني في الكبير (١٧/١٣٣)، ورجاله ثقات.

ووضع يده على رأس حنظلة بن حِذْيَمٍ وبرَّك عليه فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه والشاة قد ورم ضرعها، فيوضع على موضع كف النبي ﷺ فيذهب الورم[١١١].

ومَجَّ في دلوٍ من بئرٍ ثم صبَّ فيها، ففاح منها ريح المسك[١١٢].

وأخذ قبضةً من ترابٍ يوم حُنَيْنٍ ورمى بها في وجوه الكفار وقال: شاهَتِ الوجوهُ، فانصرفوا يمسحون القذى عن أعينهم[١١٣].

وشكا إليه أبو هريرة رضي الله عنه النسيان، فأمره ببسط ثوبه وغرف بيده فيه ثم أمره بضمِّه ففعل، فما نسي شيئًا بعد[١١٤].

وضرب صدر جرير بن عبد الله رضي الله عنه ودعا له، وكان ذكر له أنه لا يثبت على الخيل، فصار من أفرس العرب وأثبتهم[١١٥]. وما يروى في هذا كثيرٌ.

فصل

ومن ذلك ما أُطْلِعَ عليه من الغيوب وما يكون، والأحاديث في هذا الباب بحرٌ لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة

(١١١) أخرجه أحمد (٣٤/٢٦٣) في قصة، وأبو يعلى في مفاريده (ص١٠٩)، والطبراني في الكبير (٤/١٣)، والأوسط (٣/١٩١)، والبيهقي في الدلائل (٦/٢١٤)، وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة [٢٩٥٥].

(١١٢) أخرجه أحمد (٣١/١٣٤)، وابن قانع في معجم الصحابة (٣/١٨٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/٥١)، والبيهقي في الدلائل (١/٢٥٧)، وإسناده قابل للتحسين.

(١١٣) صحيح مسلم (٣/١٤٠٢).

(١١٤) صحيح البخاري (١/٣٥، ٤/٢٠٨).

(١١٥) صحيح البخاري (٤/٦٥)، وصحيح مسلم (٤/١٩٢٥).

على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الإطلاع على الغيب.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه(١١٦).

وقال أبو ذرٍ رضي الله عنه: لقد تركنا رسول الله ﷺ، وما يحرك طائرٌ جناحيه في السماء إلا ذَكَّرَنا منه علمًا(١١٧).

وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم ﷺ به أصحابه مما وعدهم به؛ من الظهور على أعدائه، وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحِيرَةِ إلى مَكَّةَ لا تخاف إلا الله(١١٨). وأن المدينة ستغزى، وتفتح خيبر على يدي عليٍّ رضي الله عنه في غد يومه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا ويؤتون من زهرتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر، وما يحدث بينهم من الفتون والاختلاف والأهواء، وسلوك سبيل من قبلهم، وافتراقهم على ثلاثٍ وسبعين فرقةً الناجية منها فرقةٌ واحدةٌ(١١٩).

---

(١١٦) صحيح مسلم (٤/٢٢١٧).

(١١٧) أخرجه أحمد (٣٥/٢٩٠)، والبزار في مسند (٩/٣٤١)، والطبراني في الكبير (٢/١٥٥)، وأبو طاهر المخلص كما في المخلصيات (٣/٣١)، وأورده الألباني في الصحيحة [١٨٠٣].

(١١٨) صحيح البخاري (٤/١٩٧).

(١١٩) أخرجه ابن ماجه (٢/١٣٢٢)، وأحمد (١٩/٢٤١)، وابن أبي عاصم في السنة (١/٧، ٣٢)، وغيرهم، وهي حديث صحيح.

وقتالهم الترك[١٢٠] والروم. وذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده، وذهاب قيصر حتى لا قيصر بعده[١٢١].

وقال: «ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب»[١٢٢]. وأنه زويت له الأرض فأري مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمته ما زوي له منها[١٢٣].

ولذلك امتدت في المشارق والمغارب ما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة، حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملكه أمةٌ من الأمم، ولم تمتد في الجنوب ولا في الشمال مثل ذلك.

وقوله «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»[١٢٤]. ذهب ابن المديني إلى أنهم العرب؛ لأنهم المختصون بالسقي بالغرب وهي الدلو، وغيره يذهب إلى أنهم أهل المغرب، وقد ورد المغرب كذا في الحديث بمعناه[١٢٥].

وقال في حنظلة الغسيل رضي الله عنه: «سلوا زوجته عنه، فإني رأيت الملائكة تغسله»، فسألوها فقالت: إنه خرج جنبًا وأعجله الحال عن الغسل، قال أبو سعيدٍ رضي الله عنه: ووجدنا رأسه يقطر ماءً[١٢٦].

(١٢٠) قتال الترك جاء في صحيح البخاري (٤/٤٣)، وصحيح مسلم (٤/٢٢٣٣).

(١٢١) أخرجه الترمذي (٤/٤٩٧)، والطيالسي (٤/٣٠٦)، والشافعي (٢/١٨٦ بترتيب السندي)، والحميدي (٢/٢٥٨)، وإسحاق بن راهويه (١/٣٩٣)، وأحمد (١٢/١٠٨)، كلهم في مسانيدهم، وهو حديث صحيح.

(١٢٢) صحيح البخاري (٤/١٣٨)، وصحيح مسلم (٤/٢٢٠٨).

(١٢٣) صحيح مسلم (٤/٢٢١٥).

(١٢٤) صحيح مسلم (٣/١٥٢٥).

(١٢٥) ينظر: فتح الباري (١٣/٢٩٥).

(١٢٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥/٤٩٦)، والطبراني في الكبير (١١/٣٩١)، والحاكم في المستدرك (٣/٢٢٥)،

وقال: «الخلافة في قريشٍ، ولن يزال هذا الأمر في قريشٍ ما أقاموا الدين»[١٢٧].

وقال: «يكون في ثقيفٍ كذابٌ ومبيرٌ»، فرأوهما الحجاج والمختار[١٢٨]. وأن مسيلمة يعقره الله[١٢٩]. وأن فاطمة أول أهله لحوقًا به[١٣٠]. وأنذر بالردة[١٣١]. وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنةً ثم تكون ملكًا[١٣٢]. فكانت كذلك بمدة الحسن بن علي رضي الله عنهما.

وأخبر بشأن أُوَيْسٍ القَرَنيِّ[١٣٣]. وبأمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها[١٣٤]. وسيكون في أمته ثلاثون كذابًا فيهم أربع نسوةٍ[١٣٥].

وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة [٣٢٦].

(١٢٧) هو في الصحيحين بمعناه (صحيح البخاري (١٧٩/٤)، صحيح مسلم (١٤٥١/٣).

(١٢٨) صحيح مسلم (١٩٧١/٤).

(١٢٩) صحيح البخاري (٢٠٣/٤)، وصحيح مسلم (١٧٨٠/٤).

(١٣٠) صحيح البخاري (٢٠٣/٤)، وصحيح مسلم (١٩٠٥/٤).

(١٣١) مثل قوله في الصحيحين (صحيح البخاري ٥٨/٩، صحيح مسلم ٢٢٣٠/٤): «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوسٍ، حول ذي الخلصة» وكانت صنمًا تعبدها دوسٌ في الجاهلية بتبالة». وينظر: شرح الشفا (٦٩١/١).

(١٣٢) أخرجه الترمذي (٥٠٣/٤)، وعلي بن الجعد في مسنده (ص٤٧٩)، وأحمد (٢٥٦/٣٦) وفي فضائل الصحابة (ص٤٨٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٢٩/١)، والنسائي في الكبرى (٣١٣/٧)، وابن حبان في صحيحه (٣٩٢/١٥)، وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة [٤٥٩].

(١٣٣) صحيح مسلم (١٩٦٨/٤).

(١٣٤) صحيح مسلم (٤٤٨/١، ٤٤٩).

(١٣٥) صحيح البخاري (٢٠٠/٤)، وصحيح مسلم (٢٢٣٩/٤) دون قوله: «فيهم أربع نسوة»، من غير جزمٍ بأنهم ثلاثون، ولفظهما: «... قريب من ثلاثين»، ويؤيد ذلك ما أخرجه أحمد (٣٨٠/٣٨) وغيره بإسناد صحيحٍ من حديث حذيفة مرفوعًا: «في أمتي كذابون ودجالون سبعة وعشرون: منهم أربع نسوة، وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي».

وقال: لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجلٌ من قحطان[١٣٦].

وقال: خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذى يلونهم، ثم يأتي بعد ذلك قومٌ يَشْهَدون ولا يُسْتَشْهَدون، ويخونون ولا يُؤْتَمَنُون ويَنْذُرُون ولا يُوفُونَ، ويَظْهَرُ فيهم السِّمَنُ[١٣٧].

وقال: «هلاك أمتي على يدي أغيلمةٍ من قريشٍ»، وقال أبو هريرة راويه رضي الله عنه: لو شئت سميتهم لكم: بنو فلانٍ وبنو فلان[١٣٨].

وأخبر بقِلَّة الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام[١٣٩] فلم يزل أمرهم يتبدَّد حتى لم يَبْقَ لهم جماعةٌ، وأنهم سَيَلْقَوْنَ بعده أَثَرَةً[١٤٠].

وأخبر بشأن الخوارج وصفتهم والمُخَدَّج الذي فيهم[١٤١]. وأن سيماهم التحليق[١٤٢].

ويُرَى رِعاءُ الغَنَمِ رُؤُوسَ النَّاسِ، والعُراة الحُفاة يَتبارَوْنَ في البنيان، وأن تَلِدَ الأمةُ رَبَّتَها[١٤٣].

وأن قريشًا والأحزاب لا يغزونه أبدًا، وأنه هو يغزوهم[١٤٤].

---

(١٣٦) صحيح البخاري (٤/١٨٣)، وصحيح مسلم (٤/٢٢٣٢).

(١٣٧) صحيح البخاري (٤/١٧١)، وصحيح مسلم (٤/١٩٦٤).

(١٣٨) صحيح البخاري (٤/١٩٩، ٩/٤٧).

(١٣٩) صحيح البخاري (٥/٣٥).

(١٤٠) صحيح البخاري (٤/٩٨)، وصحيح مسلم (٢/٧٣٨).

(١٤١) صحيح مسلم (٢/٧٤٧).

(١٤٢) صحيح البخاري (٩/١٦٢).

(١٤٣) صحيح البخاري (٦/١١٥)، وصحيح مسلم (١/٣٦).

(١٤٤) صحيح البخاري (٥/١١٠).

وأخبر بالمَوَتانِ الذي يكون بعد فتح بيت المقدس[١٤٥]. وما وعد مِنْ سُكْنى البصرة[١٤٦]، وأنهم يغزون في البحر كالملوك على الأَسِرَّة[١٤٧]، وأن الدِّينَ لو كان منوطًا بالثريا لناله رجالٌ مِنْ أبناءِ فارس[١٤٨].

وهاجت ريحٌ في غزاته، فقال: هاجت لموت منافقٍ، فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك[١٤٩].

وأعلم بالذي غل خرزًا من خرز يهود، فوجدت في رحله[١٥٠]، وبالذي غل الشملة وحيث هي[١٥١]، وبشأن كتاب حاطبٍ إلى أهل مكة[١٥٢].

وأخبر بالمال الذي تركه عمه العباس رضي الله عنه عند أم الفضل رضي الله عنها بعد أن كتمه، فقال: ما علمه غيرى وغيرها فأسلم[١٥٣].

---

(١٤٥) صحيح البخاري (١٠١/٤).

(١٤٦) يشير إلى ما أخرجه أبو داود (١١٣/٤) وغيره من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أنس، إن الناس يمصرون أمصارًا، وإن مصرًا منها يقال له: البصرة - أو البصيرة - فإن أنت مررت بها، أو دخلتها، فإياك وسباخها، وكلاءها، وسوقها، وباب أمرائها، وعليك بضواحيها، فإنه يكون بها خسفٌ وقذفٌ ورجفٌ، وقومٌ يبيتون يصبحون قردةً وخنازير». وقوى إسناده العلائي في النقد الصحيح (ص٤٨)، وأورده الألباني في صحيح الجامع (١٢٩٧/٢).

(١٤٧) صحيح مسلم (١٥١٩/٣).

(١٤٨) صحيح البخاري (١٥١/٦)، وصحيح مسلم (١٩٧٢/٤).

(١٤٩) صحيح مسلم (٢١٤٥/٤).

(١٥٠) أخرجه أبو داود (٦٨/٣)، والنسائي (٦٤/٤)، وابن ماجه (٩٥٠/٢)، وأحمد (٢٥٧/٢٨)، وابن حبان في صحيحه (١٩١/١١)، والحاكم في المستدرك (١٣٨/٢)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(١٥١) صحيح البخاري (١٣٨/٥)، وصحيح مسلم (١٠٧/١).

(١٥٢) صحيح البخاري (٥٩/٤)، وصحيح مسلم (١٩٤١/٤).

(١٥٣) أخرجه أحمد (٣٣٥/٥)، والحاكم في المستدرك (٣٦٦/٣)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وفي إسناد أحمد رجل لم يسم، وإسناد الحاكم حسن.

وفي عتبــة بن أبي لهبٍ أنه يأكله كلــب الله[١٥٤]، وعن مصارع أهل بدرٍ[١٥٥]، فكان كما قال.

وقال في الحسن رضي الله عنه: «إن ابني هذا سَيِّدٌ وسيُصْلِحُ الله به بين فئتين»[١٥٦]، ولسعدٍ رضي الله عنه: «لعلك تُخَلَّفُ حتى ينتفع بك أقوامٌ ويستضِرَّ بك آخرون»[١٥٧].

وأخبر بقتــل أهل مؤتة يوم قتلوا وبينهم مسيرة شهــرٍ أو أزيد[١٥٨]، وبموت النجاشي رحمه الله يوم مات وهو بأرضه[١٥٩].

وأخــبر فيروز رحمه الله إذ ورد عليه رسولًا من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم فلما حقق فيروز القصة أسلم[١٦٠].

وأخبر أنَّ أسرعَ أزواجه به لحوقًا أطولُهن يدًا، فكانت زينبَ رضي الله عنها لطول يدها بالصدقة[١٦١].

---

(١٥٤) مضى تخريجه في فصل إجابة دعائه، فلتراجعه.

(١٥٥) صحيح مسلم (٣/١٤٠٣).

(١٥٦) صحيح البخاري (٣/١٨٦).

(١٥٧) صحيح البخاري (٢/٨١)، وصحيح مسلم (٣/١٢٥٠).

(١٥٨) صحيح البخاري (٥/٢٧).

(١٥٩) صحيح البخاري (٢/٧٢)، وصحيح مسلم (٢/٢٥٧).

(١٦٠) أخرج أحمد (٣٤/٨٥)، والبزار (٩/١٠٦)، وغيرهما «أن رجلًا من أهل فارس أتى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «إن ربي قتل ربك» يعني كسرى»، وصححه الألباني في الصحيحة [١٤٢٩] بمجموع طرقه، ولم نقف في طرقه أنه فيروز ولا أنه أسلم بعد ذلك.

(١٦١) صحيح البخاري (٢/١١٠)، وصحيح مسلم (٤/١٩٠٧).

وأخبر بقتل الحسين رضي الله عنه بالطَّفِّ[١٦٢]، وأخرج بيده تربةً وقال فيها مضجعه[١٦٣].

وقال في الذين كانوا معه على حراءٍ: اثبت فإنما عليك نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدٌ، فقتل عليٌّ وعمر وعثمان وطلحة والزبير وطعن سعدٌ رضي الله عنهم[١٦٤].

وقال: لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدةٌ[١٦٥].

إلى ما أخبر به جلساءَه مِن أسرارِهم وبواطنهم وأطلع عليه مِن أسرار المنافقين وكفرهم وقولهم فيه وفي المؤمنين.

وإعلامِه بصفة السحر الذي سحره به لَبِيد بن الأعصم وكونه في مِشْطٍ ومُشاطَةٍ في جُفِّ[١٦٦] طَلْعِ نَخْلَة ذكر وأنه ألقي في بئر ذَرْوان[١٦٧]، فكان كما قال، ووُجِد على تلك الصفة.

إلى ما أخبر به مِن الحوادثِ التي تكون ولم تَأْتِ بَعْدُ منها، فظهرت مقدِّماتُها كقوله «عِمْرانُ بَيْتِ المقدسِ خرابُ يَثْرِبَ، وخرابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الملحمةِ، وخروجُ الملحمةِ فتحُ القسطنطينية»[١٦٨].

---

(١٦٢) والطَّفُّ ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق. الجمهرة (١/١٤٩).

(١٦٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/١٠٧) والأوسط (٦/٢٤٩)، وغيرهما، وأورده الألباني في الصحيحة [١١٧١].

(١٦٤) أخرجه أبو داود (٤/٢١١)، والترمذي (٥/٦٥١)، وابن ماجه (١/٤٨)، وأبو داود الطيالسي (١/١٩١)، وأحمد (٣/١٨١)، وفي فضائل الصحابة (ص١١٣)، والنسائي في الكبرى (٧/٣١٣)، وابن حبان (١٥/٤٥٨) في صحيحه والحاكم في المستدرك (٣/٥٠٩)، وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة [٨٧٥].

(١٦٥) صحيح البخاري (٤/٢٠٠)، وصحيح مسلم (٤/٢٢١٤).

(١٦٦) الجُفُّ (وكذا الجب) وعاء طلع النخل وهو الغشاء الذي يكون عليه. شرح النووي على مسلم (١٤/١٧٧).

(١٦٧) صحيح البخاري (٧/١٣٦)، وصحيح مسلم (٤/١٧١٩).

(١٦٨) أخرجه أبو داود (٤/١١٠)، وعلي بن الجعد في مسنده (ص٤٨٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٤٩٠)،

ومن أشراط الساعة وآيات حلولها وذكر النشر والحشر وأخبار الأبرار والفجار والجنة والنار وعرصات القيامة، وبحسب هذا الفصل أن يكون ديوانًا مفردًا يشتمل على أجزاءٍ وحده، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التي ذكرناها كفايةٌ وأكثرها في الصحيح وعند الأئمة.

فصل في عصمة الله تعالى له ﷺ من الناس وكفايته من آذاه

قال الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، وقال ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]، قيل: بكافٍ محمدًا ﷺ أعداءه المشركين، وقيل غير هذا، وقال ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥]، وقال ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُحْرَسُ حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال لهم: يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني ربي عز وجل[١٦٩].

[وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجدٍ، فلما قَفَلَ رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلةُ في وادٍ كثير العِضاهِ،

وأحمد (٣٥٢/٣٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٥٠/١)، والطبراني في الكبير (١٠٨/٢٠)، وفي مسند الشاميين (١٢٢/١)، وغيرهم، وأورده الألباني في صحيح الجامع (٧٥٤/٢).

(١٦٩) أخرجه الترمذي (٢٥١/٥)، وسعيد بن منصور في سننه (كتاب التفسير، تحقيق د. سعد الحميد) (١٥٠٣/٤)، والحاكم في المستدرك (٣٤٢/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ في الفتح (٩٦/٦)، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٤٨٩].

فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سمرةٍ وعلق بها سيفه، ونمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابيٌّ، فقال: «إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائمٌ، فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله، - ثلاثًا - »، ولم يعاقبه وجلس[(١٧٠)].

ومنه حمايته ﷺ عن رؤيتهم في الغار بما هيأ الله له من الآيات ومن العنكبوت الذي نسج عليه، حتى قال أمية بن خلفٍ حين قالوا ندخل الغار: ما أربكم فيه؟ وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمدٌ، ووقفت حمامتان على فم الغار، فقالت قريشٌ: لو كان فيه أحدٌ لما كانت هناك الحمام[(١٧١)].

وقصته مع سراقة بن مالك بن جعشم رضي الله عنه حين الهجرة وقد جعلت قريشٌ فيه وفي أبي بكرٍ رضي الله عنه الجعائل، فأُنْذِرَ به فرَكِبَ فرسَه واتَّبعه، حتى إذا قرُب منه دعا عليه النبيُّ ﷺ فساخَتْ قَوائِمُ فرسِهِ فخرَّ عنها، واستقسم بالأزلام فخرج له ما يكره، ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر رضي الله عنه يلتفت، وقال للنبي ﷺ: أُتِينَا، فقال: لا تحزن إن الله معنا، فساختْ ثانيةً إلى ركبتها وخرَّ عنها، فزجرها فنهضت ولقوائمها مثل الدخان، فناداهم

(١٧٠) صحيح البخاري (٤/٣٩-٤٠)، وصحيح مسلم (٤/١٧٨٦). وقد حذفنا ما أورده المؤلف هنا من طرق الحديث المختلفة من خارج الصحيحين، واكتفينا بإيراد النص من الصحيحين بين معقوفين.

(١٧١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/٣٨٤-٣٩٥)، وأحمد (٥/٣٠١)، والطبري في تفسيره (١١/١٣٦)، والطبراني (١١/٤٠٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٣/١٩١)، وغيرهم، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٢٣٩): «هذا إسناد حسن»، وكذا حسنه الحافظ في الفتح (٧/٢٧٨).

بالأمـان، فكتب له النبـي ﷺ أمانًا، كتبه ابن فهيرة رضي الله عنه، وقيل: أبو بكر رضي الله عنه وأخبرهـم بالأخبار، وأمره النبي ﷺ أن لا يترك أحـدًا يلحق بهم، فانصرف يقـول للناس: كُفِيتُمْ ما ههنا. وقيل: بل قال لهما: أراكما دعوتما عليَّ فادْعُوَا لي فنجا ووقع في نفسه ظهورُ النبي ﷺ[١٧٢].

ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق في قصته ﷺ إذ خرج إلى [بني النضير][١٧٣] في أصحابه فجلس إلى جدار بعض آطامهم فانبعث عمرو بن جحاش أحدهم ليطرح عليه رحًى، فقام النبي ﷺ فانصرف إلى المدينة وأعلمهم بقصتهم[١٧٤].

وقد قيل: إن قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائـدة: ١١] في هـذه القصة نزلت، وحكى السمرقندي أنه خرج إلى بني النضير يستعين في عَقْلِ الكِلابِيَّيْنِ اللذَيْنِ قتلهما عمرو بن أميـة، فقال له حُيَيُّ بن أخطب: اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا، فجلسـ النبي ﷺ مع أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما، وتآمر حُيَيٌّ معهم على قتله، فأعلم جبريل عليه السلام النبي ﷺ بذلك، فقام كأنه يريد حاجته حتى دخل المدينة[١٧٥].

(١٧٢) صحيح البخاري (٥/٦٠)، وصحيح مسلم (٣/١٥٩٢) بمعناه.

(١٧٣) في الشفا: «بني قريظة»، والتصويب من سيرة ابن هشام.

(١٧٤) سيرة ابن هشام (٢/١٩٠، ١٩٢) دون إسناد.

(١٧٥) بحر العلوم (٣/٤٢٤).

وذكر أهـل التفسير معنى الحديث عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن أبا جهلٍ وعد قريشًـا: لئـنْ رأى محمدًا يصلي ليَطَأَنَّ رقبته، فلمـا صلى النبي ﷺ أعلموه فأقبـل، فلما قرُب منه ولَّى هاربًـا ناكصًا على عقبيه مُتَّقِيًا بيديه، فسئل فقال: لمـا دنوتُ منه أشرفتُ على خندقٍ مملوءٍ نارًا كـدتُ أهوي فيه وأبصرتُ هَوْلًا عظيمًـا وخَفْـقَ أجنحةٍ قد مـلأتِ الأرضَ فقال ﷺ: تلـك الملائكة لو دنا لاختطفتْـه عضوًا عضـوًا. ثم أنزل على النبـي ﷺ ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ٦-١٩] (١٧٦).

ومـن عصمته تعالى له ﷺ أنَّ كثيرًا من اليهـود والكهنة أنذروا به وعيَّنوه لقريشٍ وأخبروهم بسطوته بهم وحضوهم على قتله، فعصمه الله تعالى حتى بلغ فيه أمره.

ومن ذلك نصره بالرعب أمامه مسيرة شهر كما قال ﷺ (١٧٧).

(١٧٦) صحيح مسلم (٤/٢١٥٤).

(١٧٧) صحيح البخاري (١/٧٤)، وصحيح مسلم (١/٣٧٠).

الباب الخامس في فرض الإيمان به ﷺ ووجوب طاعته واتباع سنته

إذا تقـرّر بما قدّمناه ثبوت نبوّته وصحّة رسالتـه وجب الإيمان به وتصديقه فيما أتى به

قـال الله تعـالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا ﴾ [التغابن: ٨]، وقـال: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الفتح: ٨-٩]، وقـال ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فالإيمان بالنبيّ محمّدٍ ﷺ واجبٌ متعيّنٌ لا يتمّ إيمانٌ إلّا به ولا يصحُّ إسلامٌ إلّا معه، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ﴾ [الفتح: ١٣].

عـن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يشهـدوا أن لا إلـه إلّا الله ويؤمنوا بي وبما جئت بـه، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها وحسابهم على الله»[1].

والإيمان به ﷺ هو تصديقُ نبوّته ورسالةِ الله له، وتصديقُه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقةُ تصديقِ القلب بذلك شهادةَ اللّسان بأنّه رسول الله ﷺ،

(١) صحيح البخاري (٤/٤٨)، وصحيح مسلم (١/٥٢).

فـإذا اجتمع التّصديقُ به بالقلب والنّطـقُ بالشّهادة بذلك باللّسان تمَّ الإيمانُ به والتّصديقُ له.

كما ورد في هذا الحديث نفسِه من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أمـرت أن أقاتـل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأنّ محمّدًا رسول الله»[٢].

وقـد زاده وضوحًا في حديث جبريل إذ قال: أخبِرْني عن الإسلام، فقال النّبـيّ ﷺ: «أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله»، وذكر أركان الإسـلام ثمّ سأله عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله..» الحديـث[٣]، فقـد قرّر أنّ الإيمان بـه محتاجٌ إلى العقد بالجنـان، والإسلام به مضطرٌ إلى النّطق باللسان، وهذه هي الحالة المحمودة.

وأما الحال المذمومة فالشّهادة باللّسان دون تصديق القلب، وهذا هو النّفاق، قـال الله تعـالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، أي: كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهـم وتصديقهم وهـم لا يعتقدونه، فلمّا لم تصـدّقْ ذلك ضمائرُهم لم ينفعهـم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فخرجـوا عن اسم الإيمان ولم يكن لهم في الآخرة حكمُه، إذ لم يكن معهم إيمانٌ، ولحقوا بالكافرين في الدّرك الأسفل من النّار، وبقي عليهم حكم الإسلام بإظهار شهادة اللّسان في أحكام الدنيا المتعلّقة بالأئمّة وحكّام المسلمين الذين أحكامهم على الظّواهر بما أظهروه

(٢) صحيح البخاري (١/١٤)، وصحيح مسلم (١/٥٣).
(٣) صحيح مسلم (١/٣٦).

مِـن علامةِ الإسلام؛ إذ لم يجعل للبشر سبيلٌ إلى السّرائر، ولا أمروا بالبحث عنها، بل نهى النّبيّ ﷺ عن التّحكّم عليهـا[٤] وذمّ ذلك، وقال: «هلّا شققت عن قلبه؟»[٥].

والفـرقُ بـين القول والعقـد ما جعـل في حديث جبريـل: الشّهادة من الإسلام والتّصديق من الإيمان.

فصل في وجوب طاعته ﷺ

وأمّا وجوب طاعته ﷺ: فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعتـه؛ لأنّ ذلك ممّـا أتى به. قال الله تعـالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفـال: ٢٠]، وقـال ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النـور: ٥٤]، وقـال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمـران: ١٣٢]، وقال ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [النور: ٥٤]، وقال ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشـر: ٧]، وقال ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النسـاء: ٦٩]، وقـال ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤]، فجعل تعالى طاعةَ رسوله طاعتَه، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه.

---

(٤) أي: الحكم عليها دون دليل.

(٥) صحيح مسلم (١/٩٦).

قـال المفسّرون والأئمّة: طاعة الرّسول في التزام سنّته والتّسليم لما جاء به، وقالـوا: ما أرسل الله من رسولٍ إلّا فرض طاعته على من أرسله إليه، وقالوا: من يطع الرّسول في سنّته يطع الله في فرائضه.

وقـال الله تعـالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمـران: ٣١]، وقـال ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعـراف: ١٥٨]، وقال ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النسـاء: ٦٥]، أي ينقـادوا لحكمـك، يقـال: سلّم واستسلم وأسلم إذا انقاد.

وقال تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، قال محمّد بن عليٍّ الترمذيّ: الأسوة في الرّسول الاقتداء به والاتّباع لسنّته وترك مخالفته في قولٍ أو فعلٍ.

فأمرهـم الله تعالى بذلـك ووعدهم الاهتـداء باتّباعه؛ لأنّه تعـالى أرسله بالهـدى ودين الحقّ ليزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيـم، ووعدهم محبّته تعالى في الآية الأخـرى ومغفرته إذا اتّبعوه وآثروه على أهوائهم وما تَجْنَحُ إليـه نفوسُهم، وأنَّ صحّة إيمانهم بانقيادهم له ورضاهم بحكمه وتركِ الاعتراض عليه.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»[٦].

فطاعة الرّسول مِن طاعة الله، إذ الله أمر بطاعته، فطاعته امتثالٌ لما أمر الله به وطاعةٌ له.

وقد حكى الله عن الكفّار في دركات جهنّم ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦]، فتمنَّوْا طاعته حيث لا ينفعهم التّمنّي.

وقال ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم»[٧].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبيّ ﷺ قال: «كلّ أمّتي يدخلون الجّنة إلّا مَن أبى، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنّة، ومن عصاني فقد أبى»[٨].

وفي الحديث الآخر الصّحيح عنه ﷺ قال: «مَثَلِي ومثل ما بعثني الله به كمثلِ رجلٍ أتى قومًا، فقال: يا قوم، إنّي رأيتُ الجيشَ بعينيّ وإنّي أنا النّذير العُرْيان فالنَّجاءَ، فأطاعه طائفةٌ مِن قومه فأدلجوا فانطلقوا على مَهْلِهم

(٦) صحيح البخاري (٦١/٩)، وصحيح مسلم (١٤٦٦/٣).
(٧) صحيح البخاري (٩٤/٩)، وصحيح مسلم (١٨٣٠/٤).
(٨) صحيح البخاري (٩٢/٩).

فنَجَـوْا، وكذَّبتْ طائفـةٌ منهم فأصبحوا مكانَهم، فصبَّحهـم الجيشُ فأهلكهم واجتاحهـم، فذلك مَثَل مَـن أطاعني واتّبع ما جئتُ بـه، ومَثَل مَن عصاني وكذَّب ما جئتُ به مِن الحقّ»[٩].

وفي الحديـث الآخر في مَثَلِه ﷺ: «كمَثَل مَن بنـى دارًا وجعل فيها مأْدُبَةً وبعث داعيًا، فمن أجاب الدّاعي دخل الدّار وأكل مِن المأدبة، ومن لم يُجب الدّاعـي لم يدخل الدّار ولم يأكل من المأدبـة، فالدّار الجنّة والدّاعي محمّدٌ ﷺ، فمـن أطاع محمـدًا فقد أطاع الله، ومن عصى محمّـدًا فقد عصى الله، ومحمّدٌ فَرَّقَ بين النّاس»[١٠].

وروي عـن الحسـن أنّ أقوامًا قالوا: يا رسول الله، إنـا نحبّ الله فأنزل الله تعـالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١][١١].

وقال القائل:

تعصـي الإلـه وأنت تُظْهِر حبَّه؟ هـذا لعمـري في القياسِ بديعُ
لـو كان حبُّـك صادقًـا لأطعتَه إنَّ المحـبَّ لمن يُحـبُّ مطيعُ[١٢]

(٩) صحيح البخاري (٩٣/٩)، وصحيح مسلم (١٧٨٨/٤).
(١٠) صحيح البخاري (٩٣/٩).
(١١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص١٠٣).
(١٢) البيتان من مقطوع الكامل، نسبهما أكثر أهل الأدب كالثعالبي في الإعجاز ص١٦٣، والتمثيل والمحاضرة ص١٢، وأبي العباس المبرد في الكامل ٤/٢، وأبي إسحاق القيرواني في زهر الآداب ص١٣٩، وابن قطلوبغا في روض الأخيار ص٢٦ لمحمود الوراق من شعراء القرن الثالث.

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه في حديثه في موعظة النّبيّ ﷺ أنّه قال: «فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديّين، عَضُّوا عليها بالنّواجذ وإيَّاكم ومحدثاتِ الأمور فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ»(١٣).

زاد في حديث جابرٍ رضي الله عنه بمعناه: «وكلّ ضلالةٍ في النّار»(١٤).

وفي حديث أبي رافع رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم مُتَّكِئًا على أَرِيكَتِه يأتيه الأمرُ مِن أمري مِمّا أمرتُ به أو نهيتُ عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتّبعناه»(١٥).

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئًا ترخّص فيه فتنزّه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النّبيّ ﷺ فحمد الله ثمّ قال: «ما بالُ قوم يتنزَّهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إنّي لأعلمهم بالله وأشدُّهم له خشيةً»(١٦).

قال الله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

---

(١٣) أخرجه أبو داود (٤/٢٠٠)، وابن ماجه (١/١٥)، وأحمد (٢٨/٣٧٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/٢٩)، والبزار في مسنده (١٠/١٣٧)، وابن حبان في صحيحه (١/١٧٩)، والحاكم في المستدرك (١/١٧٤) وصححه ووافقه الذهبي. وانظر السلسلة الصحيحة [٣٠٠٧].

(١٤) أخرجه النسائي (٣/١٨٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/١٤٣)، وأبو نعيم في مستخرجه على صحيح مسلم (٢/٤٥٥)، وأصل الحديث في صحيح مسلم (٢/٥٩٢) دون قوله: «وكل ضلالة في النار».

(١٥) أخرجه أبو داود (٤/٢٠٠)، والترمذي (٥/٣٧) وحسنه، وابن ماجه (١/٦)، والشافعي في مسنده (ص٢٣٣)، وأحمد (٣٩/٣٠٢)، والحاكم في المستدرك (١/١٩٠)، وصححه على شرط الشيخين وقال: «والذي عندي أنهما تركاه لاختلاف المصريين في هذا الإسناد»، ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في صحيح الجامع (٢/١٢٠٤).

(١٦) صحيح البخاري (٨/٢٦).

وقال ﷺ: «من اقتدى بي فهو منّي، ومن رغب عن سنّتي فليس منّي»[١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ أحسن الحديث كتاب الله وخيرَ الهدي هدي محمّدٍ، وشرّ الأمور محدثاتها»[١٨].

فصل فيما ورد عن السّلف والأئمّة من اتّباع سنّته ﷺ والاقتداء بهديه وسيرته

وقال ﷺ: «هلك المتنطعون»[١٩].

قال عمر بن عبد العزيز: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننًا الأخذ بها تصديقٌ بكتاب الله واستعمالٌ لطاعة الله وقوّةٌ على دين الله ليس لأحدٍ تغييرها ولا تبديلها ولا النّظر في رأي من خالفها، من اقتدى بها فهو مهتدٍ ومن انتصر بها فهو منصورٌ ومن خالفها واتّبع غير سبيل المؤمنين ولّاه الله ما تولّى وأصلاه جهنّم وساءت مصيرًا[٢٠].

وقال الحسن بن أبي الحسن: عملٌ قليلٌ في سنّةٍ خيرٌ من عملٍ كثيرٍ في بدعةٍ[٢١].

---

(١٧) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٤٥٧/٣٨)، وانظر: شرح مشكل الآثار (٢٦٧/٣)، وسنده صحيح.

(١٨) الحديث في صحيح البخاري (٩٢/٩) عن عبد الله بن مسعود، وفي صحيح مسلم (٥٩٢/٢) عن جابر بن عبد الله، ولم نقف على رواية أبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين.

(١٩) صحيح مسلم (٥٥/٢٠).

(٢٠) أخرجه الخلال في السنة (١٢٧/٤)، وابن بطة في الإبانة (٢٥٢/١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٠٥/١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٤٣٥/١) وغيرهم.

(٢١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٩١/١١)، ومحمد بن نصر المروزي في السنة (ص٣٠)، وابن بطة في الإبانة (٣١٥/١)، وغيرهم كلهم عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا.

وقال ابن شهاب: بلغنا عن رجال من أهل العلم قالوا: الاعتصام بالسّنّة نجاةٌ[٢٢].

وكتب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إلى عمّاله بتعلّم السّنّة والفرائض واللّحن أي اللّغة، وقال: إنّ ناسًا يجادلونكم - يعني بالقرآن - فخذوهم بالسّنن، فإنّ أصحاب السّنن أعلم بكتاب الله[٢٣].

وفي خبره حين صلّى بذي الحليفة ركعتين فقال: أصنع كما رأيت رسول الله ﷺ يصنع[٢٤].

وكان ابن مسعودٍ رضي الله عنه يقول: القَصْدُ في السّنّة خيرٌ من الاجتهاد في البدعة[٢٥].

وقال أبيّ بن كعبٍ رضي الله عنه: عليكم بالسّبيل والسّنّة؛ فإنّه ما على الأرض مِن عبدٍ على السّبيل والسّنّة ذكر الله في نفسه ففاضت عيناه من خشية ربّه فيُعَذِّبَهُ الله أبدًا، وما على الأرض من عبدٍ على السّبيل والسّنّة ذكر الله في نفسه فاقشعرّ جلده مِن خشية الله إلّا كان مَثَلُه كمَثَلِ شجرةٍ قد يَبِسَ ورقُها فهي كذلك إذ أصابتْها ريحٌ شديدةٌ فتحاتَّ عنها ورقها إلّا حُطَّ عنه خطاياه كما تحاتَّ عن الشّجرة ورقها، فإنّ اقتصادًا في سبيلٍ وسنّةٍ خيرٌ من اجتهادٍ في

(٢٢) أخرجه الدارمي في السنن (٢٣٠/١)، والدينوري في المجالسة (٢٣٥/٢)، وابن بطة في الإبانة (٣١٩/١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٢٠٦/١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٦٩/٣)، وغيرهم.

(٢٣) الشريعة للآجري (٤٠٨/١)، والإبانة لابن بطة (٣٥١/١).

(٢٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٠٢/٢)، والطبري في تهذيب الآثار (٢٠٩/١).

(٢٥) سنن الدارمي (٢٩٦/١)، شرح أصول الاعتقاد للّالكائي (٦١/١)، الإبانة لابن بطة (٣٢٠/١)، جامع بيان العلم لابن عبد البر (١١٧٩/٢).

خلاف سبيلٍ وسنّةٍ وموافقة بدعةٍ، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادًا أو اقتصادًا أن يكون على منهاج الأنبياء وسنّتهم[٢٦].

وكتب بعض عمّال عمر بن عبد العزيز إلى عمر بحال بلده وكثرة لصوصه: هل يأخذهم بالظّنّة أو يحملهم على البيّنة وما جرت عليه السّنّة؟ فكتب إليه عمر: خذهم بالبيّنة وما جرت عليه السّنّة، فإن لم يصلحهم الحقّ فلا أصلحهم الله.

وعن عطاءٍ في قوله تعالى ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، أي: إلى كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ[٢٨].

وقال الشّافعي: ليس في سنّة رسول الله ﷺ إلّا اتّباعها[٢٩].

وقال عمر رضي الله عنه - ونظر إلى الحجر الأسود -: إنّك حجرٌ لا تنفع ولا تضرّ ولولا أنّي رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك، ثمّ قبّله[٣٠].

وقال أبو عثمان الحِيرِيُّ: من أمّر السّنّة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة[٣١].

---

(٢٦) الزهد لابن المبارك (٢١/٢)، مصنف ابن أبي شيبة (٢٢٤/٧)، الزهد لأبي داود (ص١٨٣)، شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٥٩/١).

(٢٨) الشريعة للآجري (٤٢٢/١)، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٧٦٥/١).

(٢٩) الشريعة للآجري (١١٢٧/٣)، الإبانة لابن بطة (٢٤٠/٧)، الاستذكار (٥٢٩/٢).

(٣٠) صحيح البخاري (١٤٩/٢)، وصحيح مسلم (٩٢٥/٢).

(٣١) من فوائد أبي عثمان الحيري (ص٩٣)، حلية الأولياء (٢٤٤/١٠)، الجامع لأخلاق الراوي للخطيب (١٤٥/١).

وقال سَهْلٌ التُّسْتَرِيُّ: أصول مذهبنا ثلاثةٌ؛ الاقتداء بالنّبيّ ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النّيّة في جميع الأعمال.

فصل

ومخالفة أمره ﷺ وتبديل سنّته ضلالٌ وبدعةٌ متوعّدٌ من الله عليه بالخذلان والعذاب، قال الله تعالى ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]، وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة، وذكر الحديث في صفة أمّته، وفيه: «فليُذادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يُذاد البعير الضَّالُّ، فأناديهم: ألا هلمَّ، ألا هلمَّ، فيقال: إنَّهم قد بدَّلوا بعدك، فأقول: فسُحْقًا فسُحْقًا»[٣٢].

وروى أنسٌ رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال «فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»[٣٣] وقال «من أدخل في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ»[٣٤].

(٣٢) صحيح مسلم (٢١٨/١).

(٣٣) صحيح البخاري (٢/٧)، وصحيح مسلم (١٠٢٠/٢).

(٣٤) صحيح البخاري (١٨٤/٣)، وصحيح مسلم (١٣٤٣/٣)، بلفظ: «من أحدث..».

وقال أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه: لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلّا عملت به، إنّي أخشى إن تركتُ شيئًا مِن أمره أن أَزِيغ[٣٥].

(٣٥) صحيح البخاري (٤/٧٩)، وصحيح مسلم (٣/١٣٨١).

الباب السادس في لزوم محبته ﷺ

قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، فكفى بهذا حضًّا وتنبيهًا ودلالةً وحجّةً على إلزام محبّته ﷺ ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها، إذ قرّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحبّ إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]، ثمّ فسّقهم بتمام الآية وأعلمهم أنّهم من ضلّ ولم يهده الله.

عن أنسٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُؤْمِنُ أحدكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه مِن ولده ووالده والنّاس أجمعين»[(١)].

وعن أنسٍ رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان: أنْ يكونَ اللهُ ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النّار»[(٢)].

(١) صحيح البخاري (١/١٢)، وصحيح مسلم (١/٦٧).

(٢) صحيح البخاري (١/١٢)، وصحيح مسلم (١/٦٦).

وعن عمر بن الخطّاب ﷺ أنّه قال للنّبيّ ﷺ: لأنت أحبُّ إليَّ مِن كلِّ شيء إلّا نفسي الّتي بين جنبيّ، فقال له النّبيّ ﷺ: لن يُؤْمِنَ أحدكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه مِن نفسه، فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحبُّ إليّ مِن نفسي الّتي بين جنبيّ، فقال له النبي ﷺ: الآن يا عمر[٣].

فصل في ثواب محبته ﷺ

عن أنسٍ ﷺ أنّ رجلًا أتى النّبيّ ﷺ فقال: متى السّاعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها مِن كثير صلاةٍ ولا صومٍ ولا صدقةٍ، ولكنّي أُحبُّ الله ورسوله قال: «أنت مع من أحببتَ»[٤].

وروي أنّ رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، لأنت أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي، وإنّي لأذكرك فما أصبر حتّى أجيءَ فأنظرَ إليك، وإنّي ذكرتُ موتي وموتك، فعرفت أنّك إذا دخلتَ الجنّة رُفِعْتَ مع النّبيّين، وإن دخلْتُها لا أراك، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، فدعا به فقرأها عليه[٥].

(٣) صحيح البخاري (١٢٩/٨).

(٤) صحيح البخاري (٤٠/٨)، وصحيح مسلم (٢٠٣٣/٤).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٥٢/١)، والصغير (ص٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٩/٤)، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٩٣٣].

فصل فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي ﷺ وشوقهم له

عــن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «مِــن أشدِّ أمّتي لي حبًّا ناسٌ يكونون بعدى يودُّ أحدهم لو رآني بأهله وماله»[٦].

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه: ما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ مِن رسول الله ﷺ[٧].

وعن ابن إسحاق أنّ امرأةً من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحدٍ مــع رسول الله ﷺ، فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا خيرًا، هو بحمد الله كمــا تحبّين، قالت: أرنيه حتّى أنظر إليه، فلمّــا رأته قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدك جَلَلٌ[٨].

ووقف ابن عمر رضي الله عنهما على ابن الزّبير رضي الله عنهما بعد قتله، فاستغفر له وقال: كنتَ والله ما علمتُ صوّامًا قوّامًا تحبّ الله ورسوله[٩].

فصل في علامة محبته ﷺ

اعلــم أنّ من أحبّ شيئًا آثــره وآثر موافقته، وإلّا لم يكــن صادقًا في حبّه وكان مدّعيًا، فالصّادق في حبّ النّبيّ ﷺ مَن تظهر علامةُ ذلك عليه.

---

(٦) صحيح مسلم (٤/٢١٧٨).

(٧) صحيح مسلم (١/١١٢).

(٨) أخرجه ابن إسحاق (كما في سيرة ابن هشام ٢/٩٩)، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٣/٣٠١) من حديث إسماعيل بن محمد بن (تصحَّف في مطبوع سيرة ابن هشام إلى «عن») سعد بن أبي وقاص مرسلًا.

(٩) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/١٢٠ الجزء المتمم)، وهو في صحيح مسلم (٤/١٩٧١) دون قوله «تحب الله ورسوله».

وأوَّلُهـا: الاقتداء به واتّباع أقواله وأفعالـه وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والتـأدُّبُ بآدابه في عُسْـره ويُسْره ومَنْشَطِه ومَكْرَهِـه، وشاهدُ هذا قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمـران: ٣١]، وإيثارُ ما شرعه وحضَّ عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته، قال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

فمـن اتَّصف بهذه الصِّفـة فهو كامل المحبَّة لله ورسولـه، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبّة ولا يخرج عن اسمها.

ودليلـه قوله ﷺ للّذي حدَّه في الخمر فلعنه بعضهم وقال: ما أَكْثَرَ ما يُؤْتَى به! فقال النّبيّ ﷺ: «لا تلعنه، فإنّه يحبّ الله ورسوله»(١٠).

ومن علامات محبّة النّبيّ ﷺ كثرةُ ذكره له، فمن أحبَّ شيئًا أكثر ذكره.

ومنها كثرة شوقه إلى لقائه ﷺ، فكلُّ حبيبٍ يحبُّ لقاء حبيبه، وفي حديث الأشعريّين عند قدومهم المدينةَ أنّهم كانوا يرتجزون:

غـدا نـلـقـى الأحـبّـه محـمّـدًا وصـحـبـه

ومنهـا محبّتُه لمن أحبَّ النّبـي ﷺ ومَن هو بسَبَبِه مِـن آل بيته وصحابته مِن المهاجرين والأنصار، وعداوةُ مَن عاداهم وبُغْض مَنْ أبغضهم وسبَّهم.

(١٠) صحيح البخاري (١٥٨/٨).

وقد قال ﷺ في الحسن والحسين رضي الله عنهما: «اللهمّ إنّي أُحبُّهما فأَحِبَّهما»[١١].

وفي رواية في الحسن رضي الله عنه: «اللهمّ إنّي أُحِبُّه فأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّه»[١٢].

وقال: «من أحبّهما فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبَّ الله، ومن أبغضهما فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله»[١٣].

وقال في فاطمة رضي الله عنها: «إنّها بَضْعةٌ مني، يُغْضِبُني ما أغضبها»[١٤].

وقال لعائشة في أسامة بن زيد رضي الله عنهم: «أحِبِّيه، فإنّي أُحِبُّه»[١٥].

وقال: «آيةُ الإيمان حبُّ الأنصار، وآيةُ النِّفاقِ بُغْضُهم»[١٦].

فبِالحقيقةِ مَنْ أحبَّ شيئًا أحبَّ كل شيءٍ يُحِبُّه، وهذه سيرةُ السّلف حتَّى في المباحات وشهوات النّفس.

وقد قال أنسٌ رضي الله عنه حين رأى النّبيّ ﷺ يتتبَّع الدُّبّاء مِن حَوالَي القصعة: فما زلتُ أحبُّ الدّبّاءَ مِن يومِئذٍ[١٧].

(١١) صحيح البخاري (٥/٢٦).

(١٢) صحيح البخاري (٧/١٥٩)، وصحيح مسلم (٤/١٨٨٢).

(١٣) أخرجه ابن راهويه في مسنده (١/٢٤٨)، وأحمد (١٣/٢٦٠)، وفي فضائل الصحابة (٢/٧٧٧)، والبزار (١٦/٢٤٠) والطبراني في الكبير (٣/٤٨) والحاكم في المستدرك (٣/١٨٢) وصححه ووافقه الذهبي، إلى قوله: «فقد أبغضني»، وقواه محققو المسند بإشراف الأرنؤوط.

(١٤) صحيح البخاري (٥/٢١)، وصحيح مسلم (٤/١٩٠٣).

(١٥) أخرجه الترمذي (٥/٦٧٧)، وابن أبي الدنيا في النفقة على العيال (ص٣٩٧)، وابن حبان في صحيحه (١٥/٥٣٤)، وحسنه الألباني في تخريجه للمشكاة (٣/١٧٤٠).

(١٦) صحيح البخاري (١/١٢)، وصحيح مسلم (١/٨٥).

(١٧) صحيح البخاري (٣/٦١)، وصحيح مسلم (٣/١٦١٥).

وهـذا الحسن بن عليٍّ وعبد الله بن عبّاسٍ وابن جعفـر ﷺ أَتَوْا أمَّ سلمةَ رضي الله عنها وسألوها أنْ تَصْنَعَ لهم طعامًا ممّا كان يُعجِب رسولَ الله ﷺ.

وكان ابـن عمر رضي الله عنهما يلبس النِّعال السَّبْتِيَّة ويصبغ بالصُّفرة إذ رأى النّبيّ ﷺ يفعل نحو ذلك.

ومنهـا بُغْضُ مَنْ أبغض الله ورسوله ومُعاداة مَن عاداه ومجانبةُ مَن خالف سنّتـه وابتدع في دينه واستثقالُه كلَّ أمـرٍ يُخالف شريعتَه قال الله تعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلـة: ٢٢]، وهـؤلاء أصحابه ﷺ قد قتلوا أحبّاءهم وقاتلوا آباءهم وأبناءهم في مرضاته.

وقـال له عبد الله بن عبـد الله بن أبي رضي الله عنه: لو شِئْتَ لأتيتُك برأسه يعني أباه[١٨].

ومنها أن يحبَّ القرآنَ الذي أتى ﷺ به وهدى به واهتدى وتخلّق به، حتّى قالـت عائشة رضي الله عنهـا: «كان خلقه القرآن»[١٩]. وحبُّـه للقرآن تلاوتُه والعملُ به وتفهُّمه.

ويحبَّ سنّته ويقف عند حدودها.

(١٨) أخرجه البزار (١٤/٣٢٢)، والطبراني في الكبير (٢٣/١٢٥)، وأورده الألباني في الصحيحة [٣٢٢٤].
(١٩) صحيح مسلم (١/٥١٢).

قال سهل بن عبد الله: علامة حبّ الله حبّ القرآن، وعلامة حبّ القرآن حبّ النّبيّ ﷺ، وعلامة حبّ النّبيّ ﷺ حبّ السّنّة، وعلامة حبّ السّنّة حبّ الآخرة وعلامة حبّ الآخرة بُغْض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يدَّخر منها إلّا زادًا وبلغةً إلى الآخرة[٢٠].

ومِن علاماتِ حبّه للنّبيّ ﷺ شفقتُه على أمَّتِه ونُصحُه لهم وسعيُه في مصالحهم ورفع المضارِّ عنهم، كما كان ﷺ بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا.

فصل في معنى المحبّة للنبي ﷺ وحقيقتها

اختلف النّاس في تفسير محبّة الله ومحبّة النّبيّ ﷺ وكثرت عباراتهم في ذلك، وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال، ولكنّها اختلاف أحوالٍ.

فقال سفيان: المحبّة اتّباع الرسول ﷺ، كأنّه التفت إلى قوله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] الآية، وقال بعضهم: محبّة الرّسول ﷺ العزم على نصرته والذّبّ عن سنّته، والانقياد لها وهيبة مخالفته، وقال بعضهم: المحبّة مُواطأةُ القلب لمراد الرّبّ، يحبّ ما أحبّ ويكره ما كره[٢١].

(٢٠) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/١٠٤)

(٢١) انظر في ذلك كتابي أبي إسحاق الختلى وابن تيمية «المحبة لله»، و«قاعدة في المحبة».

فصل في وجوب مناصحته ﷺ

قال الله تعالى ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١]. قال أهل التّفسير: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: إذا كانوا مخلصين مسلمين في السّرّ والعلانيّة.

عن تميم الدّاريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الدّين النصيحة، إنّ الدّين النّصيحة، إنّ الدّين النّصيحة»، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله وأئمّة المسلمين وعامّتهم» (٢٢).

قال أئمّتنا: النّصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة.

قال الإمام أبو سليمان البستي: النصيحة كلمةٌ يعبَّر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها، ومعناها في اللّغة الإخلاصُ مِن قولهم: «نصحت العسل» إذا خلّصته من شمعه(٢٣).

فنصيحة الله تعالى: صحّةُ الاعتقاد له بالوحدانية ووصفه بما هو أهله وتنزيهه عمّا لا يجوز عليه والرّغبةُ في محابّه والبعدُ من مساخطه والإخلاصُ في عبادته.

(٢٢) صحيح مسلم (١/٧٤) بلفظ: «الدين النصحية» دون تكرار.

(٢٣) معالم السنن لأبي سليمان الخطابي البستي (٤/١٢٥-١٢٦).

والنصيحة لكتابه: الإيمانُ به والعملُ بما فيه وتحسينُ تلاوته والتخشُّعُ عنده والتعظيمُ له[٢٤] وتفهُّمُه والتّفقُّهُ فيه والذّبُّ عنه مِن تأويل الغالين وطعنِ الملحدين.

والنصيحةُ لرسوله: التّصديقُ بنبوّته وبذلُ الطّاعة له فيما أمر به ونهى عنه قاله أبو سليمان[٢٥].

وقال أبو بكر: وموازرته ونصرته وحمايته حيًّا وميّتًا، وإحياءُ سنّته بالطّلبِ والذّبِّ عنها ونشرها، والتّخلُّقُ بأخلاقِه الكريمةِ وآدابِه الجملية[٢٦].

وقال أبو إبراهيم إسحاق التُّجيبيُّ: نصيحةُ رسول الله ﷺ التّصديقُ بما جاء به والاعتصامُ بسنّته ونشرُها والحضُّ عليها والدّعوةُ إلى الله وإلى كتابه وإلى سنة رسوله.

وقال أبو بكرٍ الآجرّيُّ: نصيحةُ المسلمين له بعد وفاته الْتزامُ التّوقير والإجلال وشدّة المحبّة له والمثابرة على تعلُّم سنته والتفقهِ في شريعته، ومحبّة آل بيته وأصحابه، ومجانبة مَنْ رغب عن سنّته وانحرف عنها وبغضه والتّحذير منه، والشّفقة على أمّته والبحث عن تعرّف أخلاقه وسيره وآدابه، والصّبر على ذلك؛ فعلى ما ذكره تكون النّصيحة إحدى ثمرات المحبّة وعلامةً من علاماتها كما قدّمناه.

---

(٢٤) في مطبوع الشفا (٢/٧٣): «والتعظم له»، والتصويب من مخطوطة جامعة الملك سعود، الرقم العام ٣٧٥٨، رقم الصنف: ٢١٩/ش.ق، صفحة (لوحة) ١٨٣/ب، ومن نسخة جامعة ميتشيغان، رقم المخطوط: ٢٠٩، ص ٣٥٣، ومن نسخة جامعة برنستون، رقم ٣٨٢، لوحة ١٢٠/ب.

(٢٥) معالم السنن لأبي سليمان الخطابي البستي (٤/١٢٦).

(٢٦) لم نقف عليه، وينظر في شرح الحديث إلى تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٢/٦٩١-٦٩٤)، ففيه زيادات مفيدة.

الباب السابع في تعظيم أمره ﷺ ووجوب توقيره وبره

قال الله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٨-٩]، وقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات: ١]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٢-٤]، وقال تعالى ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا ﴾ [النور: ٦٣].

فأوجب تعالى تعزيره وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: تعزِّروه تُجِلُّوه، وقال المبرّد: تعزِّروه تُبالِغوا في تعظيمه [1].

ونهى عن التَّقدُّم بين يديه بالقول وسُوءِ الأدب بسَبْقِه بالكلام على قول ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

(١) تفسير الطبري (٨/٢٠٦-٢٠٨).

قال سهل بن عبد الله: لا تقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا، ونُهُوا عن التقدُّم والتّعجُّل بقضاءِ أمرٍ قبل قضائه وأن يَفْتاتوا بشيءٍ في ذلك مِنْ قتالٍ أو غيره مِنْ أمرِ دينهم إلّا بأمره، ولا يسبقوه به.

ثمّ وعظهم وحذّرهم مخالفةَ ذلك فقال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]. قال الماورديّ: اتّقوه يعني في التّقدّم[٢]، وقال السّلميّ: اتّقوا الله في إهمال حقّه وتضييع حرمته؛ إنّه سميعٌ لقولكم عليمٌ بفعلكم[٣].

ثمّ نهاهم عن رفع الصَّوْتِ فوق صوته والجهرِ له بالقول كما يَجْهَرُ بعضُهم لبعضٍ ويرفعُ صوته، وقيل: كما يُنادي بعضهم بعضًا باسمه. قال أبو محمّدٍ مكّيٌّ: أي لا تسابقوه بالكلام وتُغْلِظُوا له بالخطاب، ولا تنادوه باسمه نداءَ بعضِكم لبعضٍ، ولكن عظِّموه ووقِّروه، ونادُوه بأشرفِ ما يُحِبُّ أن ينادى به: يا رسول الله، يا نبيّ الله[٤].

وهذا كقوله في الآية الأخرى ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] على أحد التّأويلين. وقال غيره: لا تخاطبوه إلّا مستفهمين، ثمّ خوفهم الله تعالى بحَبْطِ أعمالهم إنْ هم فعلوا ذلك وحذّرهم منه.

(٢) تفسير الماوردي المسمى بالنكت والعيون (٥/٣٢٦).
(٣) تفسير السلمي المسمى بحقائق التفسير (٢/٢٦٠).
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (١١/٦٩٨٧).

قيل: نزلت الآية في وفد بني تميم وقيل في غيرهم، أتَوُا النّبيّ ﷺ فنادَوْه: يا محمّد، يا محمّد، اخرج إلينا! فذمّهم الله تعالى بالجهل ووصفهم بأنَّ أكثرهم لا يعقلون(٥).

وقيل: نزلت الآية الأولى في مُحاورةٍ كانت بين أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما بين يدي النّبيّ ﷺ واختلافٍ جرى بينهما حتّى ارتفعت أصواتُهما(٦).

وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاسٍ رضي الله عنه خطيب النّبيّ ﷺ في منافرة بني تميم، وكان في أذنيه صَمَمٌ فكان يرفع صوته، فلمّا نزلت هذه الآية أقام في منزله وخشي أن يكونَ حَبِطَ عَمَلُهُ ثمّ أتى النّبيّ ﷺ، فقال: يا نبيّ الله لقد خشيتُ أن أكونَ هلكتُ، نهانا الله أن نجهر بالقول، وأنا امرؤ جهير الصّوت، فقال النّبيّ ﷺ: «يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنّة؟»، فقتل يوم اليمامة(٧).

وروي أنّ أبا بكرٍ رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال: والله يا رسول الله لا أكلّمك بعدها إلّا كأخي السِّرار، وأنّ عمر رضي الله عنه كان إذا حدَّثه حدَّثه كأخي السِّرار ما كان يُسْمع رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتَّى يستفهمه، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٩٣/١٢) بإسناد جيد، والطبراني في الكبير (١١٣/١٣)، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٣٠٢/١٠)، وأسباب النزول للواحدي (ص٣٨٥).

(٦) صحيح البخاري (٩٧/٩).

(٧) أخرجه ابن المبارك في الجهاد (ص١٠٢)، وعبد الرزاق في المصنف (٣٣٩/١١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٧٠/٦)، وابن حبان في صحيحه (١٢٦/١٦)، وغيرهم، وأصله في صحيح البخاري (١٣٧/٦)، وفيه بدل قول النبي: «أما ترضى.. الخ» قوله: «إنّك لست من أهل النّار، ولكنّك من أهل الجنّة».

لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٣][٨].

وقال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ [البقرة: ١٠٤]. قال بعض المفسّرين: كانت اليهود تعرّض بها للنبي ﷺ بالرُّعونة، فنهي المسلمون عن قولها قطعًا للذّريعة ومنعًا للتّشبّه بهم في قولها لمشاركة اللّفظة[٩].

فصل في عادة الصّحابة ﷺ في تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله

عن عمرو بن العاص ﷺ قال: وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ مِن رسولِ الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنتُ أُطيقُ أن أَمْلأ عيني منه إجلالًا له، ولو سُئِلْتُ أن أَصِفَه ما أطقتُ؛ لأنّي لم أكن أملأ عيني[١٠].

وروى أسامة بن شريكٍ ﷺ قال: أتيتُ النّبيّ ﷺ وأصحابُه حوله كأنَّما على رؤوسهم الطّير[١١].

وقال عروة بن مسعودٍ ﷺ حين وجّهته قريشٌ عامَ القضيَّة إلى رسول الله ﷺ ورأى مِن تعظيم أصحابه له ما رأى وأنّه لا يتوضّأ إلا ابتدروا وَضُوءه وكادوا يقتتلون عليه، ولا يَبْصُقُ بُصاقًا ولا يتنخَّم نُخامةً إلّا تلقَّوْها بأكُفِّهم فدلكوا بها وُجُوهَهم وأجسادهم، ولا تَسْقُطُ منه شَعْرةٌ إلّا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمرٍ ابتدروا أمْرَه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه

(٨) صحيح البخاري (٩/٩٧)، دون قوله: «فأنزل الله..».

(٩) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (١/٣٨٤)، تفسير ابن عطية المسمى بالمحرر الوجيز (١/١٨٩).

(١٠) صحيح مسلم (١/١١٢).

(١١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٣)، والطيالسي (٢/٥٥٩)، وابن أبي شيبة (٢/٢٨٦)، وأحمد (٣٠/٣٩٤)، كلّهم في مسانيدهم، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/١٤٢)، وغيرهم وإسناده صحيح.

النّظر تعظيمًا له. فلمّا رجع إلى قريشٍ قال: يا معشر قريشٍ، إنّي جئت كسرى في ملكــه، وقيصر في ملكــه، والنّجاشيّ في ملكه، وإنّي والله ما رأيت ملكًا في قومٍ قطّ مثل محمّدٍ في أصحابه(١٢).

وفي روايــةٍ: إنْ رأيتُ ملكًا قطّ يعظّمه أصحابه مــا يعظم محمدًا أصحابه، وقد رأيت قومًا لا يُسْلِمُونه أبدًا(١٣).

وعــن أنسٍ رضي الله عنه قال: لقــد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرةٌ إلّا في يد رجلٍ(١٤).

ومن هذا لمّا أذنت قريشٌ لعثمان رضي الله عنه في الطّواف بالبيت حين وجّهه النّبيّ ﷺ إليهــم في القضيّة أبى وقال: ما كنت لأفعــل حتّى يطوف به رسول الله ﷺ(١٥).

وفي حديــث قَيْلَة رضي الله عنهــا قالت: فلمّا رأيتُ رسولَ الله ﷺ جالسًا القُرْفُصاءَ أُرْعِدْتُ مِنَ الفَرَق(١٦). وذلك هَيْبَةً له وتعظيمًا.

وفي حديــث المغــيرة رضي الله عنه قال: كان أصحاب رســول الله ﷺ يقرعون بابه بالأظافر(١٧).

---

(١٢) صحيح البخاري (٣/١٩٣) في حديث طويل.

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) صحيح مسلم (٤/١٨١٢).

(١٥) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد (٣١/٢١٦-٢٢١) وغيره، وإسناده حسن.

(١٦) أخرجه أبو داود (٤/٢٦٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٤٠٢)، والترمذي في الشمائل (ص٨٩)، والطبراني في الكبير (٢٥/٨)، وإسناده حسن.

(١٧) أخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص١٩) مثالًا لما له حكم الرفع، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص٣٧١)، والبزار في مسنده (١٤/١١٠)، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٠٩٢].

فصل في أن حرمته ﷺ وتوقيره بعد موته لازم كما كان حال حياته

واعلم أنّ حرمة النّبيّ ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازمٌ كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه وسنّته، وسماع اسمه وسيرته، ومعاملة آله وعترته، وتعظيم أهل بيته وصحابته.

قال أبو إبراهيم التّجيبيّ: واجبٌ على كلّ مؤمن متى ذكره أو ذُكِر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقَّر ويسكن مِن حركته ويأخذ في هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدّب بما أدّبنا الله به[١٨].

وهذه كانت سيرة سلفنا الصّالح وأئمّتنا الماضين رضي الله عنهم.

وقال مالك وقد سئل عن أيوب السّختياني: ما حدّثتكم عن أحدٍ إلّا وأيّوب أفضل منه، قال: وحجّ حجّتين، فكنت أرمقه ولا أسمع منه، غير أنّه كان إذا ذكر النّبيّ ﷺ بكى حتّى أرحمه، فلمّا رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنّبيّ ﷺ كتبت عنه[١٩].

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالكٌ إذا ذكر النّبيّ ﷺ يتغيّر لونه وينحني حتّى يصعب ذلك على جلسائه. فقيل له يومًا في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليّ ما ترون، ولقد كنت أرى محمّد بن المنكدر وكان سيّد القرّاء لا نكاد نسأله عن حديثٍ أبدًا إلّا يبكي حتّى نرحمه، ولقد كنت

(١٨) انظر: القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع للسخاوي (ص٢٤٤)، والدر المنضور لابن حجر الهيتمي (ص٢٥١).

(١٩) التمهيد لابن عبد البر (١/٣٤٠).

أرى جعفر بـن محمّدٍ وكان كثير الدّعابة والتّبسّم، فإذا ذكر عنده النّبيّ ﷺ اصفرّ، وما رأيته يحدّث عن رسول الله ﷺ إلّا على طهارةٍ، ولقد اختلفت إليه زمانًـا، فما كنت أراه إلّا على ثلاث خصـال: إمّا مصلّيًا وإما صامتًا وإمّا يقرأ القـرآن، ولا يتكلّم فيما لا يعنيه وكان من العلماء والعبّاد الذين يخشون الله عزّ وجلّ، ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النّبيّ ﷺ، فيُنْظَرُ إلى لونه كأنّـه نزف منه الدّم وقد جفَّ لسانُه في فمه هيبـةً منه لرسول الله ﷺ، ولقد كنـت آتي عامر بن عبد الله بن الزّبير، فإذا ذُكِـرَ عنده النّبيّ ﷺ بكى حتّى لا يبقـى في عينيه دموعٌ، ولقد رأيت الزّهـريّ وكان من أهنأ النّاس وأقربهم، فـإذا ذكر عنده النّبيّ ﷺ فكأنّه ما عرفـك ولا عرفته، لقد كنت آتي صفوان بـن سليم وكان من المتعبديـن المجتهدين، فإذا ذكر النّبيّ ﷺ بكى فلا يزال يبكي حتّى يقوم النّاس عنه ويتركوه.

وروي عن قتادة أنّه كان إذا سمع الحديث أخذه العويل والزّويل[٢٠].

ولمـا كثر على مالكٍ النّاس قيل له: لو جعلـت مستمليًا يسمعهم، فقال: قـال الله تعـالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: ٢]، وحُرْمته حيًّا وميّتًا سواءٌ[٢١].

وكان ابنُ سيرين ربّما يضحك، فإذا ذُكِرَ عنده حديثُ النّبيّ ﷺ خشع[٢٢].

---

(٢٠) المعرفة والتاريخ (٢/٢٨٢)، المحدث الفاصل (ص٤٠٢)، حلية الأولياء (٢/٣٣٤). والزويل القلق والانزعاج بحيث لا يستقر على المكان. النهاية في غريب الحديث (٢/٣٢٠)

(٢١) ترتيب المدارك (٢/٢٦).

(٢٢) أخرجه مسدد (كما في المطالب العالية ١٢/٦٥٥)، ومن طريقه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١/٤١٢).

وكان عبد الرّحمن بن مهديّ إذا قرأ حديث النّبيّ ﷺ أمرهم بالسّكوت وقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ ويتأوَّل أنه يجب له مِن الإنصاتِ عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله.

فصل في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله ﷺ وسنته

عن عمرو بن ميمون قال: اختلفت إلى ابن مسعودٍ رضي الله عنه سنةً، فما سمعته يقول «قال رسول الله ﷺ» إلّا أنّه حدّث يومًا، فجرى على لسانه «قال رسول الله ﷺ»، ثمّ علاه كربٌ حتّى رأيت العرق يتحدّر عن جبهته، ثمّ قال: هكذا إن شاء الله أو فوق ذا أو ما دون ذا أو ما هو قريبٌ من ذا[٢٣].

وفي رواية: فتربّد وجهه[٢٤]، وفي رواية: وقد تغرغرت عيناه وانتفخت أوداجه[٢٥].

وقال إبراهيم بن عبد الله بن قُرَيْمٍ الأنصاريّ قاضي المدينة: مرّ مالك بن أنسٍ على أبي حازم وهو يحدّث، فجازه وقال: إنّي لم أجد موضعًا أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم[٢٦].

(٢٣) مسند ابن المبارك (ص١٤٠)، والطيالسي (١/٢٥٦)، والهيثم بن كليب الشاشي (٢/١٢٩)، المعجم الكبير (٩/١٢١).

(٢٤) سنن الدارمي (١/٣٢٥).

(٢٥) علل الدارقطني (١٣/٢٦٤)، وقد طوّل رحمه الله في إخراج طرق هذا الأثر.

(٢٦) سنن الترمذي (٦/٢٤٦)، الجامع لأخلاق الراوي (١/٤٠٨).

وقـال مالكٌ: جاء رجلٌ إلى ابن المسيّب فسأله عن حديثٍ وهو مضطجع، فجلسـ وحدّثه، فقال له الرّجل: وَدِدْتُ أنك لم تتعنَّ فقال: إنّي كرهتُ أن أحدِّثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع[٢٧].

وقال مصعب بن عبـد الله: كان مالك بن أنس إذا حدّث عن رسول الله ﷺ توضّأ وتهيّأ ولبس ثيابه ثمّ يحدث. قال مصعب: فسئل عن ذلك فقال: إنّه حديث رسول الله ﷺ[٢٨].

قـال مطرّف: كان إذا أتى النّاس مالكًا خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقـول لكم الشّيخ: تريدون الحديـث أو المسائل؟ فإن قالـوا: المسائل خرج إليهـم، وإن قالوا الحديث دخل مغتسلـه واغتسل وتطيب ولبس ثيابًا جددًا ولبسـ ساجـه[٢٩] وتعمّم ووضع على رأسـه رداءه وتلقى لـه مِنَصَّة فيخرج فيجلسـ عليها وعليه الخشوع، ولا يـزال يبخّر بالعود حتّى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ.

قـال ابن أبي أويس: فقيل لمالك في ذلك، فقال: أحبّ أن أعظم حديث رسـول الله ﷺ ولا أحدّث بـه إلّا على طهارة متمكّنًا. قـال: وكان يكره أن يحـدّث في الطّريـق أو وهو قائم أو مستعجل، وقال: أحـبّ أن أفهّم حديث رسول الله ﷺ.

---

(٢٧) أمالي ابن سمعون (ص١٦٠)، المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص٣٩٢).

(٢٨) تعظيم قدر الصلاة (٦٦٩/٢)، حلية الأولياء (٣١٨/٦).

(٢٩) الساج الطيلسان الضخم الغليظ. العين (١٦٠/٦).

قـال ضرار بن مرّة: كانوا يكرهون أن يحدّثـوا على غير وضوء[٣٠]. ونحوه عن قتادة.

وكان الأعمش إذا حدّث وهو على غير وضوء تيمّم[٣١].

قـال ابن مهديٍّ: مشيتُ يومًا مع مالـك إلى العقيق، فسألته عن حديثٍ فانتهرنـي وقال لي: كنتَ في عيني أجلَّ مِن أنْ تسأل عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي[٣٢].

وسألـه جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديـثٍ وهو قائمٌ فأمر بحبسه، فقيل له: إنّه قاضٍ، قال: القاضي أحقُّ من أُدِّب[٣٣].

فصل

ومِن توقيرِ رسول الله ﷺ وبـرِّه برُّ آلِه وذرّيّته وأمّهاتِ المؤمنين أزواجه كما حضَّ عليـه ﷺ وسلكه السّلف الصّالح رضي الله عنهم، قـال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقـال تعالى ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

(٣٠) جامع بيان العلم وفضله (٢/١٢١٧)، وفيه (٢/١٢١٨) عن قتادة: «يستحب أن لا تقرأ الأحاديث التي عن رسول الله ﷺ إلا على طهور».

(٣١) المصدر السابق.

(٣٢) ترتيب المدارك (٢/٢٥).

(٣٣) انظر: بهجة المحافل (٢/٤٠٧).

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنشدكم الله أهل بيتي» ثلاثًا، قلنا لزيد: من أهل بيته؟ قال: آل عليٍّ وآل جعفرٍ وآل عَقِيلٍ وآل العبّاس[٣٤].

قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكانهم من النّبيّ ﷺ، وإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقّهم وحرمتهم بسببه.

وعن عمر بن أبي سَلَمة رضي الله عنهما قال: لمّا نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية - وذلك في بيت أمّ سلمة رضي الله عنها - دعا فاطمة وحسنًا وحسينًا، فجلّلهم بكساء وعليٌّ خلف ظهره رضي الله عنهم ثمّ قال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرًا»[٣٥].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لمّا نزلت آية المباهلة دعا النّبيّ ﷺ عليًّا وحسنًا وحسينًا وفاطمة وقال: «اللهمّ هؤلاء أهلي»[٣٦].

وقال النّبيّ ﷺ في عليٍّ رضي الله عنه: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهمّ وال من والاه وعادِ من عاداه»[٣٧].

---

(٣٤) صحيح مسلم (١٨٧٣/٨).

(٣٥) أخرجه الترمذي (٣٥١/٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٤٣/٢)، وقال الترمذي: «غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة»، ويشهد له ما مرّ في صحيح مسلم من حديث زيد بن أرقم.

(٣٦) صحيح مسلم (١٨٧١/٤).

(٣٧) أخرجه ابن ماجه (٤٥/١)، وأحمد (٧١/٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٠٤/٢)، والبزار في مسنده (٢١١/١٠)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٥/٥)، وابن حبان في صحيحه (٣٧٦/١٥)، وغيرهم، وهو حديث صحيح كثير الطرق، وأفرده الذهبي في جزء (كما في تذكرة الحفاظ ١٦٤/٣)، وأشار في ترجمة المطلب بن زياد من السير (٣٣٥/٨) إلى أنه متواتر المتن.

وقال فيه: «لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافقٌ»[٣٨].

وكان يأخذ بيد أسامة بن زيد والحسن رضي الله عنهما ويقول: «اللهمّ إنّي أُحبُّهما فأَحِبَّهما»[٣٩].

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «ارقبوا محمّدًا في أهل بيته»[٤٠].

وقال أيضًا: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحبّ إليّ أن أَصِلَ مِنْ قرابتي[٤١].

وقال ﷺ: «أحبَّ الله من أحبّ حسينًا»[٤٢].

وقال ﷺ: «من أهان قريشًا أهانه الله»[٤٣].

وقال ﷺ: «قدِّموا قريشًا ولا تقدَّموها»[٤٤].

وقال ﷺ لأمّ سلمة رضي الله عنها: «لا تؤذيني في عائشة»[٤٥].

---

(٣٨) صحيح مسلم (١/٨٦)، ولفظه: «وإنه لعهد النبي الأمي إليّ أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق».

(٣٩) صحيح البخاري (٥/٢٤).

(٤٠) صحيح البخاري (٥/٢٠).

(٤١) صحيح البخاري (٥/٢٠)، وصحيح مسلم (٣/١٣٨٠).

(٤٢) في المطبوع «حسنا»، والتصويب من مصادر التخريج، وأخرجه الترمذي (٥/٦٥٨)، وابن ماجه (١/٥١)، وابن أبي شيبة (٢/٣٠٧) في مسنده، وأحمد (٢٩/١٠٣)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٣٣)، والدولابي في الكنى والأسماء (١/٢٧٠)، وابن حبان في صحيحه (١٥/٤٢٨)، وغيرهم، وأورده الألباني في الصحيحة [١٢٢٧].

(٤٣) أخرجه الشافعي في مسنده (ص٢٧٨)، وأحمد (١/٥٠٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/٦٣٤)، والبزار (٢/٢٨)، والدينوري في المجالسة (٦/١٩٢)، وابن حبان في صحيحه (١٤/١٦٦)، والطبراني في الكبير (١/٢٥٩)، والأوسط (٦/١٠٠)، والحاكم في المستدرك (٤/٨٣)، وأورده الألباني في الصحيحة [١١٧٨].

(٤٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٢/٦٢٢)، والبزار (٢/١١٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/٦٣٧)، وغيرهم، وصححه الألباني في الإرواء (٢/٣٩٥) بمجموع طرقه.

(٤٥) صحيح البخاري (٣/١٥٦).

وعــن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: رأيت أبا بكــر رضي الله عنه وجعل الحسن على عنقه وهو يقول:

بأبــي شبيــهٌ بالنّبــي ليســ شبيهًــا بعلــي

وعليّ رضي الله عنه يضحك[٤٦].

وروي عــن عبد الله بن حسن بن حسين قــال: أتيت عمر بن عبد العزيز في حاجــة، فقال لي: إذا كان لك حاجة فأرسل إليّ أو اكتب؛ فإنّي أستحيي من الله أن يراك على بابي[٤٧].

وعن الشعبــي قال: صلَّى زيد بن ثابت على جنازة أمّه ثمّ قرّبت له بغلته ليركبهــا، فجاء ابن عبّاس، فأخذ بركابه فقال زيد: خلِّ عنه يا ابن عمِّ رسول الله، فقال: هكذا نفعــل بالعلماء، فقبَّل زيد يد ابن عبّاس وقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا[٤٨].

ولما فرض عمــر بن الخطّاب لابنه عبد الله في ثلاثة آلاف ولأسامة بن زيد في ثلاثــة آلاف وخمسمائة قال عبد الله لأبيــه: لم فضّلته؟ فوالله ما سبقني إلى مشهد، فقال له: لأنّ زيدًا كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وأسامة أحب إليه منك، فآثرت حبّ رسول الله ﷺ على حبّي[٤٩].

---

(٤٦) صحيح البخاري (٥/٢٦).

(٤٧) انظر: تاريخ دمشق (٤٥/٢٢٢)، الجوهرة في نسب النبي ﷺ لمحمد بن أبي بكر البرّي (٢/٢١٠).

(٤٨) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/١٠٧)، والحاكم في المستدرك (٣/٤٨٤)، والبيهقي في المدخل (١/١٣٧)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/٥١٤).

(٤٩) أخرجه الترمذي (٥/٦٧٥)، وأحمد في فضائل الصحابة (١/٣٦٤)، وابن زنجويه في الأموال (/٥٠٧)، وابن حبان في صحيحه (١٥/٥١٧)، وغيرهم.

فصل

ومِن توقيره وبرّه ﷺ إعظامُ أمْكِنَتِه ومعاهِدِه ﷺ، وتوقيرُ أصحابِه رضي الله عنهم وبرُّهم ومعرفةُ حقِّهم والاقتداءُ بهم وحسنُ الثّناءِ عليهم والاستغفار لهم والإمساك عمّا شجر بينهم ومعاداةُ مَن عاداهم والإضرابُ عن أخبار المؤرِّخين وجهلةِ الرُّواة وضُلَّال الشّيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم، وأن يلتمس لهم فيما نقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التّأويلات ويخرّج لهم أصوب المخارج؛ إذ هم أهل ذلك، ولا يُذْكَر أحدٌ منهم بسوء ولا يُغْمَص عليه أمرٌ، بل تُذْكَرُ حسناتُهم وفضائلُهم وحَميدُ سِيَرِهم ويُسْكَتُ عمّا وراء ذلك.

كما قال ﷺ: «إذا ذُكِرَ أصحابي فأَمْسِكُوا»[٥٠].

قال الله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى ﴿لَّقَدْ رَضِىَ

(٥٠) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (ص٣٥٠)، والطبراني في الكبير (١٠/١٩٨)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/١٤٢)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٠٨)، وغيرهم، وحسنه بمجموع طرقه الألباني في الصحيحة [٣٤].

ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال تعالى ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «اقتدوا باللّذين من بعدي أبي بكرٍ وعمر»(٥١).

وقال ﷺ: «لا تسبّوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه»(٥٢).

وقال مالك بن أنس وغيره: من أبغض الصّحابة وسبّهم فليس له في فَيْءِ المسلمين حقٌّ، ونزع بآية الحشر ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]، وقال: من غاظه أصحاب محمّد فهو كافر، قال الله تعالى ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩](٥٣).

وقال عبد الله بن المبارك: خصلتان من كانتا فيه نجا: الصّدقُ وحبُّ أصحاب محمّد ﷺ(٥٤).

---

(٥١) أخرجه الترمذي (٦٠٩/٥)، وابن ماجه (٣٧/١)، والحميدي في مسنده (٤١٣/١)، وأحمد (٣١٠/٣٨)، وفي فضائل الصحابة (١٨٦/١)، والبزار في مسنده (٢٤٨/٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٥٦/٣)، وابن حبان في صحيحه (٣٢٨/١٥)، وغيرهم، وأورده الألباني في الصحيحة [١٢٣٣].

(٥٢) صحيح البخاري (٨/٥)، وصحيح مسلم (١٩٦٧/٤).

(٥٣) نقل ذلك عن سفيان بن عيينة أيضًا كما في النهي عن سب الأصحاب للضياء المقدسي (ص٨٦)، وعبد الله بن إدريس الأودي كما في الصارم المسلول (ص٥٧٩).

(٥٤) الشريعة للآجري (١٦٨٧/٤)، الطيوريات للسِّلَفي (٣٣١/٢).

قال أيّوب السّختيانيّ: من أحبّ أبا بكر فقد أقام الدّين، ومن أحبّ عمر فقد أوضح السّبيل، ومن أحبّ عثمان فقد استضاء بنور الله، ومن أحبّ عليًّا فقد أخذ بالعروة الوثقى، ومن أحسن الثّناء على أصحاب محمّد ﷺ فقد برئ من النّفاق، ومن انتقص أحدًا منهم فهو مبتدع مخالف للسّنّة والسّلف الصّالح، وأخاف أن لا يصعد له عمل إلى السّماء حتّى يحبّهم جميعًا ويكون قلبه سليمًا(٥٥).

وقال رجل للمعافى بن عمران: أين عمر بن عبد العزيز من معاوية، فغضب وقال: لا يقاس بأصحاب النّبيّ ﷺ أحد، معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله(٥٦).

قال مالك: هذا النّبيّ مؤدّب الخلق الذي هدانا الله به وجعله رحمة للعالمين يخرج في جوف اللّيل إلى البقيع، فيدعو لهم ويستغفر كالمودّع لهم، وبذلك أمره الله وأمر النبي ﷺ بحبّهم وموالاتهم ومعاداة مَنْ عاداهم.

قال سهل بن عبد الله التّستريّ: لم يؤمن بالرّسول من لم يوقّر أصحابه ولم يُعزِّ أوامره(٥٧).

(٥٥) الورع للإمام أحمد (ص٩٣)، الشريعة للآجري (١٧٧٣/٤)، شرح أصول الاعتقاد للالكائي (١٣١٦/٧)، الحجة في بيان المحجة للخلال (٣٩٥/٢)، إلى قوله: «فقد برئ من النفاق»، .

(٥٦) الشريعة للآجري (٢٤٦٦/٥)، شرح أصول الاعتقاد للالكائي (١٥٣١/٨).

(٥٧) نقله القسطلاني في المواهب اللدنية (٧٠٦/٢).

وروي عن صفيّة بنت نجدة قالت: كان لأبي محذورة قَصَّةٌ في مقدَّم رأسه إذا قعــد وأرسلها أصابت الأرض، فقيل له: ألا تحلقها، فقال: لم أكن بالذي أحلقها وقد مسّها رسول الله ﷺ بيده[٥٨].

وفي الصّحيح أنّه ﷺ قال في المدينة: «من أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا»[٥٩].

وقال ﷺ «من حلف على منبري كاذبًا فليتبوأ مقعده من النّار»[٦٠].

(٥٨) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١٧٨/٤)، وأبو القاسم البغوي في معجم الصحابة (٢١٥/١)، والطبراني في الكبير (١٧٦/٧)، والحاكم في المستدرك (٥٨٩/٣)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١٤١١/٣).

(٥٩) صحيح البخاري (٢٠/٣)، وصحيح مسلم (٩٩٤/٢).

(٦٠) أخرجه أبو داود (٢٢١/٢)، وابن ماجه (٧٧٩/٢)، ومالك في الموطأ (١٠٥٢/٤)، والشافعي في مسنده (ص١٥٣)، وأحمد (٥٤/٢٣)، وابن حبان في صحيحه (٢١٠/١٠) وغيرهم، وإسناده قوي.

الباب الثامن في حكم الصلاة عليه ﷺ والتسليم وفرض ذلك وفضيلته

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: معناه أنّ الله وملائكته يُبارِكون على النّبيّ، وقال المبرّد: وأصل الصّلاة التّرحّم، فهي من الله رحمة ومن الملائكة رقّة واستدعاء للرّحمة من الله[1].

وقد ورد في الحديث صفة صلاة الملائكة على مَنْ جلس ينتظر الصّلاة: اللهمّ اغفر له اللهمّ ارحمه[2]، فهذا دعاء.

وقال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدّعاء[3].

وقد فرّق النّبيّ ﷺ في حديث تعليم الصّلاة عليه بين لفظ الصّلاة ولفظ البركة، فدلَّ أنهما بمعنيين.

(١) إعراب القرآن لأبي جعفر النّحّاس (٣/٢١٨).
(٢) صحيح مسلم (١/٤٥٩).
(٣) تفسير مجاهد (ص٥٥٢)، تفسير ابن أبي حاتم (٩/٣١٣٩).

وأمّا التسليم الذي أمر الله تعالى به عباده فقال القاضي أبو بكر ابن بكير: نزلت هذه الآية على النّبيّ ﷺ، فأمر الله أصحابه أن يسلّموا عليه، وكذلك من بعدهم أُمِرُوا أن يسلّموا على النّبيّ ﷺ عند حضورهم قبره وعند ذكره.

وفي معنى السّلام عليه ثلاثة وجوه:

أحدها: السّلامة لك ومعك، ويكون السّلام مصدرًا كاللّذاذ واللّذاذة.

الثّاني: أي السّلام على حفظك ورعايتك متولٍّ له وكفيل به، ويكون هنا السّلام اسم الله.

الثّالث: أنّ السّلام بمعنى المسالمة له والانقياد، كما قال ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فصل في حكم الصلاة على النبي ﷺ

اعلم أنّ الصّلاة على النّبيّ ﷺ فرض على الجملة غير محدَّد بوقتٍ؛ لأمر الله تعالى بالصّلاة عليه، وحمل الأئمّة والعلماء له على الوجوب وأجمعوا عليه.

وحكى أبو جعفر الطّبريّ أنّ محمل الآية عنده على النّدب وادّعى فيه الإجماع[٤]، ولعلّه فيما زاد على مرّة، والواجب منه الذي يسقط به الحرج

(٤) تهذيب الآثار للطبري (ص ٢٤٢، الجزء المفقود، ط. دار المأمون، تحقيق: علي رضا).

ومأثــم ترك الفرض مرّةً، كالشّهادة له بالنّبوّة، وما عدا ذلك فمندوب مرغّب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله.

قال القاضي أبو الحسن ابن القصّار: المشهور عن أصحابنا أنّ ذلك واجبٌ في الجملة على الإنسان، وفرضٌ عليه أن يأتي بها مرّةً من دهره مع القدرة على ذلك[٥].

وقــال القاضــي أبو بكر ابن بكير: افترض الله على خلقــه أن يصلّوا على نبيّه ويسلّموا تسليمًــا ولم يجعل ذلك لوقتٍ معلومٍ، فالواجب أن يُكْثِرَ المرءُ منها ولا يَغْفُلَ عنها.

وقــال أصحاب الشّافعيّ: الفرض منها الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ هو في الصّلاة، وقالوا: وأمّا في غيرها فلا خلاف أنّها غير واجبة[٦].

فصل في المواطن التي يستحب فيها الصّلاة والسّلام على النّبيّ ﷺ

ويرغَّب مِن ذلك في الصّلاة كما قدّمناه، وذلك بعد التّشهّد وقبل الدّعاء.

عــن فَضالة بن عُبَيْدٍ رضي الله عنه قال: سمع النّبيّ ﷺ رجلًا يدعو في صلاته فلم يصلِّ على النبي ﷺ فقال النّبيّ ﷺ: «عجل هذا»، ثمّ دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلّــى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثّناء عليه ثمّ ليصلّ على النّبيّ ﷺ ثمّ ليَدْعُ بعدُ بما شاء»[٧].

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١١٣/١٠). وانظر: التمهيد (١٩١/١٦).

(٦) انظر: المجموع شرح المهذب (٤٦٧/٣).

(٧) أخرجه الترمذي (٥١٧/٥)، وأحمد (٣٦٣/٣٩)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٠/٥)، والحاكم في المستدرك

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئًا فليبدأ بمدحه والثّناء عليه بما هو أهله، ثمّ يصلِّ على النبي ﷺ، ثمّ ليسألْ فإنّه أَجْدَرُ أنْ يَنْجَحَ[٨].

وقال ابن عطاء: للدّعاء أركانٌ وأجنحةٌ وأسبابٌ وأوقاتٌ، فإنْ وافق أركانَه قوي وإن وافق أجنحتَه طار في السّماء، وإن وافق مواقيتَه فاز، وإن وافق أسبابه أنجح، فأركانه حضور القلب والرّقّة والاستكانة والخشوع وتعلّق القلب بالله وقطعه من الأسباب، وأجنحته الصّدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصّلاة على محمّد ﷺ.

ومن مواطن الصّلاة عليه عند ذكره وسماع اسمه أو كتابه أو عند الأذان.

وقد قال ﷺ «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذكرت عنده فلم يصلِّ علي»[٩].

وكره ابن حبيب ذكر النّبيّ ﷺ عند الذّبح، وكره سحنون الصّلاة عليه عند التّعجّب، وقال: لا يصلّى عليه إلّا على طريق الاحتساب وطلب الثواب.

(١/٣٥٤)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٨) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٠/٤٤١)، وقوّاه الألباني في الصحيحة [٣٢٠٤] بما رواه الترمذي (٢/٤٨٨) وغيره وصححه من طريق زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «كنت أصلّي والنّبيّ ﷺ وأبو بكرٍ وعمر معه، فلمّا جلست بدأت بالثّناء على الله، ثمّ الصّلاة على النّبيّ ﷺ، ثمّ دعوت لنفسي، فقال النّبيّ ﷺ: «سل تعطه، سل تعطه».

(٩) أخرجه الترمذي (٥/٥٥٠)، وأحمد (١٢/٤٢١)، والبزار (١٥/١٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٨٩)، والحاكم في المستدرك (١/٧٣٤)، وغيرهم، وصححه الألباني في الإرواء (١/٣٦).

وروى النّسائـي عن أوس بن أوس رضي الله عنه عـن النّبيّ ﷺ الأمر بالإكثار من الصّلاة عليه يوم الجمعة[١٠].

ومن مواطن الصّلاة والسّلام دخولُ المسجد. قال أبو إسحاق ابن شعبان: وينبغـي لمن دخل المسجد أن يصلّي على النبي ﷺ وعلى آله، ويترحّم عليه ويبـارك عليه وعلـى آله ويسلّم تسليمًا، ويقول: اللهـم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبـواب رحمتـك، وإذا خرج فعـل مثل ذلك وجعـل موضع «رحمتك» «فضلك».

ومن مواطن الصّلاة عليه أيضًا الصّلاةُ على الجنائز.

وذكر عن أبي أمامة رضي الله عنه أنّها من السّنّة[١١].

ومـن مواطن الصّلاة التي مضى عليها عمـل الأمّة ولم تنكرها: الصّلاة على النّبيّ ﷺ في الرّسائل وما يكتب بعد البسملة، ولم يكن هذا في الصّدر الأوّل وأُحْـدِثَ عنـد ولاية بني هاشم[١٢]، فمضى به عمـل النّاس في أقطار الأرض ومنهم من يختم به أيضًا الكتب.

ومن مواطن السّلام على النّبيّ ﷺ تشهُّدُ الصّلاة.

عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «إذا صلّى أحدكم فليقل: التّحيّـات لله والصّلـوات والطّيّبـات، السّلام عليك أيهـا النبي ورحمة الله

(١٠) أخرجه أبو داود (١/٢٧٥)، والنسائي (٣/٩١)، وابن ماجه (١/٣٤٥)، والدارمي في سننه (٢/٩٨١)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/١١٨)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٩١)، وغيرهم، وهو صحيح.

(١١) مصنف ابن أبي شيبة (٢/٤٩٠).

(١٢) يقصد بني العباس من بني هاشم.

وبركاته، السلام علينا وعلى عبـاد الله الصّالحين. فإنّكم إذا قلتموها أصابتْ كلَّ عبدٍ صالحٍ في السّماء والأرض[١٣].

هذا أحد مواطن التّسليم عليه، وسنّته أوّل التّشهّد.

وقد روى مالكٌ عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه كان يقول ذلك إذا فرغ من تشهّدٍ وأراد أن يسلّم[١٤].

واستحـبّ مالك في المبسـوط[١٥] أن يسلّم بمثل ذلك قبـل السّلام. قال محمّـد بن مسلمة: أراد ما جاء عن عائشة وابـن عمر رضي الله عنهم أنهما كانا يقولان عنـد سلامهما: السّلام عليك أيّها النبي ورحمـة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين، السّلام عليكم[١٦].

واستحـبّ أهل العلـم أن ينوي الإنسان حين سلامـه كلَّ عبدٍ صالحٍ في السّماء والأرض من الملائكة وبني آدم والجنّ.

قال مالك في المجموعة[١٧]: وأحبّ للمأموم إذا سلّم إمامه أن يقول السّلام على النّبيّ ورحمة الله وبركاته السّلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين السّلام عليكم.

---

(١٣) صحيح البخاري (١/١٦٦)، وصحيح مسلم (١/٣٠١).

(١٤) الموطأ (ص٩١)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(١٥) للقاضي إسماعيل بن إسحاق الأزدي الجهضمي، من حفدة الإمام حماد بن زيد، توفي سنة ٢٨٢هـ، والكتاب مفقود.

(١٦) انظر: معرفة السنن والآثار (٣/٦٠).

(١٧) هو كتاب المجموعة على مذهب مالك وأصحابه للعلامة محمد بن إبراهيم بن عبدوس المالكي. قال ابن فرحون: «كان ثقة إماماً في الفقه صالحاً زاهداً ظاهر الخشوع ذا ورع وتواضع... وكان نظيرًا لمحمد بن المواز، وألف كتابًا

فصل في كيفية الصلاة عليه ﷺ والتسليم

عن عمرو بن سُلَيم الزُّرَقِيّ أنّه قال: أخبرني أبو حُمَيدٍ السّاعديّ رضي الله عنه أنّهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلّي عليك؟ فقال: «قولوا اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وأزواجه وذريته كما صلّيت على آل إبراهيم، وبارك على محمّدٍ وأزواجه وذرّيّته كما باركت على آل إبراهيم، إنّك حميدٌ مجيدٌ»(١٨).

وفي رواية مالك عن أبي مسعود الأنصاريّ رضي الله عنه قال: «قولوا اللهمّ صلِّ على محمّدٍ وعلى آله كما صلّيت على آل إبراهيم، وبارك على محمّدٍ وعلى آل محمّدٍ كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنّك حميدٌ مجيدٌ، والسّلام كما قد علّمتم»(١٩).

وفي رواية كعب بن عُجرة رضي الله عنه: «اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآل محمّدٍ كما صلّيت على إبراهيم وبارك على محمّدٍ وآل محمّدٍ كما باركت على إبراهيم إنّك حميدٌ مجيدٌ»(٢٠).

وعن عقبة بن عمرو رضي الله عنه في حديثه «اللهمّ صلّ على محمّدٍ النّبيّ الأمّيّ وعلى آل محمّدٍ»(٢١).

شريفًا سماه المجموعة على مذهب مالك وأصحابه، أعجلته المنية قبل تمامه»، توفي سنة ٢٦٠هـ. الديباج المذهب (٢/٢٧٤).

(١٨) صحيح البخاري (٤/١٤٦)، وصحيح مسلم (١/٣٠٦).

(١٩) صحيح مسلم (١/٣٠٥).

(٢٠) صحيح البخاري (٤/١٤٦)، وصحيح مسلم (١/٣٠٥).

(٢١) أخرجه أبو داود (١/٢٥٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/٢٤٧)، وأحمد (٢٨/٣٠٤)، والنسائي في الكبرى (٢/٢٠٩)، وفي عمل اليوم والليلة (ص١٥٩)، وابن خزيمة في صحيحه (١/٣٥١)، والحاكم في المستدرك

وفي روايـة زيـد بن خارجة الأنصـاريّ رضي الله عنه قال: سألـت النّبيّ ﷺ كيف نصلّـي عليك؟ فقال: «صلُّوا واجتهِدوا في الدّعاء ثمّ قولوا: اللهمَّ بارِكْ على محمّدٍ وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنّك حميدٌ مجيدٌ»[٢٢].

وعـن طاوس عن ابن عبّاس رضـي الله عنهما أنّه كان يقـول: اللهمّ تقبّل شفاعـة محمّد الكـبرى وارفع درجته العليا وآتِه سُؤْلَـه في الآخرة والأولى كما آتيت إبراهيم وموسى[٢٣].

وقوله: «والسّلام كما قد عُلِّمْتم» هو ما علّمهم في التّشهّد من قوله «السّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

وقد ذهب أبو عمر ابن عبد البرّ وغيره إلى أنّه لا يدعى للنّبيّ ﷺ بالرّحمة، وإنّمـا يدعـى لـه بالصّلاة والبركـة الّتي تختصّ بـه ويدعى لغـيره بالرّحمة والمغفرة[٢٤].

فصل في فضيلة الصّلاة على النّبيّ ﷺ والتسليم عليه والدّعاء له

عن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتـم المؤذِّن فقولـوا مثل ما يقول، وصلُّوا علـيّ؛ فإنّه من صلَّى عليّ مـرّةً واحدةً صلّى الله عليه عشرًا، ثمّ سَلُـوا لي الوَسِيلة؛ فإنها منزلةٌ في الجنّة

(١/٤٠١)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢٢) أخرجه أحمد (٣/٢٣٩)، والنسائي في الكبرى (٩/١٤١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/٥٦) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦/٧)، والدولابي في الكنى والأسماء (٢/٨٠٩)، وأورده الألباني في صحيح الجامع (٢/٧٠٦).

(٢٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/٢١١)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/٩٠٠)، وإسناده صحيح.

(٢٤) الاستذكار (٢/٣٢٤)، التمهيد (١٧/٣٠٤).

لا تنبغي إلّا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»[٢٥].

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: «من صلّى عليّ صلاةً صلى الله عليه عشر صلواتٍ وحطّ عنه عشر خطيئات ورفع له عشر درجاتٍ»[٢٦].

وفي رواية «وكتب له عشر حسنات»[٢٧].

ومـن رواية عبد الرّحمن بن عوف رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال «لقيت جبريل فقال لي: إنّي أبشّرك أنّ الله تعالى يقول: من سلّم عليك سلّمت عليه، ومن صلّى عليك صلّيت عليه»[٢٨].

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «أولى النّاس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاةً»[٢٩].

وعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صلَّى صلاةً صلَّتْ عليه الملائكةُ ما صلَّى عليَّ، فلْيُقِلَّ مِن ذلك عبدٌ أو ليُكْثِرْ»[٣٠].

وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع اللّيل قام

(٢٥) صحيح مسلم (١/٢٨٨).

(٢٦) أخرجه النسائي (٣/٥٠)، وأحمد (٢١/٢٨٨)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٨٦)، والحاكم في المستدرك (١/٧٣٥) وصححه.

(٢٧) عمل اليوم والليلة للنسائي (١/١٦٦)، ومسند الروياني (٢/١٦٠).

(٢٨) أخرجه أحمد (٣/٢٠٠)، وعبد بن حميد في مسنده (المنتخب ص٨٢)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/٢٤٩)، والحاكم في المستدرك (١/٣٤٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢٩) أخرجه الترمذي (٢/٣٥٤)، وأبو يعلى في مسنده (٨/٤٢٧)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٩٢)، وغيرهم، وضعفه الألباني في تعليقه على المشكاة (١/٢٩١)، لكنه حسنه لغيره في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٢/٢٥٨)، وهو أولى.

(٣٠) أخرجه ابن ماجه (١/٢٩٤)، وابن المبارك في الزهد (ص٣٦٣)، وعلي بن الجعد في مسنده (ص١٣٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢/٢٥٣)، وأحمد (٢٤/٤٥١) وغيرهم، وحسَّنه ابن القيم في جِلاء الأفهام (ص٧٥).

فقـال: يا أيّها النّاس، اذكروا الله، جاءتِ الرّاجفةُ تتبعها الرّادفةُ جاء الموت بما فيه. فقال أبيّ بـن كعب: يا رسول الله، إنّي أكثر الصّلاة عليك فكم أجعل لـك من صلاتي؟ قال: ما شئت، قال: الرّبع؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قال: الثّلث؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو خير، قال: النّصف؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قال: الثّلثين؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قال: يا رسول الله، فأجعل صلاتي كلّها لك قال: إذًا تكفى ويغفر ذنبك[٣١].

فصل في ذم من لم يصلّ على النّبيّ ﷺ وإثمه

عـن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «رَغِمَ أنـفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عنـده فلم يصلِّ عليّ، ورغم أنف رجلٍ دخل رمضان ثمّ انسلخ قبل أن يغفر لـه، ورغم أنف رجلٍ أدرك عنـده أبواه الكِبَرَ فلم يُدْخِـلاه الجنّة». قال عبد الرّحمن: وأظنّه قال: «أو أحدهما»[٣٢].

وعـن عليّ بن أبـي طالبٍ رضي الله عنه عن النّبـيّ ﷺ أنّه قـال: «البخيل الذي ذُكِرْتُ عنده فلم يصلِّ عليّ»[٣٣].

---

(٣١) أخرجه الترمذي (٤/٦٣٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢/٢٥٣)، وأحمد (٢٥/١٦٦)، وغيرهم، وحسَّنه ابن القيم في جِلاء الأفهام (ص٧٨)، وكذا الألباني في تعليقه على المشكاة (١/٢٩٣). وقول السائل: «أجعل لك من صلاتي؟» يعني: من دعائي، انظر: مجموع الفتاوى (١/٣٤٩-٣٥٠).

(٣٢) أخرجه الترمذي (٥/٥٥٠)، وأحمد (١٢/٤٢١)، والبزار (١٥/١٤٤)، وابن الأعرابي في معجمه (٢/٦٦٤)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٨٩)، والحاكم في المستدرك (١/٧٣٤) وغيرهم، وهو حديث صحيح.

(٣٣) أخرجه الترمذي (٥/٥٥١) وقال: «حسن صحيح غريب»، وأحمد (٣/٢٥٨)، والبزار (٤/١٨٥)، والنسائي في الكبرى (٧/٢٩١)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٩٠)، والحاكم في المستدرك (١/٧٣٤) وصححه، وكذا الألباني في الإرواء (١/٣٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «أيّما قوم جلسوا مجلسًا ثمّ تفرّقوا قبل أن يذكروا الله ويصلّوا على النّبيّ ﷺ كانت عليهم من الله تِرَةٌ، إن شاء عذّبهم وإن شاء غفر لهم»[٣٤].

وعن أبي سعيدٍ رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «لا يجلس قومٌ مجلسًا لا يصلّون فيه على النّبيّ ﷺ إلّا كان عليهم حسرةً، وإن دخلوا الجنّة لما يرون من الثواب»[٣٥].

فصل في تخصيصه ﷺ بتبليغ صلاة من صلّى عليه أو سلم من الأنام

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما مِن أحدٍ يسلّم عليّ إلّا ردّ الله عليّ روحي حتّى أردّ عليه السّلام»[٣٦].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله ملائكةً سيّاحين في الأرض يُبلِّغوني عن أمّتي السّلام»[٣٧].

---

(٣٤) أخرجه بلفظ آخر الترمذي (٣٣٣/٥)، وأحمد (٤٧٥/١٥)، وغيرهم وهو حديث صحيح، وهو عند أبي داود (٢٦٤/٤، ٣١٤)، والنسائي في الكبرى (١٥٥/٩، ١٥٦، ٣٠١) وغيرهم دون ذكر الصلاة على النبي ﷺ.

(٣٥) أخرجه علي بن الجعد في مسنده (ص١٣٠)، وابن أبي عاصم في الصلاة (ص٦٥)، والنسائي في الكبرى (١٥٧/٩)، وعمل اليوم والليلة (ص٣١٤)، ابن قتيبة في المجالسة (ص٤٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٣/٣)، وغيرهم، وهو صحيح.

(٣٦) أخرجه أبو داود (٢١٨/٢)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٤٥٢/١)، وأحمد (٤٧٧/١٦)، والطبراني في الأوسط (٢٦٢/٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٩/٣)، وغيرهم، وإسناده جيد.

(٣٧) أخرجه النسائي (٤٣/٣)، وأحمد (١٨٣/٦)، والدارمي في السنن (١٨٢٦/٣)، وابن حبان في صحيحه (١٩٥/٣)، والحاكم في المستدرك (٤٥٦/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في الصحيحة [٢٨٥٣].

وعن الحسن رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال «حيثما كنتم فصلُّوا عليّ فإنّ صلاتكم تبلغني»[٣٨].

وفي حديث أوس رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «أكثروا عليّ من الصّلاة يوم الجمعة؛ فإنّ صلاتكم معروضةٌ عليّ»[٣٩].

فصل في الاختلاف في الصّلاة على غير النّبيّ ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السّلام

الذي ذهب إليه المحقّقون ما قاله مالك وسفيان رحمهما الله، وروي عن ابن عبّاس، واختاره غيرُ واحد من الفقهاء والمتكلّمين أنّه لا يصلَّى على غير الأنبياء عند ذكرهم، بل هو شيءٌ يختصُّ به الأنبياء توقيرًا وتعزيزًا كما يُخَصُّ الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقديس والتعظيم ولا يشاركه فيه غيره، كذلك يجب تخصيص النّبيّ ﷺ وسائر الأنبياء بالصّلاة والتّسليم ولا يشارك فيه سواهم، كما أمر الله به بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ويُذْكَرُ مَنْ سِوَاهم مِن الأئمّة وغيرهم بالغفران والرّضى كما قال تعالى ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وقال ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وأيضًا فهو أمرٌ لم يكن معروفًا

(٣٨) أخرجه ابن أبي عاصم في الصلاة على النبي (ص٢٩)، والطبراني في الكبير (٨٢/٣)، والحسن هو ابن علي بن أبي طالب، وأورده الألباني في صحيح الجامع (٦٠٤/١). وله شاهد من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ، أخرجه أبو داود (٢١٨/٢)، وأحمد (٤٠٣/١٠).

(٣٩) أخرجه أبو داود (٢٧٥/١)، وابن ماجه (٣٤٥/١)، وأحمد (٨٤/٢٦)، وابن خزيمة في صحيحه (١١٨/٣)، وابن حبان في صحيحه (١٩١/٣)، وغيرهم، والحاكم في المستدرك (٤١٣/١)، وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

في الصّدر الأوّل كما قال أبو عمران، وإنّما أحدثه الرّافضة والمتشيِّعة في بعض الأئمّة، فشاركوهم عند الذّكر لهم بالصّلاة وساوَوْهم بالنّبيّ ﷺ في ذلك، وأيضًا فإنّ التّشبُّه بأهل البدع منهيٌّ عنه فتجب مخالفتهم فيما التزموه من ذلك، وذكر الصّلاة على الآل والأزواج مع النّبيّ ﷺ بحكم التبع والإضافة إليه، لا على التّخصيص.

وصلاة النّبيّ ﷺ على من صلّى عليه مَجْراها مجرى الدّعاء وحُسن المواجهة ليس فيها معنى التّعظيم والتّوقير. قالوا: وقد قال تعالى ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، فكذلك يجب أن يكون الدّعاء له مخالفًا لدعاء النّاس بعضهم لبعض.

فصل فيما يلزم من دخل مسجد النّبيّ ﷺ من الأدب وفضله وفضل الصّلاة فيه

قال الله تعالى ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

سئل النّبيّ ﷺ: أيّ مسجدٍ هو؟ قال: «مسجدي هذا»(٤٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «لا تشدّ الرّحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»(٤١).

(٤٠) صحيح مسلم (٢/١٠١٥).

(٤١) صحيح البخاري (٢/٦٠)، وصحيح مسلم (٢/١٠١٤).

وعن فاطمة رضي الله عنها بنت النّبيّ ﷺ أن النّبيّ ﷺ قال: «إذا دخلت المسجد فصلّ على النّبيّ ﷺ وقل اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وإذا خرجت فصلّ على النّبيّ ﷺ وقل اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك»[٤٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنّ النّبيّ ﷺ كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشّيطان الرّجيم»[٤٣].

وقال مالك: سمع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه صوتًا في المسجد فدعا بصاحبه فقال: ممّن أنت؟ قال: رجل من ثقيف، قال لو كنت من هاتين القريتين لأدّبتك؛ إنّ مسجدنا لا يرفع فيه الصوت[٤٤].

قال محمّد بن مسلمة: لا ينبغي لأحد أن يعتمد المسجد برفع الصّوت ولا بشيءٍ من الأذى وأن ينزّه عمّا يكره.

والعلماء كلّهم متّفقون أنّ حكم سائر المساجد هذا الحكم.

(٤٢) أخرجه الترمذي (٢/١٢٧)، وابن ماجه (١/٢٥٣)، وعبد الرزاق في المصنف (١/٤٢٥)، وأحمد (٤٤/١٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/١٢١)، وفي إسناده ضعف، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (١/٢٨٤) بمجموع طرقه.

(٤٣) أخرجه أبو داود (١/١٢٧)، وحسنه النووي في الأذكار (ص٨٠)، وأورده الألباني في صحيح أبي داود [٤٨٥].

(٤٤) ورد معناه في صحيح البخاري (١/١٠١) بلفظ: «عن السّائب بن يزيد، قال: كنت قائمًا في المسجد فحصبني رجلٌ، فنظرت فإذا عمر بن الخطّاب، فقال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، قال: من أنتما - أو من أين أنتما؟ - قالا: من أهل الطّائف، قال: «لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ».

وقـال مالـك في المبسوط: لا بأس لمن قَدِمَ مِن سفـرٍ أو خرج إلى سفرٍ أنْ يقـفَ على قبر النّبيّ ﷺ، فيصلِّيَ عليه ويدعوَ له ولأبي بكر وعمر، فقيل له: إنّ ناسًـا مِن أهل المدينـة لا يَقْدَمون مِن سفـرٍ ولا يريدونه، يفعلون ذلك في اليوم مرّة أو أكثر وربّما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرّة أو المرّتين أو أكثر عند القبر، فيسلِّمون ويدعون ساعة، فقال: لم يبلغني هذا عن أحدٍ مِن أهل الفقه ببلدنـا، وتركُه واسعٌ ولا يُصْلحُ آخرَ هذه الأمّة إلّا ما أصلح أوَّلها، ولم يبلغني عـن أوّل هذه الأمّة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك. ويُكْرَه إلّا لمن جاء مِن سفر أو أراده. قال ابن القاسم: ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوها أتَوُا القبر فسلَّموا، قال: وذلك رأيي.

وقـال ﷺ: «اللهـمّ لا تجعل قبري وثنًـا يُعْبَد، اشتدَّ غضـبُ الله على قومٍ اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وقال «لا تجعلوا قبري عيدًا».

الباب التاسع فيما يجب للنّبيّ ﷺ وما يستحيل في حقّه أو يجوز عليه وما يمتنع أو يصحّ من الأحوال البشريّة أن يضاف إليه

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] . وقال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

فمحمّد ﷺ وسائر الأنبياء مِن البشر أُرْسِلوا إلى البشر، ولولا ذلك لما أطاق النّاس مقاومتهم والقبول عنهم ومخاطبتهم. قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام: ٩]، أي: لما كان إلا في صورة البشر الذين يمكنكم مخالطتهم؛ إذ لا تطيقون مقاومة الملك ومخاطبته ورؤيته إذا كان على صورته.

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥]، أي: لا يمكن في سنّة الله إرسال الملك إلّا لمن هو مِن جنسه أو مَنْ خَصَّه الله تعالى واصطفاه وقواه على

مقاومتــه، كالأنبياء والرســل؛ فالأنبياء والرّسل عليهم السّــلام وسائطُ بين الله تعــالى وبين خلقه، يبلّغونهم أوامره ونواهيــه ووعده ووعيده، ويعرّفونهم بما لم يعلمــوه مِن أمره وخلقه، وجلاله وسلطانــه، وجبروته وملكوته، فظواهرهم وأجسادهــم وبنيتهم متّصفةٌ بأوصاف البشر، طارئ عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام والموت والفناء ونعوت الإنسانيّة، وأرواحهم وبواطنهم متعلّقة بالملإ الأعلى متشبّهةٌ بصفات الملائكة، سليمة من التّغيّر والآفات، لا يلحقها غالبًا عجز البشريّة ولا ضعف الإنسانيّة.

فصل فيما يختصّ بالأمور الدّينيّة والكلام في عصمة نبيّنا ﷺ

اعلم أن الطّوارئ من التّغيّرات والآفات على آحاد البشر لا يخلو أن تطرأ على جسمه أو على حواسّه بغير قصدٍ واختيار كالأمراض والأسقام، أو تطرأ بقصد واختيار.

وجميــع البشر تطرأ عليهــم الآفات والتغيرات بالاختيــار وبغير الاختيار في هــذه الوجوه كلّهــا، والنّبيّ ﷺ وإن كان مِن البشر ويجــوز على جِبلَّته ما يجوز على جبلَّة البشر فقد قامت البراهينُ القاطعةُ وتمَّت كلمةُ الإجماع على خروجه عنهم وتنزيهه عن كثيرٍ مِن الآفات التي تقعُ على الاختيار وعلى غير الاختيار كما سنبيِّنه إن شاء الله تعالى.

أمّــا عصمته ﷺ قبل النّبوّة فللنّاس فيه خلاف والصّواب أنّه معصومٌ قبل النّبــوّة مِن الجهل بالله وصفاته والتّشكك في شيءٍ مِن ذلك، وقد تعاضدتِ الأخبارُ والآثــارُ عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ وُلِدوا، ونشأتهم

على التّوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السّعادة، ولم ينقل أحدٌ مِن أهل الأخبار أن أحدًا نبّئ واصطفي ممّن عرف بكفرٍ وإشراكٍ قبل ذلك، ومستند هذا الباب النّقل، وقد استدلّ بعضهم بأن القلوب تنفر عمّن كانت هذه سبيله.

وأنا أقول: إن قريشًا قد رَمَتْ نبيَّنا ﷺ بكلّ ما افترته، وعيَّر كفّارُ الأمم أنبياءَها بكلِّ ما أمكنها واختلقته، ممّا نصَّ الله تعالى عليه أو نقلته إلينا الرّواة، ولم نجد في شيءٍ مِن ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهته وتقريعَه بذمّه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادِرين وبتلوُّنه في معبوده محتجِّين، ولكان توبيخُهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظعَ وأقطعَ في الحجة مِن توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل، ففي إطباقِهم على الإعراض عنه دليلٌ على أنّهم لم يجدوا سبيلًا إليه؛ إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، كما حكاه الله عنهم.

وقد استدلّ القاضي القُشَيْريّ على تنزيههم عن هذا بقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]، قال: وطهّره الله في الميثاق، وبَعيدٌ أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه ثمّ يأخذ ميثاق النّبيّين بالإيمان به ونصره قبل مولده بدهورٍ، ويجوِّز عليه الشّرك أو غيره من الذنوب، هذا ما لا يجوّزه إلا مُلْحِدٌ، هذا

معنى كلامه، وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريل عليه السلام وشقّ قلبه صغيرًا واستخرج منه علقة وقال: هذا حظُّ الشيطان منك ثمَّ غسله وملأه حكمةً وإيمانًا كما تظاهرت به أخبار المبدإ.

فإن قلتَ: فما معنى قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى:٧]؟، قلتُ معناه: لا تعرف الحقّ فهداك إليه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣].

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]؟ فالجواب أنّ السّمرقنديّ قال: معناه ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان[1]. وقال بكر القاضي نحوه، قال: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام، قال: فكان قبل مؤمنًا بتوحيده ثمّ نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل، فزاد بالتّكليف إيمانًا.

فصل

واعلم أنّ الأمّة مُجْمِعةٌ على عصمة النّبيّ ﷺ من الشّيطان وكفايته منه

عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم مِن أحدٍ إلّا وُكِّل بـه قرينُـه مِن الجنّ وقرينُه مِن الملائكة، قالـوا: وإيّاك يا رسول الله؟

(١) بحر العلوم (٣/٢٥٠).

قال: وإيّاي، ولكنَّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم»[٣]. زاد غيره عن منصور: «فلا يأمرني إلّا بخيرٍ»[٤].

روي «فأسلمُ» بضم الميم، أي: فأسلم أنا منه، وصحَّح بعضهم هذه الرّواية ورجَّحها، وروي «فأسلمَ»، يعني القرين، أنّه انتقل عن حال كفره إلى الإسلام، فصار لا يأمر إلّا بخيرٍ كالملك، وهو ظاهر الحديث، ورواه بعضهم «فاستسلم»[٥].

فإذا كان هذا حُكْمَ شيطانِه وقرينه المسلَّطِ على بني آدم، فكيف بمن بَعُد منه ولم يلزم صحبته ولا أُقْدِرَ على الدّنوّ منه؟

وقد جاءتِ الآثار بتصدّي الشّياطين له في غير موطنٍ رغبةً في إطفاء نوره وإماتة نفسه وإدخال شُغْلٍ عليه إذ يَئِسُوا من إغوائه، فانقلبوا خاسرين كتعرُّضه له في صلاته، فأخذه النّبيّ ﷺ وأسره.

ففي الصّحاح قال أبو هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «إنّ الشّيطان عرض لي فشدَّ عليّ يقطع عليّ الصّلاة فأمكنني الله منه فذَعَتُّه[٦]، ولقد هممْتُ أن أُوثِقَه إلى ساريةٍ حتّى تُصْبِحُوا تنظرون إليه، فذكرتُ قول أخي سليمان ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، فردَّه الله خاسئًا»[٧].

(٣) صحيح مسلم (٤/٢١٦٧، ٢١٦٨).
(٤) المصدر السابق (٤/٢١٦٧).
(٥) لم نقف عليه مسندًا، وأشار إليه النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/١٥٨).
(٦) أي: خنقته. شرح النووي على صحيح مسلم (٥/٢٩).
(٧) صحيح البخاري (٢/٦٤).

ولما لم يقدر على أذاه بمباشرته تسبَّب بالتّوسط إلى عداه كقضيته مع قريش في الائتمار بقتل النّبيّ ﷺ وتصوّره في صورة الشّيخ النّجديّ[٨]، ومرّة أخرى في غـزوة يوم بدر في صورة سراقة بن مالك[٩]، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ومـرّة يُنْذِر بشأنه عنـد بيعة العقبة[١٠]، ومع كلِّ هذا فقد كفاه الله أمره وعَصَمَه مِن ضرِّه وشرِّه.

وقـال ﷺ حين لُدَّ في مرضه وقيل له: خشينـا أن يكون بك ذاتُ الجَنْبِ فقال: «إنّها مِن الشّيطان، ولم يكن الله ليُسلِّطه عليّ»[١١].

وأمّـا قولـه ﷺ: «إنّ هذا وادٍ بـه شيطانٌ» فليس فيه ذكـر تسلُّطِه عليه ولا وسوستِه له، بل إنْ كان بمقتضى ظاهره فقد بيّن أمر ذلك الشّيطان بقوله: «إن الشيطـان أتى بلالًا فلم يزل يُهدِّئُه كما يُهَدَّأُ الصّبيُّ حتى نام»[١٢]، فأعلم أنَّ تسلُّط الشّيطان في ذلك الوادي إنّما كان على بلال الموكَّل بكلاءة الفجر، هذا إن جعلنـا قوله «إنّ هذا وادٍ بـه شيطانٌ» تنبيهًا على سببِ النَّوْم عن الصّلاة،

(٨) الطبقات لابن سعد (١/١٧٦).

(٩) سيرة ابن إسحاق (١/٣٠٥)، وسيرة ابن هشام (١/٦١٢).

(١٠) مسند أحمد (٢٥/٩٤)، وأخبار مكة للفاكهي (٤/٢١٥)، والمعجم الكبير للطبراني (١٩/٩٠).

(١١) أخرجه إسحاق بن راهوية في مسنده (٢/٥٧٧)، وأحمد (٤٣/٣٦٦)، والحاكم في المستدرك (٤/٤٤٩)، وقال: «على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وأصل الحديث في الصحيحين (صحيح البخاري ٦/١٤، وصحيح مسلم ٤/١٧٣٣).

(١٢) موطأ مالك (٢/٢٠ ت: الأعظمي)، من مرسل زيد بن أسلم.

وأمّـا إنْ جعلناه تنبيهًا علـى سببِ الرّحيل عن الوادي وعلّةً لترك الصّلاة به وهو دليلُ مَساق الحديث، فلا اعتراض به في هذا الباب.

فصل في أنه ﷺ معصوم في أقواله وأفعاله فيما طريقه البلاغ

وأمّـا أقواله ﷺ فقد قامتِ الدّلائلُ الواضحـةُ بصحّة المعجزة على صِدْقِه وأجمعتِ الأمّةُ فيما كان طريقُه البلاغَ أنّه معصومٌ فيه مِن الإخبار عن شيءٍ منها بخلافِ ما هو به لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «قلت: يا رسول الله، أأكتـب كلَّ ما أسمـع منك؟ قال: نعم، قلـت: في الرّضى والغضب؟ قال: نعم، فإنّي لا أقول في ذلك كلّه إلّا حقًّا»[(١٣)].

فـإذا قامت المعجزةُ على صدقه وأنّـه لا يقول إلّا حقًّا ولا يبلّغ عن الله إلّا صدقًـا وأنّ المعجزة قائمـة مَقام قول الله له: صدقتَ فيمـا تذكره عني، وهو يقـول: إنّي رسول الله إليكم لأبلّغكم ما أرسلت به إليكم وأبيّن لكم ما نُزِّل عليكـم، وقال تعالى عنه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وقـال: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [النسـاء: ١٧٠]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشـر: ٧]، فلا يصحّ أن يوجد منه في هـذا البـاب خبرٌ بخلاف مخبره علـى أيِّ وجهٍ كان، فلو جوّزنـا عليه الغلط

(١٣) أخرجه أبو داود (٣/٣١٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥/٣١٣)، وأحمد (١١/٥٨)، والدارمي (١/٤٢٩)، والطبراني في الأوسط (٢/١٥٣)، والحاكم في المستدرك (١/١٨٦) وغيرهم بألفاظ متقاربة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

والسّهو لما تميّز لنا من غيره ولاختلط الحقّ بالباطل، فالمعجزة مشتملةٌ على تصديقه جملةً واحدةً من غير خصوص، فتنزيه النبي ﷺ عن ذلك كلّه واجبٌ برهانًا وإجماعًا.

فصل في أنه ﷺ معصوم في أقواله وأفعاله فيما ليس طريقه البلاغ كذلك

هذا القول فيما طريقُه البلاغُ، وأمّا ما ليس سبيلُه سبيلَ البلاغ مِن الأخبار التي لا مستند لها إلى الأحكام ولا أخبار المعاد ولا تُضافُ إلى وحيٍ بل في أمور الدنيا وأحوالِ نفسه فالذي يجب تنزيهُ النّبيّ ﷺ عن أن يَقَعَ خبرُه في شيءٍ مِن ذلك بخلاف مخبره لا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا، وأنّه معصوم مِن ذلك في حالِ رضاه وفي حال سخطه وجِدِّه ومَزْحِه وصحَّته ومرضه.

ودليل ذلك اتّفاق السّلف وإجماعهم عليه، وذلك أنّا نعلم من دين الصّحابة وعادتهم مُبادرتَهم إلى تصديقِ جميعِ أحواله والثقةِ بجميع أخباره في أيِّ بابٍ كانت وعن أي شيءٍ وقعت، وأنّه لم يكن لهم توقُّفٌ ولا تردُّدٌ في شيءٍ منها، ولا استثباتٌ عن حاله عند ذلك هل وقع فيها سهو أم لا.

ولما احتجّ ابن أبي الحُقَيق اليهوديّ على عُمَر حين أجلاهم من خيبر بإقرار رسول الله ﷺ لهم واحتجّ عليه عمر رضي الله عنه بقوله ﷺ: «كيف بك إذا أخرجت من خيبر؟»، فقال اليهوديّ: كانت هُزَيْلَةً[١٤] من أبي القاسم، فقال له عمر: كذبت يا عدوّ الله[١٥].

(١٤) تصغير هزل، وهو ضد الجدّ. انظر: فتح الباري (٥/٣٢٨).
(١٥) صحيح البخاري (٣/١٩٢).

وأيضًا فإنّ أخبارَه وآثارَه وسِـيَرَه وشمائلَه معتنًى بها مستقصًى تفاصيلُها، ولم يَـرِدْ في شـيءٍ منها استدراكُه ﷺ لغلطٍ في قولٍ قالـه أو اعترافُه بوهمٍ في شـيءٍ أخبر به، ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصَّته عليه السلام رجوعه ﷺ عمّا أشـار به على الأنصار في تلقيح النخـل، وكان ذلك رأيًا لا خبرًا، وغير ذلك مِن الأمور التي ليست مِن هذا الباب كقوله: «والله لا أحلف على يمينٍ فأرى غيرها خيرًا منها إلّا فعلت الذي حلفت عليه وكفّرت عن يميني»[١٦]. وقوله: «إنّكـم تختصمون إليّ»[١٧] - الحديث -، وقوله: «اسْقِ يا زبيرُ حتّى يبلُغَ الماءُ الجَدْرَ»[١٨].

فصل في المباحات من تصرفاته ﷺ

وأمّا ما يتعلّق بالجوارح من الأعمال ولا يخرج من جملتها القول باللسان فيما عدا الخبر الذي وقع فيه الكلام، ولا الاعتقاد بالقلب فيما عدا التّوحيد ومـا قدّمناه من معارفه المختصة به، فأجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات.

وكذلـك لا خـلاف أنَّهـم معصومون مِن كتمـان الرّسالـة والتّقصيرِ في التّبليغ؛ لأنَّ كلَّ ذلك يقتضي العصمةَ منه المعجزةُ، مع الإجماع على ذلك من الكافّة.

---

(١٦) صحيح البخاري (١٢٧/٨) وصحيح مسلم (١٢٦٨/٣).

(١٧) المصدران السابقان (١٨٠/٣)، (١٣٣٧/٣).

(١٨) المصدران السابقان (١١١/٣)، (١٨٢٩/٤). والجدر بفتح الجيم وكسرها: الجدار. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٨/١٥).

وقد علم من دين الصّحابة قطعًا الاقتداء بأفعال النّبيّ ﷺ كيف توجّهت وفي كلّ فنٍّ، كالاقتداء بأمواله، فقد نبذوا خواتيمَهم حين نبذ خاتمه، وخلعوا نِعالَهم حين خلع، واحتجاجهم برؤية ابن عمر رضي الله عنهما إيّاه جالسًا لقضاء حاجته مستقبلًا بيت المقدس، واحتجَّ غيرُ واحدٍ منهم في غير شيءٍ ممّا بابُه العبادةُ أو العادةُ بقوله: رأيتُ رسول الله ﷺ يفعله.

وقال: «هلا خبَّرتيها أنّي أقبِّل وأنا صائمٌ»[١٩].

وغضب رسول الله ﷺ على الذي أُخْبِرَ بمثل هذا عنه فقال: يحل الله لرسوله ما يشاء[٢٠]. وقال: «إنّي لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده»[٢١].

والآثار في هذا أعظمُ مِن أن نُحيط بها، لكنّه يُعْلَمُ مِن مجموعها على القطع اتّباعُهم أفعالَه واقتداؤُهم بها، ولو جوَّزوا عليه المخالفةَ في شيءٍ منها لما اتَّسق هذا ولنُقِلَ عنهم وظهر بحثهم عن ذلك، ولما أنكر ﷺ على الآخر قولَهُ واعتذارَهُ بما ذكرناه.

وأمّا المباحات فجائزٌ وقوعُها منهم، إذ ليس فيها قدح، بل هي مأذون فيها، وأيديهم كأيدي غيرهم مسلّطةٌ عليها، إلّا أنّهم بما خصّوا به من رفيع المنزلة، وشُرِحَتْ له صدورُهم مِن أنوارِ المعرفة، واصْطُفُوا به مِن تَعَلُّقِ بالِهِمْ بالله والدّار الآخرة لا يأخذون مِن المباحات إلّا الضّروراتِ ممّا يتقوَّوْن به على

(١٩) أخرجه مالك في الموطأ (٤١٥/٣) ومن طريقه الشافعي في مسنده (١١٦/٢) مرسلًا، وأسنده عبد الرزاق في المصنف (١٨٣/٤)، وأحمد (٨٧/٣٩)، والطحاوي (٩٤/٢)، وغيرهم. وقد جاء في معناه عدة أحاديث بعضها في الصحيحين، كحديث عائشة (صحيح البخاري ٣٠/٣، وصحيح مسلم ٧٧٦/٢).

(٢٠) حديث «هل خبرتيها» المتقدم في الموطأ (٤١٥/٣) وغيره.

(٢١) صحيح البخاري (٢/٧)، وصحيح مسلم (٧٧٩/٢).

سلـوكِ طريقهم وصلاحِ دينهم وضرورةِ دنياهم، ومـا أُخِذَ على هذه السبيل صـار قربةً، فبان لك عظيمُ فضـل الله على نبيّنا ﷺ وعلى سائر أنبيائه عليهم السّـلام بأن جعل أفعالَهم قُرُبـاتٍ وطاعاتٍ بعيدةً عن وجـه المخالفة ورسم المعصية.

فصل فيما يخصه ﷺ في الأمور الدنيوية وما يطرأ عليه من العوارض البشرية

قـد قدّمنا أنّـه ﷺ وسائر الأنبياء والرّسل مِن البشـر، وأنّ جسمَه وظاهرَه خالصٌ للبشر يجـوز عليه مِن الآفاتِ والتغيـيرات والآلام والأسقام وتجرُّع كأسِ الحِمام ما يجوز على البشر، وهذا كله ليس بنقيصةٍ فيه؛ لأنّ الشيء إنّما يسمَّى ناقصًا بالإضافة إلى ما هو أتمُّ منه وأكملُ مِن نوعه، وقد كتب الله تعالى علـى أهلِ هذه الدار فيها يَحْيَوْن وفيها يموتـون ومنها يُخْرَجون، وخلق جميع البشر بمدرجة الغِيَر، فقد مَرِضَ ﷺ واشتكى وأصابه الحرُّ والقرُّ، وأدركه الجوعُ والعطشـ، ولحقه الغضـب والضجر، وناله الإعياءُ والتعـب، ومسَّه الضعفُ والكِـبَرُ، وسَقَطَ فجُحِشَ شِقُّه، وشجَّه الكفارُ وكسـروا رَباعِيَتَه، وسُقِيَ السُّمَّ وسُحِـر، وتداوى واحتجم، وتعـوَّذ، ثمّ قضى نَحْبَه فتـوفي ﷺ ولحق بالرفيق الأعلـى، وتخلَّص مِـن دار الامتحان والبلوى، وهذه سمـاتُ البشر التي لا مَحِيصَ عنها.

وأصـاب غيرَه مِن الأنبياء ما هـو أعظمُ منه، فقُتِلوا قتـلًا، ورُمُوا في النار، ونُشِـرُوا بالمناشير، ومنهم مَـن وقاه الله ذلك في بعض الأوقـات، ومنهم مَن

عصمــه كمــا عصم بعد نبيّنا ﷺ مِن النّاس، فلئــنْ لم يكف نبيَّنا ﷺ ربُّه يدَ ابــنِ قَمِئَةَ يومَ أُحُدٍ ولا حجبه عن عيون عِداه عند دعوته أهل الطّائف، فلقد أخذ على عيونِ قريشٍ عند خروجه إلى ثورٍ وأمسك عنه سيفَ غورثٍ وحَجَرَ أبــي جهلٍ وفَرَسَ سُراقــة، ولئنْ لم يَقِهِ مِنْ سِحْر ابــنِ الأعصمِ فلقد وقاه ما هــو أعظمُ مِن سُــمِّ اليهوديّة، وهكذا سائر أنبيائه مبتلًــى ومعافًى، وذلك مِن تمــامِ حكمته ليُظْهِرَ شرفَهم في هذه المقامات ويبــيِّن أمرَهم ويُتمَّ كلمتَه فيهم، وليحقِّــق بامتحانهم بشريَّتَهم ويرتفــعَ الالتباسُ عن أهلِ الضعفِ فيهم، لئلًا يَضِلُّوا بما يَظْهَرُ مِــن العجائبِ على أيديهم ضَلالَ النصارى بعيسى بن مريم، وليكون في محنهم تسليــةٌ لأممهم ووفورٌ لأجورهم عند ربهم، تمامًا على الذي أحسن إليهم.

وهذه الطوارئُ والتّغييراتُ المذكورةُ إنّما تختصّ بأجسامهم البشريّة المقصود بها مقاومة البشر ومعاناة بني آدم لمشاكلة الجنس. وأمّا بواطنهم فمنزهةٌ غالبًا عن ذلك معصومــةٌ منه متعلقةٌ بالملإ الأعلى والملائكة لأخذها عنهم وتلقّيها الوحي منهم.

وقــد قــال ﷺ: «إنّ عينيّ تنامــان ولا ينام قلبي»[٢٢]، وقــال: «إنّي لست كهيئتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»[٢٣]. فأخبر أنّ سرّه وباطنه وروحه خلاف جسمه وظاهره، وأنّ الآفات التي تحلّ ظاهره من ضعفٍ وجوعٍ وسهرٍ ونومٍ لا يحلّ منها شيء باطنه بخلاف غيره من البشر في حكم الباطن؛ لأنّ

(٢٢) صحيح البخاري (٢/٥٣)، وصحيح مسلم (١/٥٠٩).

(٢٣) صحيح البخاري (٣/٢٩)، وصحيح مسلم (٢/٧٧٦).

غـيره إذا نام استغرق النّـوم جسمَه وقلبَه وهو ﷺ في نومه حاضرُ القلب كما هـو في يقظته، حتّى قد جاء في بعض الآثار أنّـه كان محروسًا من الحدث في نومه لكون قلبه يقظان كما ذكرناه.

وكذلك غيره إذا جاع ضعُف لذلك جسمُه وخارتْ قوَّته، فبطلتْ بالكلّيّة جملتُه، وهو ﷺ قد أخبر أنَّه لا يعتريه ذلك، وأنّه بخلافهم لقوله: «إنّي لست كهيئتكم، إني أبيت يطعمني ربّي ويسقيني».

ولم يجـر على باطنه ﷺ في هذه الأحـوال كلّها مِن وَصَبٍ ومَرَضٍ وسِحْرٍ وغَضَـبٍ ما يُخلُّ به ولا فاض منه على لسانه ﷺ وجوارحِه ما لا يليقُ به كما يعتري غيرَه مِن البشر.

فصل في الجواب عن كون النبي ﷺ سُحِر

فـإن قلت: فقد جاءت الأخبار الصحيحـة أنّه ﷺ سُحِر كما قالت عائشة رضـي الله عنها: «سحر رسول الله ﷺ حتّـى إنّه ليُخيَّل إليه أنَّه فعل الشيء وما فعله»[٢٤].

وفي روايةٍ أخرى: «حتّى كان يخيّل إليه أنّه كان يأتي النّساء ولا يأتيهنّ».. الحديث[٢٥].

(٢٤) صحيح البخاري (١٣٦/٧)، وصحيح مسلم (١٧١٩/٤).
(٢٥) صحيح البخاري (١٣٧/٧).

وإذا كان هـذا مِن الْتباسِ الأمرِ علـى المسحور فكيف حال النّبيّ ﷺ في ذلك، وكيف جاز عليه وهو معصوم؟

فاعلم وفقنا الله وإيّاك أنّ هذا الحديث صحيحٌ متفقٌ عليه، وقد طعنتْ فيه الملحـدة وتدرَّعت به لسُخْف عقولها وتلبيسها على أمثالها إلى التّشكيك في الشّـرع، وقد نزّه الله الشّرع والنّبيّ ﷺ عمّا يدخل في أمره لبسًا، وإنّما السِّحر مرضٌ من الأمراض وعارضٌ مـن العلل يجوز عليه كأنـواع الأمراض ممّا لا يُنْكَر ولا يَقْدَح في نبوّته.

وأمّـا مـا ورد أنّه كان يخيّل إليه أنّه فعل الشيءَ ولا يفعله فليس في هذا ما يدخـل عليه داخلةً في شيءٍ مِن تبليغـه أو شريعته، أو يقدح في صدقه لقيام الدّليـل والإجماع على عصمته من هذا، وإنما هـذا فيما يجوز طروُّه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث بسببها ولا فضِّل من أجلها، وهو فيها عُرْضَةٌ للآفات كسائـر البشر؛ فغيرُ بعيـدٍ أن يُخيَّل إليه مِن أمورها ما لا حقيقةَ له ثمّ ينجلي عنه كما كان.

وأيضًـا فقد فسَّر هذا الفصلَ الحديثُ الآخـرُ مِن قوله: «حتّى يخيّل إليه أنـى يأتي أهله ولا يأتيهنّ»، وقد قال سفيان: هـذا أشدُّ ما يكون مِن السّحر ولم يأتِ في خبرٍ منها أنه نُقِل عنه في ذلك قولٌ بخلاف ما كان أخبر أنّه فعله ولم يفعله، وإنّما كانت خواطر وتخييلات.

وقـد روى عبـد الرّزّاق هذا الحديث عـن ابن المسيّب وعـروة بن الزّبير، وقـال فيه عنهما: «سحر يهود بنـي زريقٍ رسول الله ﷺ، فجعلوه في بئرٍ حتّى

كاد رسول الله ﷺ أن ينكر بصره، ثمّ دلّه الله على ما صنعوا فاستخرجه مِن البئر»[٢٦].

فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات أنّ السّحر إنّما تسلَّط على ظاهره وجوارحه لا على قلبه واعتقاده وعقله، وأنّه إنّما أثّر في بصره وحبسه عن وطء نسائه وطعامه، وأضعف جسمه وأمرضه. ويكون معنى قوله: «يخيّل إليه أنّه يأتي أهله ولا يأتيهنّ»، أي: يظهر له من نشاطه ومتقدّم عادته القدرة على النّساء، فإذا دنا منهنّ أصابته أُخْذة السّحر، فلم يقدر على إتيانهنّ كما يعتري من أخذ واعترض.

ولعله لمثل هذا أشار سفيان بقوله: «وهذا أشد ما يكون من السحر»، ويكون قول عائشة في الرّواية الأخرى: «إنّه ليخيّل إليه أنه فعل الشيء وما فعله» من باب ما اختلّ مِن بصره كما ذكر في الحديث، فيظنُّ أنّه رأى شخصًا مِن بعض أزواجه أو شاهد فعلًا مِن غيره ولم يكن، على ما يُخيَّل إليه لما أصابه في بصره وضعفِ نظره لا لشيء طرأ عليه في مَيْزِه، وإذا كان هذا لم يكن فيما ذكر مِن إصابة السحر له وتأثيره فيه ما يدخل لبسًا، ولا يجد به الملحد المعترض أنسًا.

(٢٦) مصنف عبد الرزاق (١١/ ١٤)، ورجاله أئمة، لكنه مرسل.

فصل فيما يعتقده ﷺ في أمور أحكام البشر الجارية على يديه

وأمّا ما يعتقده ﷺ في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ومعرفة المحق من المبطل وعلم المصلح من المفسد، فبهذه السبيل لقوله ﷺ: «إنّما أنا بشرٌ، وإنّكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحجّته مِن بعضٍ فأقضيَ له على نحوٍ ممّا أسمع، فمن قضيتُ له مِن حقّ أخيه بشيءٍ فلا يأخذْ منه شيئًا؛ فإنّما أقطع له قطعةً من النّار»[٢٧].

وفي روايةِ الزّهريّ عن عروة: «فلعلّ بعضكم أن يكون أبلغَ من بعضٍ فأحسب أنّه صادقٌ فأقضي له»[٢٨].

وتجري أحكامه ﷺ على الظّاهرِ وموجِبِ غلباتِ الظّنِّ بشهادة الشّاهد ويمينِ الحالف ومُراعاة الأشبهِ ومعرفة العِفاص[٢٩] والوِكاءِ مع مقتضى حكمة الله في ذلك؛ فإنّه تعالى لو شاء لأطْلعه على سرائرِ عباده ومخبّآتِ ضمائرِ أمّته، فتولّى الحكمَ بينهم بمجرّدِ يقينه وعلمه دونَ حاجةٍ إلى اعترافٍ أو بيّنةٍ أو يمينٍ أو شبهةٍ.

ولكن لما أمر الله أمّته باتباعه والاقتداء به في أفعاله وأحواله وقضاياه وسِيَرِه، وكان هذا - لو كان - ممّا يختصُّ بعلمه ويُؤْثِرُه الله به لم يكن للأمَّةِ سبيلٌ إلى الاقتداء به في شيءٍ من ذلك، ولا قامتْ حجَّةٌ بقضيَّةٍ مِن قضاياه لأحدٍ في

(٢٧) صحيح البخاري (٣/١٨٠)، وصحيح مسلم (٣/١٣٣٧).

(٢٨) صحيح البخاري (٩/٧٣)، وصحيح مسلم (٣/١٣٣٧).

(٢٩) وعاء من جلد أو خرقة أو غير ذلك. المحكم لابن سيدة (١/٤٤٩).

شريعتــه؛ لأنّــا لا نعلم ما أطلع عليه هو في تلك القضيَّة بحكمه بما أطلعه عليه مِن سرائرهم، وهذا ما لا تعلمه الأمة.

فأجرى الله تعــالى أحكامه على ظواهرهم التي يستوي في ذلك هو وغيره مِــن البشر ليَتمّ اقتداءُ أمّته به في تعيينِ قضاياه وتنزيلِ أحكامه، ويأتُوا ما أتَوْا مِن ذلــك على علمٍ ويقينٍ مِن سنّته، إذ البيانُ بالفعل أوقعُ منه بالقول وأرفعُ لاحتمــال اللّفظ وتأويــل المتأوّل، وكان حكمُه علــى الظّاهر أجلى في البيان وأوضحَ في وجوه الأحكام وأكثرَ فائدةً لموجباتِ التّشاجُر والخصام، وليقتدي بذلــك كله حكّامُ أمّتــه ويستوثقَ بما يؤثر عنه وينضبــط قانونُ شريعته، وطيُّ ذلــك عنه من علم الغيب الــذي استأثر به عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدًا إلّا من ارتضى من رسول فيعلمه منه بما شاء ويستأثر بما شاء، ولا يقدح هذا في نبوته ولا يفصم عروةً من عصمته.

فصل في الإجابة على بعض الشبه في ذلك

فــإن قيل: فما وجه حديثــه أيضًا الذى عن سالم مــولى النّصريّين قال: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهمّ إنّما محمّدٌ بشرٌ يغضــب كما يغضب البشر، وإنّي قــد اتّخذت عندك عهدًا لن تخلفنيه، فأيّما مؤمــنٍ آذيتــه أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفّارةً وقربــةً تقرّبه بها إليك يوم القيامة»[٣٠].

(٣٠) صحيح مسلم (٤/٢٠٠٨)، وأخرجه البخاري (٨/٧٧) مختصرًا.

وفي رواية: «فأيّما أحدٍ دعوت عليه دعوةً»[٣١]، وفي رواية: «ليس لها بأهلٍ»[٣٢]، وفي رواية: «فأيّما رجلٍ من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاةً وصلاةً ورحمةً»[٣٣]، وكيف يصحُّ أنْ يلعنَ النّبيّ ﷺ مَن لا يستحقّ اللّعن، ويسبَّ مَن لا يستحقّ السب، ويجلدَ مَن لا يستحقُّ الجلد أو يفعلَ مثل ذلك عند الغضب وهو معصوم من هذا كلّه؟

فاعلم شرح الله صدرك أنّ قوله ﷺ أولًا: «ليس لها بأهلٍ» أي: عندك يا ربّ في باطن أمره؛ فإنّ حكمه ﷺ على الظّاهر كما قال وللحكمة الّتي ذكرناها، فحَكَمَ ﷺ بجلده أو أدَّبه بسبِّه أو لَعَنَه بما اقتضاه عنده حالُ ظاهره، ثمَّ دعا له ﷺ لشفقته على أمّته ورأفته ورحمته للمؤمنين الّتي وصفه الله بها، وحَذَرِه أن يتقبَّلَ الله فيمن دعا عليه دعوته أنْ يجعلَ دعاءه وفعله له رحمة، وهو معنى قوله «ليس لها بأهل»، لا أنّه ﷺ يحمله الغضب ويستفزّه الضَّجَر لأن يفعل مثل هذا بمن لا يستحقّه من مسلم، وهذا معنًى صحيح.

ولا يفهم من قوله «أغضب كما يغضب البشر» أنَّ الغضبَ حمله على ما لا يجب، بل يجوز أن يكونَ المرادُ بهذا أنّ الغضب لله حمله على معاقبته بِلَعْنِه أو سبِّه، وأنّه ممّا كان يحتمل ويجوز عفوه عنه، أو كان ممّا خُيِّر بين المعاقبة فيه والعفو عنه.

---

(٣١) صحيح مسلم (٤/٢٠٠٩).

(٣٢) المصدر السابق (٤/٢٠٠٩).

(٣٣) المصدر السابق (٤/٢٠٠٧).

وقد يحمل على أنه خرج مخرج الإشفاق وتعليم أمّته الخوفَ والحذر مِن تعدِّي حدودِ الله، وقد يُحْمَل ما ورد مِن دعائه هنا ومِن دعواته على غير واحدٍ في غير موطنٍ على غير العقد والقصد، بل بما جَرَتْ به عادةُ العرب وليس المرادُ بها الإجابةَ كقوله: «تَرِبَتْ يمينُك»[٣٤]، و«لا أَشْبَعَ الله بَطْنَك»[٣٥]، و«عَقْرَى حَلْقَى»[٣٦]، وغيرِها مِن دعواته.

وقد ورد في صفته في غير حديث أنّه ﷺ لم يكن فحاشًا.

وقال أنس رضي الله عنه: «لم يكن سبّابًا ولا فاحشًا ولا لعّانًا، وكان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له؟ تَرِبَ جبينُه»[٣٧].

فيكون حمل الحديث على هذا المعنى، ثمّ أشفق ﷺ مِن موافقة أمثالِها إجابةً فعاهد ربَّه، كما قال في الحديث أنْ يجعلَ ذلك للمقولِ له زكاةً ورحمةً وقربةً، وقد يكون ذلك إشفاقًا على المدعوِّ عليه وتأنيسًا له لئلّا يلحقه مِن استشعارِ الخوفِ والحذر مِن لعنِ النبيِّ ﷺ وتقبُّل دعائه ما يحمله على اليأس والقنوط، وقد يكون ذلك سؤالًا منه لربّه لمن جلده أو سبَّه على حقٍّ وبوجهٍ صحيحٍ أنْ يجعل ذلك له كفّارةً لما أصابه وتمحيةً لمّا اجترم وأنْ تكونَ

(٣٤) صحيح البخاري (١/٢٨، ٦/١٢٠، ٨/٢٧)، وصحيح مسلم (٢/١٠٦٩، ١٠٧٠).

(٣٥) صحيح مسلم (٤/٢٠١٠) بلفظ: «لا أشبع الله بطنه».

(٣٦) صحيح البخاري (٢/١٤١)، وصحيح مسلم (٢/٨٧٧). ومعناهما: عقرها الله وحلقها. انظر: تهذيب اللغة (١/١٤٥).

(٣٧) صحيح البخاري (٨/١٣).

عقوبتُــه له في الدنيا سببَ العفو والغفران كما جاء في الحديث الآخر: «ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفّارةٌ»[٣٨].

فـإن قلت: فما معنى حديــث الزّبير وقول النّبيّ ﷺ له حين تخاصمه مع الأنصــاريّ في شِراجِ[٣٩] الحــرَّة: «اسْقِ يا زُبَيْرُ حتّى يبلـغ الكعبين، فقال له الأنصــاريّ: أنْ كان يا رسول الله ابــنَ عمّتك؟ فتلوَّن وجهُ رسول الله ﷺ ثمّ قال: اسق يا زُبَيْرُ ثمّ احْبِسْ حتّى يبلغ الجدر» الحديث[٤٠]؟

فالجــواب أنّ النّبــيّ ﷺ مُنزَّهٌ أنْ يَقَعَ بِنَفْسِ مُسْلِــم منه في هذه القصَّة أمرٌ يريب، ولكنه ﷺ نــدب الزّبير أوّلًا إلى الاقتصار على بعض حقّه على طريق التّوسّــط والصّلح، فلمّا لم يرض بذلك الآخر ولجَّ وقال ما لا يجب استوفى النّبيّ ﷺ للزّبير حقّه ولهذا ترجم البخاريّ على هذا الحديث: «باب إذا أشار الإمــام بالصّلح فأبى حكم عليه بالحكــم»، وذكر في آخر الحديث: فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذ للزّبير حقّه.

وقــد جعل المسلمون هذا الحديث أصــلًا في قضيّته، وفيه الاقتداء به ﷺ في كلّ مــا فعله في حال غضبه ورضاه وأنّــه وإن نهى أن يقضي القاضي وهو غضبان فإنّــه في حكمه في حال الغضب والرّضى سواء لكونه فيها معصومًا، وغضــب النّبــيّ ﷺ في هذا إنّما كان لله تعــالى لا لنفسه كما جاء في الحديث الصّحيح.

---

(٣٨) صحيح البخاري (١/ ١٢)، وصحيح مسلم (٣/ ١٣٣٣).

(٣٩) هي مسايل الماء، واحدها شرجة. شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ١٠٧).

(٤٠) المصدران السابقان (٣/ ١١١)، (٤/ ١٨٢٩).

فصل في أفعاله ﷺ الدنيوية

وأما أفعاله ﷺ الدّنيويّة فعلى السَّداد والصّواب، بل أكثرها أو كلّها جاريةٌ مجـرى العبادات والقُرَب على ما بيّنـا؛ إذ كان ﷺ لا يأخذ منها لنفسه إلّا ضرورتـه ومـا يُقيم رَمَق جسمه وفيـه مصلحةُ ذاته الّتي بهـا يعبُد ربَّه ويُقيم شريعتـه ويَسُوس أمته، وما كان فيما بينه وبين النّاس مِن ذلك فبَيْنَ معروفٍ يصنعـه أو برٍّ يُوسِعُـه أو كلام حَسَنٍ يقوله أو يسمعه، أو تألُّـفِ شاردٍ أو قَهْرِ مُعانِـدٍ أو مُـداراةِ حاسدٍ، وكلُّ هذا لاحـقٌ بصالح أعمالـه منتظمٌ في زاكي وظائف عباداته.

وقـد كان يُخالف في أفعالـه الدّنيويّـة بحسب اختلاف الأحـوال ويُعدُّ للأمور أشباهَها فيركب الحمارَ لِـما قَرُب، وفي أسفاره الرَّاحلة، ويركب البغلةَ في معارك الحرب دليلًا على الثّبات، ويركب الخيلَ ويعدُّها ليوم الفزع وإجابة الصّارخ.

وكذلك في لباسه ﷺ وسائر أحواله بحسب اعتبار مصالحه ومصالح أمّته، وكذلـك يفعل الفعل من أمور الدنيـا، وإن كان قد يرى غيره خيرًا منه، كما يترك الفعل لهذا وقد يرى فعله خيرًا منه.

وقد يفعل هذا في الأمور الدّينيّة ممّا له الخِيَرَةُ في أحد وجهيه، كخروجه من المدينة لأُحُدٍ وكان مذهبُـه التّحصنَ بها، وتركِهِ قتلَ المنافقين وهو على يقينٍ مِن أمرهـم مؤالفةً لغيرهم ورعايـةً للمؤمنين مِن قرابتهـم وكراهةً لأن يقول النّاس: إنّ محمّـدًا يقتل أصحابه كما جاء في الحديـث، وتركِهِ بناءَ الكعبة

على قواعدِ إبراهيم مراعاةً لقلـوب قريشٍ وتعظيمِهم لتغيُّرها وحذرًا مِن نِفار قلوبهم لذلك، وتحريكِ متقدِّم عداوتهم للدين وأهله، فقال لعائشة رضي الله عنها في الحديـث الصّحيح: «لولا حِدْثانُ قَوْمِكِ بالكفرِ لأتممتُ البيتَ على قواعدِ إبراهيم»[٤١].

ويفعـل الفعل ثم يتركه لكون غيره خـيرًا منه، كانتقاله مِن أدنى مياهِ بدرٍ إلى أقربِهـا للعدو مِن قريش، وكقوله: «لو استقبلتُ مِن أمري ما استدبرتُ ما سقتُ الهَدْي»[٤٢].

ويبسط وجهه للكافر والعدو رجـاءَ استئلافه ويصبر للجاهل ويقول: «إنّ مـن شرّ النّاس مَـنِ اتّقاه الناس لِشرِّه»[٤٣]. ويبذُلُ لـه الرّغائبَ ليحبِّب إليه شريعتَـه ودينَ ربِّـه، ويتولى في منزله مـا يتولى الخادم مِن مهنتـه، ويتسمَّت في ملاءتـه[٤٤] حتّـى لا يبدو منه شـيءٌ مِن أطرافه وحتـى كأنَّ على رؤوس جلسائه الطّيرَ، ويتحدّث مع جلسائه بحديث أوّلهم[٤٥]، ويتعجّب ممّا يتعجّبون منـه، ويضحك ممّا يضحكون منه، وقد وسع النّاسَ بِشْرُه وعدلُه، لا يستفزُّه

(٤١) صحيح البخاري (١٤٦/٢)، وصحيح مسلم (٩٦٩/٢).

(٤٢) المصدران السابقان (٨٣/٩)، (٨٨٣/٢).

(٤٣) المصدران السابقان (١٣/٨)، (٢٠٠٢/٤)، وساقه المؤلف بالمعنى.

(٤٤) أي: يقصد نحو المجلس والجلساء، والملاءة هي الريطة، والشقّة نصف الملاءة في العرض، فإذا وصلت نصفًا بنصفٍ فهي ملاءة، فإن كانت الملاءة قطعة واحدةً فهي ريطة. انظر: تهذيب اللغة (٢٧٠/١٢)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٣٩١/١).

(٤٥) قال الملا علي قاري: «أي: بحكاية أوائلهم وما جرى لهم تأنُّسًا بمقالهم وتلطفًا بحالهم، أو بحديث أول متكلم منهم فيبني عليه كلامه إلى أن ينتهي مرامه، أو يتحدث مع آخرهم بحديث أولهم من جهة النشاط وطريق الانبساط من غير انقباض عن بعضهم وملالة». شرح الشفا (٢٦٨/٢).

الغضبُ ولا يقصِّر عن الحقّ، ولا يبطن على جلسائه، يقول: «ما كان لنبيٍّ أن تكون له خائنة الأعين».

فإن قلت: فما معنى قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها في الداخل عليه: «بئس ابن العشيرة»، فلمّا دخل ألان له القول وضحك معه، فلمّا خرج سألته عن ذلك قال: «إنّ مِن شرِّ النّاس مَن اتّقاه النّاس لشرِّه»، وكيف جاز أن يُظْهِر له خلاف ما يبطن ويقول في ظهره ما قال؟

فالجواب أنّ فعله ﷺ كان استئلافًا لمثله وتطييبًا لنفسه ليتمكّن إيمانه ويدخل في الإسلام بسببه أتباعه، ويراه مثلُه فينجذب بذلك إلى الإسلام، ومثل هذا على هذا الوجه قد خرج مِن حدِّ مداراةِ الدنيا إلى السّياسة الدّينيّة، وقد كان يستألفهم بأموال الله العريضة فكيف بالكلمة اللّيّنة؟

قال صفوان رضي الله عنه: لقد أعطاني وهو أبغض الخلق إليّ فما زال يعطيني حتّى صار أحبَّ الخلق إلي[٤٦].

وقوله فيه: «بئس ابن العشيرة» هو غير غيبة، بل هو تعريف ما علمه منه لمن لم يعلم ليحذرَ حالَه ويحترزَ منه، ولا يُوثَقَ بجانبه كلَّ الثقة لا سيما وكان مُطاعًا متبوعًا، ومثل هذا إذا كان لضرورةٍ ودفع مضرَّةٍ لم يكن بغيبة، بل كان جائزًا بل واجبًا في بعض الأحيان كعادة المحدِّثين في تجريح الرُّواة، والمزكِّين في الشهود.

(٤٦) صحيح مسلم (٤/١٨٠٦).

فصل في الكلام على الحكمة في إجراء الأمراض وشدتها عليه ﷺ وعلى غيره من الأنبياء من قبل

فإن قيل: فما الحكمة في إجراء الأمراض وشدّتها عليه وعلى غيره من الأنبياء على جميعهم السّلام، وما الوجه فيما ابتلاهم الله به من البلاء وامتحانهم بما امتحنوا به كأيّوب ويعقوب ودانيال ويحيى وزكريّا وعيسى وإبراهيم ويوسف وغيرهم صلوات الله عليهم، وهم خِيرَتُه مِن خلقه وأحبّاؤه وأصفياؤه؟

فاعلم وفّقنا الله وإياك أنَّ أفعالَ الله تعالى كلَّها عدلٌ وكلماته جميعًا صدقٌ لا مبدِّلَ لكلماته، يبتلي عباده كما قال لهم ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، وقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] [الملك: ١]، وقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

فامتحانه إيّاهم بضروبِ المحنِ زيادةٌ في مكانتهم ورفعةٌ في درجاتهم وأسبابٌ لاستخراج حالات الصّبر والرّضى والشّكر والتّسليم والتّوكّل والتّفويض والدّعاء والتّضرّع منهم، وتأكيدٌ لبصائرهم في رحمة الممتحنين والشّفقة على المبتَلَيْنَ، وتذكرةٌ لغيرهم وموعظةٌ لسواهم ليتأسَّوْا في البلاء بهم ويتسلَّوْا في المحن بما جرى عليهم ويقتدُوا بهم في الصّبر ليَلْقَوُا الله طيّبين مهذّبين وليكونَ أجرُهم أكملَ وثوابُهم أوفرَ وأجزلَ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما يزال البلاءُ بالمؤمنِ في نفسه وولده وماله حتّى يلقى الله وما عليه خطيئةٌ(٤٧).

وكما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

وعن سعدٍ رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أيُّ النّاسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياءُ ثمّ الأمثل فالأمثل، يُبْتَلى الرّجلُ على حَسَبِ دينه، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتّى يتْرُكَه يمشي على الأرض وما عليه خطيئةٌ»(٤٨).

قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ الوَجَعَ على أحدٍ أشدَّ منه على النبي ﷺ(٤٩).

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: رأيت النّبيّ ﷺ في مرضه يُوعَكُ وَعْكًا شديدًا فقلت: إنّك لتوعك وعكًا شديدًا، قال: أَجَلْ إنّي أوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك أنّ لك الأجرَ مرّتين؟ قال: أجل، ذلك كذلك(٥٠).

---

(٤٧) أخرجه الترمذي (٤/١٨٠)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٥١)، والبزار في مسنده (١٤/٣٢٩)، وأبو يعلى في مسنده (١٠/٣١٩)، والحاكم في المستدرك (٤/٣٥٠) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤٨) أخرجه أحمد (٣/٨٧)، وأبو يعلى في مسنده (٢/١٤٣)، والطحاوي في شرح المشكل (٥/٤٥٥)، وابن حبان في صحيحه (٧/١٦١)، والحاكم في المستدرك (٤/٣٥٠)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤٩) صحيح البخاري (٧/١١٥)، وصحيح مسلم (٤/١٩٩٠).

(٥٠) المصدران السابقان (٧/١١٥)، (٤/١٩٩١).

وحكمة أخـرى أنّ الأمراض نذيرُ الممات، وبقدر شدَّتِها شدّةُ الخوف مِن نـزول الموت، فيستعدُّ مَنْ أَصابَتْه وعَلِـم تعهُّدَها له للقاء ربه ويُعْرِض عن دار الدنيـا الكثيرةِ الأَنْكادِ، ويكونُ قلبه معلّقًا بالمعاد، فيتنصَّل مِن كلِّ ما يَخْشَى تِباعتَـه مِنْ قِبَلِ الله وقِبَلِ العباد، ويُؤَدِّي الحقوقَ إلى أهلها، وينظر فيما يَحتاج إليه مِن وصيةٍ فيمن يُخَلِّفُه أو أمرٍ يَعْهَدُه.

وهذا نبيُّنا ﷺ المغفورُ له ما تقدَّم وما تأخَّر قد طلب التنصل في مرضه ممّن كان لـه عليه مالٌ أو حقٌّ في بدنٍ، وأقاد مِن نفسه وماله وأمكن مِن القصاص منه على مـا ورد في حديث الفضل رضي الله عنه، وحديث الوفـاة، وأوصى بالثَّقَلَيْنِ بعده: كتاب الله وعِتْرَته، وبالأنصارِ عَيْبَتِه.

وهكذا سيرة عباد الله المؤمنين وأوليائه المتقين، وهذا كلّه يُحْرَمُهُ غالبًا الكفارُ لإملاءِ الله لهم ليزدادوا إثمًا وليستدرجهم مِن حيثُ لا يعلمون، قال الله تعالى ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٤٩-٥٠].

الباب العاشر في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقّصه أو سبّه ﷺ

قد تقدّم من الكتاب والسّنّة وإجماع الأمّة ما يجب مِن الحقوق للنّبيّ ﷺ، وما يتعيّن له مِن برٍّ وتوقيرٍ وتعظيمٍ وإكرام، وبحسب هذا حرَّم الله تعالى أذاه في كتابه، وأجمعتِ الأمّةُ على قَتْلِ مُتنقِّصه مِن المسلمين وسابِّه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقال تعالى في تحريم التّعريض له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٠٤] الآية، وذلك أنّ اليهود كانوا يقولون: راعِنا يا محمّد، أي أَرْعِنا سمعك واسمع منّا، ويعرِّضون بالكلمة يريدون الرعونة، فنهى الله المؤمنين عن التّشبُّه بهم، وقطع الذّريعة بنهي المؤمنين عنها لئلّا يتوصَّل بها الكافرُ والمنافقُ إلى سبِّه والاستهزاء به.

وقيل: بل لما فيه مِن مشاركة اللفظ لأنّها عند اليهود بمعنى اسمع لا سمعت، وقيل: بل لما فيها مِن قلّة الأدبِ وعدم توقير النّبيّ ﷺ وتعظيمه

لأنّها في لغةِ الأنصار بمعنى: ارعنا نرعك، فنُهُوا عن ذلك؛ إذ مضمنه أنّهم لا يرعون إلا برعايته لهم وهو ﷺ واجب الرّعاية بكلّ حال.

هذا وهو ﷺ قد نهى عن التّكنّي بكنيته فقال: «سَمُّوا باسمي ولا تَكَنَّوْا بكنيتي»[1]، صيانةً لنفسه وحماية عن أذاه؛ إذ كان ﷺ استجاب لرجل نادى: يا أبا القاسم، فقال: لم أَعْنِك، إنّما دعوتُ هذا، فنهى حينئذ عن التّكنّي بكنيته لئلّا يتأذّى بإجابة دعوةِ غيره لمن لم يَدْعُه، ويَجِدُ بذلك المنافقون والمستهزؤون ذريعةً إلى أذاه والإزراءِ به فيُنادونه، فإذا التفت قالوا: إنّما أردنا هذا، لسواه، تعنيتًا له واستخفافًا بحقّه على عادة المُجَّان والمستهزئين، فحمى ﷺ حِمى أذاه بكلِّ وجهٍ، فحمل محقّقو العلماء نَهْيَه عن هذا على مدّة حياته وأجازوه بعد وفاته لارتفاع العلّة.

وللنّاس في هذا الحديث مذاهبُ ليس هذا موضعَها، وما ذكرناه هو مذهبُ الجمهور والصّوابُ إن شاء الله أنَّ ذلك على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل الندب والاستحباب لا على التحريم، ولذلك لم يَنْهَ عن اسمه لأنّه قد كان الله مَنَعَ مِنْ ندائه به بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] وإنّما كان المسلمون يدعونه: يا رسول الله، يا نبيّ الله، وقد يدعونه بكنيته «أبا القاسم»، بعضهم في بعض الأحوال.

وحكى محمّد بن سعد أنَّ عمر رضي الله عنه نظر إلى رجل اسمه محمّد ورجل يسبُّه ويقول له: فعل الله بك يا محمّد وصنع، فقال عمر لابن أخيه محمّد

(١) صحيح البخاري (١/)، وصحيح مسلم (١٦٨٢/٣).

بــن زيد بن الخطّاب: لا أرى محمّدًا ﷺ يُسبُّ بك والله لا تدعى محمّدًا ما دمــت حيًّــا وسمّاه عبد الرّحمن، وأراد أن يمنع لهــذا أن يسمَّى أحدٌ بأسماء لأنبياء إكرامًــا لهم بذلك وغيّر أسماءهم وقال: لا تَسَمَّوْا بأسماء الأنبياء ثمّ أمسك[٢].

والصّواب جواز هذا كلّه بعده ﷺ بدليل إطباق الصّحابة على ذلك، وقد سمّى جماعةٌ منهم ابنه محمّدًا وكنّاه بأبي القاسم.

فصل في بيان ما هو في حقه ﷺ سَبٌّ أو نَقْصٌ من تعريض أو نص

اعلم وفقنا الله وإياك أنّ جميع مَنْ سبّ النّبيّ ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصًا في نفســه أو نسبــه أو دينه أو خصلة مِن خصالــه أو عرّض به أو شبَّهه بشيءٍ علــى طريق السّبّ له أو الإزراء عليه أو التّصغير لشأنه أو الغضّ منه والعيب لــه فهو سابٌّ له، والحكمُ فيــه حكمُ السّابِّ يُقْتَل كمــا نبيِّنه، ولا يمترى فيه تصريحًا كان أو تلويحاً.

وكذلــك مَنْ لعنه أو دعــا عليه أو تمنى مضرةً له أو نســب إليه ما لا يليق بمنصبــه على طريق الذم أو عبث في جهته العزيزة بسُخْفٍ مِن الكلام وهُجْر

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٥/٤٠)، وأحمد (٢٩/٤٢٧)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٢/٧٥٢)، وغيرهم من مرسل عبد الرحمن بن أبي ليلى، وفي آخره: «فأرسل إلى بني طلحة، وهم سبعة وسيدهم وكبيرهم محمد بن طلحة، ليغير أسماءهم، فقال محمد: أذكرك الله يا أمير المؤمنين، فوالله لمحمد ﷺ سماني محمدًا، فقال: قوموا لا سبيل إلى شيء سماه رسول الله ﷺ». قال الحافظ في الفتح (١٠/٥٧٣): «فهذا يدل على رجوعه عن ذلك»..

ومنكـر مِن القـول وزور أو عيَّره بشـيءٍ ممّا جرى مِن البـلاء والمحنة عليه أو غمصه ببعض العوارض البشريّة الجائزة والمعهودة لديه.

وهـذا كلّه إجماع من العلماء وأئمّة الفتوى من لدن الصّحابة رضوان الله عليهم إلى هلمّ جرًّا.

قال أبو بكر ابن المنذر: أجمع عوامُّ أهل العلم على أن من سبَّ النّبيّ ﷺ يُقْتَـل، وممّن قال ذلـك مالك بن أنس واللّيث وأحمـد وإسحاق وهو مذهب الشّافعـيّ[٣]. وهو مقتضى قول أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه[٤]، ولا تُقبل توبته عند هـؤلاء، وبمثله قال أبو حنيفـة وأصحابه والثّوريّ وأهل الكوفـة والأوزاعيّ في المسلمين، لكنّهم قالوا: هي ردّة[٥].

وروى مثلـه الوليـد بن مسلم عـن مالك، وحكى الطّـبريّ مثله عن أبي حنيفة وأصحابه فيمن تنقّصه ﷺ أو برئ منه أو كذّبه.

وقـال سحنون فيمن سبّه: ذلك ردّة كالزّندقة، وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته وتكفيره، وهل قتلُه حدٌّ أو كفرٌ كما سنبيّنه إن شاء الله تعالى.

ولا نعلم خلافًا في استباحة دمه بين علماء الأمصار وسلف الأمّة، وقد ذكر غير واحـد الإجماع على قتله وتكفيره، وأشار بعض الظّاهريّة وهو أبو محمّد

---

(٣) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٤/٢٢٦)، .

(٤) يشير إلى ما أخرجه أبو داود (٤/١٢٩) والنسائي (٧/١٠٨) وأحمد (١/٢٢٢) وغيرهم بإسناد صحيح أن رجلًا أغلظ لأبي بكر فقال أبو برزة له: ألا أضرب عنقه؟ فانتهره وقال: ما هي لأحد بعد رسول الله ﷺ، وسيورده المؤلف بعد قليل.

(٥) انظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٥/١٣٥)، الدر المختار (٤/٢٣١).

علـيّ بن أحمد الفارسيّ[٦] إلى الخـلاف في تكفير المستخِفِّ به والمعروفُ ما قدّمناه.

قال محمّد بن سحنون: أجمع العلماء أنّ شاتم النّبيّ ﷺ المتنقّص له كافرٌ والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله له، وحكمُه عند الأمة قَتْلٌ، ومن شكّ في كفره وعذابه كفر.

واحتـجّ إبراهيم بن حسـين بن خالد الفقيه في مثل هـذا بقتل خالد بن الوليد رضي الله عنه مالك بن نُوَيْرة لقوله عن النّبيّ ﷺ: صاحبكم[٧].

وقال أبو سليمان الخطّابي: لا أعلم أحدًا مِن المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلمًا[٨].

وقال ابن القاسم عـن مالك في كتاب ابن سحنون والمبسوط والعُتْبِيَّة[٩]، وحـكاه مطرِّف عـن مالك في كتاب ابـن حبيب: مَنْ سـبَّ النّبيّ ﷺ من المسلمين قُتِلَ ولم يُسْتَتَبْ.

قـال ابن القاسم في العتبيّة: من سبّه أو شتمه أو عابه أو تنقصّه فإنّه يقتل وحكمه عند الأمّة القتل كالزّنديق، وقد فرض الله تعالى توقيره ﷺ وبرّه.

---

(٦) هو ابن حزم، وما ذكره في المحلى (١٢/٤٣٦-٤٤٢) يدل على عدم وجود خلاف في ذلك.

(٧) تاريخ الطبري (٣/٢٨٠).

(٨) معالم السنن (٣/٢٩٦).

(٩) هو كتاب ألفه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي عتبة، الأموي مولاهم، المشهور بالعتبي، قال ابن الفرضي: «كان حافظا للمسائل، جامعا لها، عالما بالنوازل»، توفي سنة ٢٥٥هـ. وكتابه هذا يسمى «المستخرجة» أيضًا. انظر: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (٢/٨)، ترتيب المدارك (٤/٢٥٢-٢٥٣).

وفي المبسوط عن عثمان بن كنانة: من شتم النّبيّ ﷺ من المسلمين قتل أو صلب حيًّا ولم يستتب، والإمام مخيّر في صلبه حيًّا أو قتله.

ومن رواية أبي المصعب وابن أبي أويس: سمعنا مالكًا يقول: من سبّ رسول الله ﷺ أو شتمه أو عابه أو تنقّصه قتل، مسلمًا كان أو كافرًا، ولا يستتاب.

وفي كتاب محمّد أخبرنا أصحاب مالك أنّه قال: من سبّ النّبيّ ﷺ أو غيره مِن النّبيّين من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب، وقال أصبغ: يقتل على كلّ حالٍ أسرَّ ذلك أو أظهره، ولا يستتاب لأنّ توبته لا تعرف.

وحكى الطّبريّ مثله عن أشهب عن مالك، وروى ابن وهب عن مالك: من قال إن رداء النّبيّ ﷺ - ويروى: زرّ النّبيّ ﷺ - وسخ أراد به عيبه قتل[١٠].

وقال بعض علمائنا: أجمع العلماء على أنَّ مَنْ دعا على نبيّ من الأنبياء بالويل أو بشيء من المكروه أنّه يقتل بلا استتابة.

وأفتى أبو الحسن القابسيّ فيمن قال في النبي ﷺ: الجمّال يتيم أبي طالب بالقتل، وأفتى أبو محمّد ابن أبي زيد بقتلِ رجلٍ سمع قومًا يتذاكرون صفة النّبيّ ﷺ إذ مرَّ بهم رجلٌ قبيحُ الوجهِ واللّحيةِ، فقال لهم: تريدون تعرفون صفته، هي في صفة هذا المارّ في خلقه ولحيته. قال: ولا تقبل توبته، وقد كذب لعنه الله وليس يخرج من قلبٍ سليم الإيمان.

(١٠) النوادر والزيادات لابن أبي زيد (١٤/٥٢٩).

قال حبيب بن الربيع: لأنّ ادّعاء التأويل في لفظٍ صُراحٍ لا يُقْبَلُ، إنه استهان وهو غير معزِّر لرسول الله ﷺ ولا موقِّر له فوجب إباحة دمه.

وأفتى فقهاءُ الأندلس بقتل ابن حاتم المتفقِّه الطُّلَيْطِلِيِّ وصَلْبِهِ بما شُهِدَ عليه بهِ مِن استخفافه بحقّ النّبيّ ﷺ وتسميته إيّاه أثناء مناظرته باليتيم وختن حيدرة وزعمه أنّ زهده لم يكن قصدًا، ولو قدر على الطّيّبات أكلها إلى أشباهٍ لهذا.

وأفتى فقهاء القيروان وأصحاب سحنون بقتل إبراهيم الفزاريّ، وكان شاعرًا متفنّنًا في كثيرٍ مِن العلوم، وكان ممّن يحضر مجلس القاضي أبي العبّاس ابن طالب للمناظرة، فرُفِعَتْ عليه أمورٌ مُنْكَرَة مِن هذا الباب في الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبيّنا ﷺ، فأحضر له القاضي يحيى بن عمر وغيره من الفقهاء وأمر بقتله وصلبه، فطعن بالسّكّين وصلب منكّسًا، ثمّ أنزل وأحرق بالنّار.

وحكى بعض المؤرخين أنّه لمّا رفعت خشبته وزالت عنها الأيدي استدارت وحوّلته عن القبلة، فكان آية للجميع وكبر النّاس.

وقال القاضي أبو عبد الله ابن المرابط: من قال: إن النّبيّ ﷺ هزم يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، لأنه تنقّص، إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصّته، إذ هو على بصيرة مِن أمره ويقين من عصمته.

وقال ابن عتّاب: الكتاب والسّنّة موجبان أنّ مَنْ قصد النّبيّ ﷺ بأذى أو نقص معرّضًا أو مصرّحًا وإن قلّ فقتله واجب.

فهذا الباب كلّه ممّا عدَّه العلماءُ سبًّا أو تنقُّصًا يجب قتل قائله، لم يختلف في ذلك متقدّمهم ولا متأخرهم، وإن اختلفوا في حكم قتله على ما أشرنا إليه ونبيّنه بعد.

وكذلك حكم من غمصه أو عيّره برعاية الغنم أو السّهو أو النّسيان أو السّحر أو ما أصابه من جرح أو هزيمة لبعض جيوشه أو أذى من عدوه أو شدة من زمنه أو بالميل إلى نسائه فحكم هذا كلّه لمن قصد به نقصه القتل، وقد مضى من مذاهب العلماء في ذلك ويأتي ما يدل عليه.

فصل في الحجة في إيجاب قتل من سبه أو عابه ﷺ

فمِن القرآن لَعْنُه تعالى لمؤذيه في الدنيا والآخرة وقِرانه تعالى أذاه بأذاه ولا خلاف في قتل مَنْ سبَّ الله، وأنّ اللّعن إنّما يستوجبه مَنْ هو كافرٌ، وحكمُ الكافر القتلُ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال في قاتل المؤمن مثل ذلك، فمِنْ لعنته في الدنيا القتلُ، قال الله تعالى ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦١]، وقال في المحاربين وذكر عقوبتهم ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ [المائدة: ٣٣].

وقد يقع القتل بمعنى اللّعن، قال ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ [الذاريات: ١٠]، و﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠] [المنافقون: ٤]، أي لعنهم الله.

ولأنّه فرَّق بين أذاهما وأذى المؤمنين، وفي أذى المؤمنين ما دون القتل من الضّرب والنّكال، فكان حكم مؤذي الله ونبيّه أشدّ من ذلك وهو القتل.

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، فسلب اسم الإيمان عمّن وجد في صدره حرجًا من قضائه ولم يسلّم له، ومن تنقّصه فقد ناقض هذا.

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]، ولا يحبط العمل إلّا الكفر، والكافر يقتل.

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [المجادلة: ٨]، ثمّ قال ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة: ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، ثمّ قال ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، قال أهل التّفسير: كفرتم بقولكم في رسول الله ﷺ.

وأمّا الإجماع فقد ذكرناه.

وأمّا الآثار ففي الحديث الصّحيح أَمَرَ النّبيّ ﷺ بقتلِ كعب بن الأشرف وقوله: «مَنْ لِكعب بن الأشرف، فإنّه يُؤْذِي الله ورسوله»[11]، ووجّه إليه مَنْ

(١١) صحيح البخاري (١٤٢/٣)، وصحيح مسلم (١٤٢٥/٣).

قتلــه غِيلةً دون دعوةٍ بخلاف غيره مِن المشركــين وعلَّل بأذاه له، فدل أنّ قتله إياه لغير الإشراك بل للأذى.

وكذلــك قَتَــلَ أبا رافع. قــال الــبراء: وكان يؤذي رســول الله ﷺ ويُعين عليه(١٢).

وكذلك أمره يوم الفتح بقتل ابن خَطَلٍ وجاريتيه اللّتين كانتا تغنّيان بسبّه ﷺ(١٣).

وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّ أعمى كانت له أمُّ ولدٍ تَسُبُّ النّبيّ ﷺ فيَزْجُرُهــا فلا تنزجر، فلمّا كانت ذات ليلةٍ جعلت تقع في النّبيّ ﷺ وتشتمه، فقتلها وأعلم النّبيّ ﷺ بذلك، فأهدر دمها(١٤).

وفي حديــث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: كنت يومًا جالسًا عند أبي بكر الصديق، فغضب على رجلٍ مِن المسلمين - وحكى القاضي إسماعيل وغير واحــد من الأئمّة في هذا الحديث أنــه سبَّ أبا بكر، ورواه النّسائي: أتيتُ أبا بكــر وقد أغلظ لرجل -، فرد عليــه .قال: فقلت: يا خليفة رسول الله، دعني أضربْ عنقه فقال: اجلس فليس ذلك لأحد إلّا رسول الله ﷺ(١٥).

---

(١٢) صحيح البخاري (٥/٩١).

(١٣) صحيح البخاري (٣/١٧)، وصحيح مسلم (٢/٩٨٩).

(١٤) أخرجه أبو داود (٤/١٢٩)، والدارقطني في السنن (٤/١٦٦)، والحاكم في المستدرك (٤/٣٩٤)، وصححه ووافقه الذهبي.

(١٥) أخرجه أبو داود (٤/١٢٩) والنسائي (٧/١٠٨) وأحمد (١/٢٢٢) وغيرهم بإسناد صحيح.

قال القاضي أبو محمّد ابن نصر: ولم يخالف عليه أحد، فاستدلّ الأئمّة بهذا الحديث على قتلِ مَنْ أغضب النّبيّ ﷺ بكلِّ ما أغضبه أو آذاه أو سبّه.

ومِن ذلك كتابُ عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة وقد استشاره في قتل رجلٍ سبَّ عمر رضي الله عنه، فكتب إليه عمر: إنّه لا يحلّ قتل امرئٍ مسلم بسبِّ أحدٍ مِنَ النّاس إلّا رجلًا سبّ رسول الله ﷺ، فمن سبّه فقد حلَّ دمه[١٦].

ويدل على قتله مِن جهة النّظرِ والاعتبار أنَّ مَنْ سبّه أو تنقّصه ﷺ فقد ظهرت علامةُ مَرَضِ قلبه، وبرهانُ سِرِّ طويَّتِه وكُفْرِه، ولهذا حكم عليه كثيرٌ مِن العلماء بالرّدّة، وهي رواية الشّاميّين عن مالك والأوزاعيّ وقول الثّوريّ وأبي حنيفة والكوفيّين، والقول الآخر أنّه دليلٌ على الكفر، فيقتل حدًّا وإن لم يحكم له بالكفر، إلّا أنّ يكون متماديًا على قوله غيرَ مُنْكِرٍ له ولا مُقْلِعٍ عنه فهذا كافر.

وقوله إمّا صريحُ كفرٍ كالتّكذيب ونحوه، أو من كلمات الاستهزاء والذّمّ؛ فاعترافه بها وترك توبته عنها دليل استحلاله لذلك، وهو كفر أيضًا، فهذا كافر بلا خلاف.

قال الله تعالى في مثله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤]، قال أهل التّفسير: هي قولهم: إن كان ما يقول محمّد حقًا لنحن شرٌّ مِن الحمير، وقيل: بل قول بعضهم: ما مثلنا ومثل

(١٦) السنن الكبرى للبيهقي (٨/٣١٩).

محمّد إلّا قـول القائل سمِّن كلبك يأكلْك وقولهـم: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، وقد قيل: إن قائل مثل هذا إن كان مستترًا به أنّ حكمَـه حكمُ الزّنديق يُقْتَل، ولأنّه قد غيَّر دينه، وقد قال ﷺ: «مَنْ غيّر دينه فاضربـوا عنقه»[١٧]، ولأن لحكم النّبـيّ ﷺ في الحرمة مزيّةً على أمّته، وسابُّ الحـرّ مِن أمّته يحدّ، فكانـت العقوبة لمن سبّه ﷺ القتل لِعظيمِ قدرِهِ وشُفُوفِ منزلتِه على غيره.

فصل في أسباب عدم قتل النبي ﷺ لبعض من سبَّه أو تنقَّصه

فإن قلت: فلـم لم يقتل النّبيّ ﷺ اليهوديّ الذي قال له: السّام عليكم، وهـذا دعاءٌ عليه، ولا قتـل الآخر الذي قال له: إن هذه لقِسْمَـةٌ ما أُرِيدَ بها وجـهُ الله، وقد تأذّى النّبيّ ﷺ من ذلك، وقال: قـد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر، ولا قتل المنافقين الذين كانوا يؤذونه في أكثر الأحيان؟

فاعلـم وفقنـا الله وإيـاك أن النبـي ﷺ كان أوَّلَ الإسـلام يستألف عليه النّاسَ ويُميل قلوبَهم ويحبِّـب إليهم الإيمانَ ويزيِّنه في قلوبهم ويدارئُهم ويقول لأصحابـه: «إنّما بُعِثْتم ميسِّرين ولم تُبْعَثوا منفِّريـن»[١٨]، ويقول: «يسِّروا ولا تعسِّـروا وسكِّنوا ولا تنفِّروا»[١٩]، ويقول: «لا يتحدَّثُ النّاسُ أنَّ محمّدًا يقتل أصحابه»[٢٠].

(١٧) صحيح البخاري (٦١/٤)، بلفظ: «من بدل دينه فاقتلوه».
(١٨) صحيح البخاري (٥٤/١).
(١٩) صحيح البخاري (٢٥/١)، وصحيح مسلم (١٣٥٨/٣).
(٢٠) المصدران السابقان (١٥٤/٦)، (١٩٩٨/٤).

وكان ﷺ يُداري الكفّارَ والمنافقين ويُجمِل صحبتَهم ويُغضي عنهم ويحتمل مِـن أذاهـم ويصبر على جفائهم ما لا يجوز لنا اليـوم الصّبرُ لهم عليه، وكان يُرْفِقُهـم بالعطاء والإحسان، وبذلك أمـره الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائـدة: ١٣]، وقال تعـالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وذلك لحاجة النّاسِ للتّألُّفِ أوّلَ الإسلام وجمعِ الكلمة عليه.

فلمّـا استقرّ وأظهـره الله على الدّين كلّه قَتَلَ مَنْ قـدر عليه واشتهر أمره، كفعلـه بابن خطل ومن عَهِدَ بقتله يومَ الفتح ومـن أمكنه قتلُه غِيلةً مِنْ يهودَ وغيرِهم أو غَلَبَةً ممّن لم ينظمه قبلُ سِلْكُ صحبته والانخراطُ في جملة مُظْهري الإيمان به ممّن كان يُؤذيه كابن الأشرف وأبي رافع والنضر وعقبة.

وكذلـك نذر دمَ جماعةٍ سواهم ككعب بن زُهَـير وابن الزِّبَعْرَى وغيرهما ممّن آذاه حتّى ألقَوْا بأيديهم ولَقُوه مسلمين.

وبواطـنُ المنافقين مُسْتترَةٌ، وحكمُه ﷺ على الظّاهر، وأكثرُ تلك الكلمات إنّمـا كان يقولهـا القائـلُ منهم خُفْيـةً ومع أمثالـه، ويحلفون عليهـا إذا نُمِيَتْ ويُنْكِرُونهـا، ويحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر، وكان مع هذا يطمع في فَيْأَتِهـم ورجوعِهم إلى الإسلام وتوبتهم، فيصبر ﷺ على هَناتِهم وجَفْوَتِهم كمـا صبر أولو العـزم من الرّسل، حتّى فاء كثيرٌ منهـم باطنًا كما فاء ظاهرًا،

وأخلص سرًا كما أظهر جهرًا، ونفع الله بعدُ بكثيرٍ منهم، وقام منهم للدين وزراءُ وأعوانٌ وحُماةٌ وأنصارٌ كما جاءت به الأخبار.

وبهذا أجاب بعضُ أئمتنا رحمهم الله عن هذا السؤال، قال: ولعله لم يثبت عنده ﷺ من أقوالِهم ما رُفِعَ، وإنّما نقله الواحدُ ومَنْ لم يَصِلْ رتبةَ الشّهادة في هذا البابِ مِنْ صبيٍّ أو عبدٍ أو امرأةٍ، والدّماءُ لا تُستباح إلّا بعدلين، وعلى هذا يحمل أمر اليهوديِّ في السّلام وأنّهم لوَّوْا به ألسنتَهم ولم يبيِّنوه، ألا ترى كيف نبَّهت عليه عائشةُ رضي الله عنها، ولو كان صرَّح بذلك لم تنفرد بعلمه.

ولهذا نبّه النّبيّ ﷺ أصحابه على فعلهم، وقلّة صدقهم في فعلهم، وقلّة صدقهم في سلامهم، وخيانتهم في ذلك، ليًّا بألسنتهم وطعنًا في الدين، فقال ﷺ: «إنّ اليهود إذا سلَّم أحدهم فإنّما يقول: السّام عليكم فقولوا: عليكم»[٢١].

وكذلك قال بعض أصحابنا البغداديّين: إنّ النّبيّ ﷺ لم يقتل المنافقين بعلمه فيهم ولم يأت أنّه قامتْ بيِّنةٌ على نفاقهم، فلذلك تركهم.

وأيضا فإنّ الأمر كان سرًّا وباطنًا وظاهرهم الإسلام والإيمان، وإن كان مِن أهل الذّمّة بالعهد والجوار، والنّاسُ قريبٌ عهدُهم بالإسلام لم يتميَّزْ بعدُ الخبيثُ مِن الطيبِ.

وقد شاع عن المذكورين في العرب كونُ مَنْ يُتَّهم بالنّفاق مِن جملة المؤمنين وصحابةِ سيِّد المرسلين وأنصارِ الدّين بحكم ظاهرهم، فلو قتلهم

(٢١) صحيح البخاري (٨/٥٧)، وصحيح مسلم (٤/١٧٠٥)، بلفظ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم».

النّبـيّ ﷺ لنِفاقِهم وما يبدر منهم وعِلْمِـهِ بما أسرّوا في أنفسهم لوجد المنفِّر ما يقول ولارتاب الشَّارد وأَرْجَفَ المعاند، وارتاع مِن صحبة النّبيّ ﷺ والدّخولِ في الإسـلام غيرُ واحد، ولَزَعَمَ الزّاعمُ وظنَّ العدوُّ الظّـالمُ أنَّ القتلَ إنّما كان للعداوة، وطلبِ أخذِ التِّرَةِ.

وقـد رأيتُ معنى ما حررتُه منسوبًا إلى مالك بن أنس، ولهذا قال ﷺ: «لا يتحـدَّث النّاس أنّ محمّدًا يقتل أصحابـه»، وقال: «أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»[٢٢].

وهذا بخلافِ إجراء الأحكام الظّاهرة عليهم مِنْ حدودِ الزنا والقتلِ وشِبْهِه لظهورِها واستواءِ النّاس في عِلْمِها، وقد قال محمّد بن المَوّاز: لو أظهر المنافقون نفاقهم لقتلهم النّبيّ ﷺ، وقاله القاضي أبو الحسن ابن القصّار.

وقـال قتادة في تفسـير قوله تعـالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحـزاب: ٦٠ - ٦١]، قـال: معناه إذا أظهروا النّفاق[٢٣].

وقال بعض مشايخنا: لعلَّ القائل: «هذه قسمة ما أريد بها وجه الله» وقوله «اعـدل» لم يفهم النّبيّ ﷺ منـه الطعن عليه والتّهمة له وإنّمـا رآها مِنْ وجه

(٢٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٢٣٩ ط. الأعظمي)، والشافعي في مسنده (ص٣٢٠)، وأحمد (٣٩/٧٣)، وغيرهم وإسناده صحيح.

(٢٣) تفسير الطبري (٢٠/٣٢٨).

الغلـطِ في الرّأي وأمـور الدنيا والاجتهاد في مصالح أهلهـا، فلم يَرَ ذلك سبًّا ورأى أنّه مِن الأذى الذي له العفوُ عنه والصّبر عليه، فلذلك لم يعاقبه.

وكذلـك يقال في اليهود إذ قالوا: السّام عليكم ليس فيه صريحُ سبٍّ ولا دعاءٌ إلّا بما لا بدَّ منه مِن الموت الذي لا بدَّ مِن لحاقه جميعَ البشر.

وقيـل: بل المرادُ تسأمون دينكم، والسّأم والسّآمة الملال، وهذا دعاءٌ على سآمـة الدينِ ليس بصريح سـبٍّ، ولهذا ترجم البخـاريّ على هذا الحديث «باب إذا عرّض الذّمّيّ أو غيره بسبّ النّبيّ ﷺ»[٢٤].

قال بعض علمائنا: وليس هذا بتعريض بالسّبّ وإنّما هو تعريض بالأذى.

وقـد قدّمنا أنّ الأذى والسّبَّ في حقّه ﷺ سواءٌ، وقال القاضي أبو محمّد ابـن نصر مجيبًا عـن هذا الحديث ببعض مـا تقدم، ثمّ قـال: ولم يُذْكَرْ في الحديـث هل كان هـذا اليهوديُّ مِن أهل العهد والذّمَّـة أو الحربِ ولا يُتْرَكُ موجِبُ الأدلةِ للأمر المحتمل، والأولى في ذلك كلّه والأظهرُ مِن هذه الوجوه مقصـدُ الاستئـلاف والمداراة علـى الدين لعلهـم يؤمنـون، ولذلك ترجم البخـاريّ على حديث القسمة والخوارج «باب من ترك قتال الخوارج للتألُّف ولئـلا ينفر النّاس عنه»[٢٥]، ولما ذكرنا معناه عن مالك وقررناه قبل، وقد صبر لهـم ﷺ على سِحْره وسُمِّه، وهو أعظم مِنْ سبِّه إلى أنْ نصره الله عليهم وأذن له في قتل مَنْ عيَّنـه منهم وإنزالِهم مِن صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب،

(٢٤) صحيح البخاري (١٥/٩).

(٢٥) المصدر السابق (١٧/٩).

وكتب على مَنْ شاء منهم الجلاء وأخرجهم مِن ديارهم وخرَّب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وحكَّم فيهم سيوفَ المسلمين وأجلاهم مِن جِوارهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم لتكونَ كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى[٢٦].

فإن قلت: فقد جاء في الحديث الصّحيح عن عائشة رضي الله عنها أنّه ﷺ «ما انتقم لنفسه في شيءٍ يُؤْتَى إليه قطُّ إلَّا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله»، فاعلم أنّ هذا لا يقتضي أنّه لم ينتقم ممّن سبَّه أو آذاه أو كذّبه، فإن هذه مِنْ حُرُماتِ الله الّتي انتقم لها، وإنّما يكون ما لا ينتقم له فيما تَعَلَّق بسوءِ أدبٍ أو معاملةٍ مِن القول والفعل بالنّفس والمال ممّا لم يقصد فاعله به أذاه، لكن ممّا جُبِلَتْ عليه الأعرابُ مِن الجفاء والجهل أو جُبِلَ عليه البشرُ مِن السّفه، كجبذ الأعرابيّ رداءَه حتّى أثَّر في عنقه، وكرفع صوت الآخر عنده، وكجحد الأعرابيِّ شراءه منه فرسه الّتي شهد فيها خزيمة رضي الله عنه، وكما كان من تظاهر زوجيه عليه وأشباه هذا ممّا يحسن الصفح عنه.

وقد قال بعض علمائنا: إنّ أذى النّبيّ ﷺ حرامٌ لا يجوز بفعلٍ مباحٍ ولا غيرِهِ، وأمَّا غيره فيجوز بفعل مباح ممّا يجوز للإنسان فعله وإن تأذى به غيره، واحتج بعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وبقوله ﷺ في حديث فاطمة رضي الله عنها: «إنها

(٢٦) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٦٧/٥)، والحاكم في المستدرك (٣٧/٣)، والبيهقي في الدلائل (٩/٤)، وغيرهم.

بضعـةٌ منّي يؤذيني ما يؤذيها، ألا وإنّي لا أحرِّم ما أحلَّ الله، ولكن لا تجتمع ابنةُ رسولِ الله وابنةُ عدوِّ الله عند رجلٍ أبدًا»[٢٧].

أو يكون هذا ممّا آذاه به كافرٌ رجا ﷺ بعد ذلك إسلامَه كعفوه عن اليهودي الذي سحره وعـن الأعرابيِّ الذي أراد قتله، وعن اليهودية التي سَمَّتْه، وقد قيل: قتلها، ومثل هذا مما يبلغه مِنْ أذى أهل الكتاب والمنافقين فصفح عنهم رجاءَ استئلافهم واستئلاف غيرهم كما قررناه قبل، وبالله التوفيق.

فصل

تقـدم الكلام في قتل القاصد لسبّه والإزراء به وغمصه بأيّ وجه كان من ممكن أو محال، فهذا وجه بين لا إشكال فيه

والوجـه الثاني لاحقٌ بـه في البيان والجلاء، وهو أن يكـون القائلُ لما قال في جهتـه ﷺ غيرَ قاصدٍ للسّبِّ والإزراءِ ولا معتقدٍ له، ولكنه تكلَّم في جهته ﷺ بكلمـة الكفر مِـنْ لعنه، أو سبِّه، أو تكذيبه، أو إضافة ما لا يجوز عليه، أو نفـي ما يجب له ممّا هو في حقّه ﷺ نقيصةٌ، مثـل أن ينسب إليه إتيانَ كبيرةٍ، أو مداهنـةً في تبليغ الرّسالة، أو في حكـم بين النّاس، أو يغضُّ مِن مرتبته، أو شـرفِ نسبـه، أو وفور علمه، أو زهده، أو يكذِّب بمـا اشتهر مِن أمورٍ أخبر بها ﷺ وتواتـر الخبرُ بها عَنْ قصدٍ لردِّ خبرِه، أو يأتي بسَفَهٍ مِن القول أو قبيح مِن الكلام ونوع مِن السّبِّ في جهته، وإن ظهر بدليلِ حالِه أنّه لم يعتمد ذمّه ولم

(٢٧) صحيح البخاري (٥/٢٢)، وصحيح مسلم (٤/١٩٠٢).

يقصــد سبّه، إمّا لجهالةٍ حملته على ما قاله، أو لضَجَرٍ أو سُكْرٍ اضطرّه إليه، أو قلَّةِ مُراقبةٍ وضبــطٍ للسانه، وعَجْرَفَة وتهوُّر في كلامه، فحكم هذا الوجه حكمُ الوجه الأوّل القتلُ دون تَلَعْثُم، إذ لا يُعْذَرُ أحدٌ في الكفر بالجهالة، ولا بدعوى زللِ اللسانِ، ولا بشيءٍ ممّا ذكرناه إذا كان عقلُه في فطرته سليمًا، إلّا مَنْ أكْرِهَ وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان.

وبهــذا أفتى الأندلسيُّون على ابن حــاتم في نفيه الزّهد عن رسول الله ﷺ الذي قدّمناه.

وعن أبي محمد ابن أبي زيد: لا يعذر بدعوى زلل اللسان في مثل هذا[٢٨].

وأفتى أبو الحسن القابسي فيمن شتم النّبيّ ﷺ في سُكْرِه يقتل؛ لأنّه يُظنُّ به أنَّه يعتقد هذا ويفعله في صَحْوِهِ، وأيضًا فإنّه حدٌّ لا يسقطه السُّكْر كالقذفِ والقتل وسائر الحدود، لأنّه أدخله على نفسه؛ لأنَّ مَنْ شَرِبَ الخمر على علم مِنْ زوالِ عقلِهِ بها وإتيانِ ما يُنْكَرُ منه فهو كالعامد لما يكون بسببه، وعلى هذا ألزمنــاه الطلاق والعتاق والقصاص والحدود، ولا يعترض على هذا بحديث حمزة رضي الله عنه وقوله للنّبيِّ ﷺ: «وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبي، قال: فعرف النّبيّ ﷺ أنّه ثَمِلٌ فانصرف»[٢٩]، لأنّ الخمر كانت حينئذ غير محرَّمة.

(٢٨) انظر: النوادر والزيادات لابن أبي زيد (١٤/٥٢٥-٥٢٨).

(٢٩) صحيح البخاري (٣/١١٤)، وصحيح مسلم (٣/١٥٦٨).

الوجـه الثالـث أن يقصد إلى تكذيبه فيما قاله أو أتـى به أو ينفي نبوَّته أو رسالتـه - انتقل بقوله ذلك إلى دينٍ آخر غير ملَّته أم لا - فهذا كافرٌ بإجماعٍ يجب قتلُه.

ثـم ينظر: فـإن كان مصرِّحًا بذلك كان حكمُه أشبـهَ بحكم المرتدِّ وقوي الخـلاف في استتابته، وعلى القـول الآخر: لا تُسْقِطُ القتـلَ عنه توبتُه لحقِّ النّبيّ ﷺ إنْ كان ذكره بنقيصةٍ فيما قاله مِنْ كَذِبٍ أو غيره.

وإنْ كان متسـتِّرًا بذلك فحكمه حكم الزّنديق لا تُسْقِطُ قتلَه التّوبةُ عندنا كما سنبيِّنه.

قـال أبو حنيفـة وأصحابه: من برئ مِن محمّـد ﷺ أو كذَّب به فهو مرتدٌّ حلال الدّم إلّا أن يرجع[٣٠].

وقـال ابن القاسم في المسلـم إذا قال: «إنّ محمّدًا ليس بنبي أو لم يرسل أو لم ينـزل عليه قرآن، وإنّما هو شـيء تقوّله»: يقتل، وقال: ومن كفر برسول الله ﷺ وأنكـره مِن المسلمين فهو بمنزلة المرتد، وكذلك مَنْ أعلن بتكذيبه أنَّه كالمرتد يستتاب، وكذلك قال فيمن تنبّأ وزعم أنه يوحى إليه، وقاله سحنون. وقال ابن القاسم: دعا إلى ذلك أو جهر.

وقال أشهب في يهوديٍّ تنبّأ أو زعم أنّه أرسل إلى النّاس أو قال: بعد نبيكم نبيٌّ أنّه يُستتاب إن كان مُعْلِنًا بذلك، فإن تاب وإلّا قُتِل، وذلك لأنّه مكذِّب

(٣٠) البحر الرائق (١٣٥/٥)، الدر المختار (٢٣٢/٤).

للنّبـيّ ﷺ في قوله: «لا نبيّ بعـدي»، مُفْتَرٍ على الله في دعـواه عليه الرسالة والنبوة[٣١].

وقال محمّد بن سحنون: مَنْ شكَّ في حرفٍ ممّا جاء به محمّد ﷺ عن الله فهو كافرٌ جاحدٌ، وقال: مَنْ كذَّب النّبيّ ﷺ كان حكمُه عند الأمّة القتلَ.

قال حبيب بن ربيع: تبديلُ صفته ﷺ ومواضعِه كفرٌ، والمظهر له كافر، وفيه الاستتابة والمسرُّ له زنديقٌ يُقْتَلُ دون استتابة.

الوجـه الرابع أن لا يقصد نقصًا ولا يذكر عيبًـا ولا سبًّا، لكنه ينزع بذكر بعض أوصافه أو يستشهد ببعض أحواله ﷺ الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضـرب المثل والحجة لنفسه أو لغيره أو على التشبـه به أو عند هضيمة نالته أو غضاضـة لحقته ليس على طريق التأسي وطريق التحقيق، بل على مقصد التّرفيـع لنفسه أو لغـيره أو على سبيل التّمثيل وعـدم التّوقير لنبيّه ﷺ، أو قصـد الهزل والتّندير بقوله، كقـول القائل: إن قيـل فيَّ السّوء فقد قيل في النّبـيّ، أو إن كُذِّبْتُ فقد كُذِّب الأنبياء، أو إن أذنبتُ فقد أذنبوا، أو أنا أسلمُ مِـنْ ألسنة النّاس ولم يَسْلَـمْ منهم أنبياءُ الله ورسله؟ أو قد صبرتُ كما صبر أولـو العزم، أو كصبر أيّوب، أو قد صبر نبيّ الله عن عداه وحلم على أكثرَ ممّا صبرتُ، وكقول المتنبي:

أنـا في أمّـة تـداركـهـا الـلّـه غريبٌ كصالحٍ في ثمود[٣٢]

(٣١) النوادر والزيادات لابن أبي زيد (١٤/٥٣٢).

(٣٢) البيت من الخفيف، من قصيدة قالها في صباه، مطلعها:

كـم قتيـلٍ كمـا قتلـت شهيـدٍ ببياضـ الطّلـى وورد الخـدودِ

ونحوه مِن أشعارِ المتعجرِفين في القول، المتساهلين في الكلام.

وجاءت فُتيا إمام مذهبنا مالك بن أنس وأصحابه في النَّوادر مِن رواية ابن أبي مريم في رجل عيَّر رجلا بالفقر، فقال: تُعيِّرني بالفقر، وقد رعى النّبيّ ﷺ الغنم، فقال مالك: قد عرّض بذكر النّبيّ ﷺ في غير موضعه أرى أنّ يؤدّب، قال: ولا ينبغي لأهل الذّنوب إذا عوتبوا أن يقولوا: قد أخطأت الأنبياء قبلنا[٣٣].

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: انظر لنا كاتبًا يكون أبوه عربيًّا، فقال كاتب له: قد كان أبو النّبيّ كافرًا. فقال: جعلت هذا مثلًا؟! فعزله وقال: لا تكتب لي أبدًا[٣٤].

وقد كره سحنون أن يصلى على النبي ﷺ عند التّعجّب إلّا على طريق الثواب والاحتساب، توقيرًا له وتعظيمًا كما أمرنا الله[٣٥].

وقال أبو الحسن القابسي في شابٍّ معروف بالخير قال لرجل شيئًا فقال له الرجل: اسكتْ فإنك أمّيٌّ فقال الشابّ: أليس كان النّبيّ ﷺ أمّيًّا؟ فشنَّع عليه مقاله وكفَّره النّاسُ وأشفق الشّابُّ مما قال وأظهر الندم عليه، فقال أبو الحسن: أما إطلاق الكفر عليه فخطأ، لكنه مُخْطِئٌ في استشهاده بصفة النّبيّ ﷺ، وكونُ النبي أمّيًّا آيةٌ له وكون هذا أمّيّا نقيصةٌ فيه وجهالةٌ، ومِن

ديوان المتنبي (ص١٦)، تحقيق: عبد الوهاب عزام، مجلة الذخائر، المجلد الأول.

(٣٣) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٩).

(٣٤) المصدر السابق (١٤/٥٢٩)، البيان والتحصيل لابن رشد القرطبي (١٦/٣٩٨).

(٣٥) النوادر والزيادات (١٤/٥٣٠).

جهالتِـه احتجاجُه بصفة النّبيّ ﷺ، لكنه إذا استغفر وتاب واعترف ولجأ إلى الله فيـترك، لأنّ قوله لا ينتهـي إلى حدِّ القتل، وما طريقُه الأدبُ فطَوْعُ فاعله بالندم عليه يُوجِب الكفَّ عنه.

ونزلتْ أيضًـا مسألةٌ استفتى فيها بعضُ قضـاةِ الأندلسِ شيخَنا القاضيَ أبـا محمّد ابن منصور في رجـلٍ تنقَّصه آخرُ بشيءٍ، فقال له: إنما تريد نقصي بقولك، وأنا بشرٌ وجميعُ البشر يلحقهم النقص حتّى النّبيّ ﷺ، فأفتاه بإطالةِ سَجْنِـه وإيجاعِ أدبـه إذ لم يقصد السبَّ، وكان بعضُ فقهاء الأندلس أفتى بقتله.

الوجـه الخامس أن يقول القائل ذلـك حاكيًا عن غيره وآثرًا له عن سواه، فهـذا يُنْظَر في صورةِ حكايته وقرينـةِ مقالته، ويختلف الحكمُ باختلاف ذلك على أربعةِ وجوهٍ: الوجوب، والنّدب، والكراهة، والتّحريم.

فـإن كان أخبر به على وجه الشّهادة والتّعريـف بقائله والإنكار والإعلام بقوله والتّنفير منه والتّجريح له، فهذا ممّا ينبغي امتثاله ويحمد فاعله، وكذلك إن حكاه في كتابٍ أو في مجلسٍ على طريق الردِّ له والنقض على قائله والفتيا بما يلزمه.

وهـذا مِنه ما يجـب، ومنه ما يستحـب بحسب حـالات الحاكي لذلك والمحكـي عنه، فإن كان القائـلُ لذلك ممّن تصدَّى لأن يُؤْخَـذَ عنه العلم أو روايـةُ الحديـث أو يُقْطَع بحكمـه أو شهادته أو فتيـاه في الحقوقِ وجب على سامعـه الإشـادةُ بما سمع منـه والتّنفير للنّاسـ عنه والشهادةُ عليـه بما قاله،

ووجــب على مَنْ بلغه ذلك مِنْ أئمّة المسلمين إنكارُهُ وبيانُ كفره وفسادُ قوله بقطعِ ضررِه عن المسلمين وقيامًا بحقّ سيّد المرسلين ﷺ.

وكذلك إن كان ممّن يَعِظُ العامَّةَ أو يؤدِّب الصّبيانَ فإنَّ مَنْ هذه سريرتُه لا يُؤْمَــنُ على إلقاء ذلك في قلوبهم فيتأكَّدُ في هــؤلاء الإيجابُ لحقِّ النبي ﷺ ولحقِّ شريعته.

وإنْ لم يكــن القائلُ بهذه السبيل فالقيامُ بحقِّ النبيِّ ﷺ واجبٌ وحمايةُ عِرْضِه متعيِّنٌ ونصرتُــه على الأذى حيًّا وميتًا مستحَقٌّ على كلِّ مؤمن، لكنه إذا قــام بهــذا مَنْ ظهر به الحــقُّ وفصلت به القضيَّة وبان بــه الأمرُ سقط عن الباقــي الفرضُ، وبقي الاستحبابُ في تكثيرِ الشّهــادة عليه وعضد التّحذير منه، وقد أجمع السّلف على بيان حال المتّهم في الحديث فكيف بمثل هذا؟

وقــد سئل أبو محمّد ابن أبــي زيد عن الشّاهد يسمــع مثل هذا في حقّ الله تعــالى: أيَسَعُه أنْ لا يــؤدِّيَ شهادتَه؟ قال: إن رجا نفــاذَ الحكم بشهادته فليشهدْ، وكذلك إن علم أنَّ الحاكم لا يرى القتل بما شهد به ويرى الاستتابة والأدب فليشهدْ ويَلْزَمُه ذلك.

وأمّا الإباحةُ لحكاية قوله لغير هذين المقصدين فلا أرى لها مدخلًا في هذا الباب، فليس التفكُّهُ بعِرْضِ رســولِ الله ﷺ والتمضْمُضُ بسوءِ ذِكْرِه لأحدٍ لا ذاكرًا ولا آثرًا لغيرِ غَرَضٍ شرعيٍّ بمباح. وأمّا للأغراض المتقدمة فمتردِّدٌ بين الإيجابِ والاستحبابِ.

وقد حكى الله تعالى مقالاتِ المفترين عليه وعلى رُسُلِه في كتابه على وجه الإنكار لقولهم، والتحذير من كفرهم، والوعيد عليه والرد عليهم بما تلاه الله علينا في محكم كتابه، وكذلك وقع مِن أمثاله في أحاديث النّبيّ ﷺ الصحيحة على الوجوه المتقدمة، وأجمع السلف والخلف مِن أئمّة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم ليبيِّنوها للناس وينقُضوا شُبَهَها عليهم.

فأمَّا ذكرها على غير هذا مِن حكايةِ سبِّه والإزراءِ بمنصبه على وجه الحكايات والأسمار والطُّرَف وأحاديثِ النّاس ومقالاتهم في الغثِّ والسمين ومضاحِكِ المُجَّان ونوادرِ السُّخَفاء والخَوْضِ في قِيلَ وقال وما لا يعني فكلُّ هذا ممنوعٌ، وبعضُه أشدُّ في المنع والعقوبة مِن بعض.

فما كان مِن قائله الحاكي له على غير قصدٍ أو معرفة بمقدار ما حكاه أو لم تكن عادتَه أو لم يكن الكلامُ مِن البشاعةِ حيث هو ولم يَظْهَرْ على حاكيه استحسانُه واستصوابُه زُجِرَ عن ذلك ونُهِيَ عن العودة إليه، وإن قُوِّم ببعض الأدب فهو مستوجِبٌ له، وإن كان لفظُه مِن البشاعةِ حيث هو كان الأدبُ أشدَّ.

وقد حكي أنّ رجلًا سأل مالكًا عمّن يقول: القرآن مخلوق فقال مالك: كافر فاقتلوه، فقال: إنما حكيته عن غيري، فقال مالك: إنّما سمعناه منك. وهذا من مالك على طريق الزجر والتغليظ بدليل أنه لم ينفِّذ قتله[٣٦].

(٣٦) شرح أصول الاعتقاد (٢/٢٧٥).

وإن اتهم هذا الحاكي فيما حكاه أنه اختلقه ونسبه إلى غيره أو كانت تلك عادةً له أو ظهر استحسانُه لذلك أو كان مولعًا بمثله والاستخفاف له أو التحفظ لمثله وطلبه ورواية أشعار هجوه ﷺ وسبِّه فحكمُ هذا حكمُ السّابِّ نفسِهِ، يُؤاخَذُ بقوله ولا تنفعه نسبتُه إلى غيره، فيُبادَرُ بقتله ويُعَجَّلُ إلى الهاوية أمِّهِ.

ورحم الله أسلافَنا المتَّقين المتحرِّزين لدينهم، فقد أسقطوا مِن أحاديثِ المغازي والسِّيَر ما كان هذا سبيلَه، وتركوا روايته إلّا أشياءَ ذكروها يسيرةً وغيرَ مُستبشَعَةٍ على نحو الوجه الأول ليُرُوا نقمةَ الله مِن قائلها وأخذِه المفتريَ عليه بذنبه.

وهذا أبو عبيد القاسم بن سلام قد تحرَّى فيما اضْطُرَّ إلى الاستشهادِ به مِن أهاجي أشعارِ العرب في كتبه، فكنَّى عن اسم المهجوِّ بوزن اسمه استبراءً لدينه وتحفظًا مِن المشاركة في ذمِّ أحدٍ بروايته أو نشره، فكيف بما يتطرق إلى عِرضِ سيّد البشر ﷺ.

الوجه السادس أن يذكر ما يجوز على النّبيّ ﷺ أو يختلف في جوازه عليه وما يطرأ من الأمور البشرية به ويمكن إضافتُها إليه، أو يذكر ما امْتُحِن به وصبر في ذات الله على شدَّته مِنْ مقاساةِ أعدائه وأذاهم له ومعرفةِ ابتداء حاله وسيرته وما لقيه مِنْ بُؤْسِ زمنِه ومرَّ عليه مِن معاناةِ عِيشتِه، كلُّ ذلك على طريق الرِّواية ومذاكرةِ العلم، ومعرفة ما صحَّتْ منه العصمةُ للأنبياءِ وما

يجـوز عليهم، فهذا فنٌّ خارجٌ عن هذه الفنـون الخمسة؛ إذ ليس فيه غمصٌ ولا نقصٌ ولا إزراءٌ ولا استخفافٌ لا في ظاهر اللَّفظ ولا في مقصد اللافظ.

فقد قال ﷺ مُخبرًا عن نفسه باستئجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله وقال: «ما مِن نبيٍّ إلا وقد رعى الغنم»[٣٧]، وأخبرنا الله تعالى بذلك عن موسى عليه السلام، وهـذا لا غضاضـة فيه جملةً واحدةً لمن ذكره على وجهـه بخلاف مَنْ قَصَدَ بـه الغضاضة والتّحقير، بل كانت عـادةَ جميع العرب، نعم في ذلك للأنبياءِ حكمةٌ بالغةٌ وتدريجٌ لله تعالى لهم إلى كرامته وتدريبٌ برعايتها لسياسةِ أممهم مِن خليقته بما سبق لهم مِن الكرامة في الأزل ومتقدم العلم.

وكذلـك قد ذكر الله يُتْمَه وعيلته على طريق المنة عليه والتعريف بكرامته لـه، فذكر الذاكر لها على وجه تعريف حاله والخبر عن مبتدئه والتّعجُّب مِنْ مِنَـحِ اللهِ قِبَلَهُ وعظيم منّته عنده ليس فيـه غضاضة، بل فيه دلالةٌ على نبوّته وصحّـة دعوته، إذ أظهره الله تعالى بعد هـذا على صناديد العرب، ومَنْ ناوأه مِـن أشرافهم شيئًا فشيئًا ونمَّى أَمْـرَه، حتّى قهرهم وتمكّن مِن ملك مقاليدهم واستباحـة ممالكِ كثيرٍ مِـن الأمم غيرهم بإظهار الله تعالى لـه، وتأييده بنصره وبالمؤمنين وألَّف بين قلوبهم، وإمدادِه بالملائكة المسوّمين، ولو كان ابنَ مَلِكٍ أو ذا أشياعٍ متقدِّمين لحسب كثيرٌ مِن الجهال أن ذلك مُوجِبُ ظهورِه ومقتضى علوِّه.

(٣٧) صحيح البخاري (٣/٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصحيح مسلم (٢/١٦٢١) من حديث جابر ﷺ.

ولهذا قال هِرَقْلُ حين سأل أبا سفيان رضي الله عنه عنه: هل في آبائه مِنْ مَلِكٍ؟ ثم قال: ولو كان في آبائه ملكٌ لقلنا: رجلٌ يطلب مُلْكَ أبيه[٣٨].

ووجودُ مثل ذلك مِن رجلٍ لم يقرأ ولم يكتب ولم يُدارس ولا لقِّن مُقتضى العجبِ ومنتهى العبر ومعجزة البشر، وليس في ذلك نقيصةٌ؛ إذ المطلوبُ مِن الكتابة والقراءة المعرفةُ، وإنّما هي آلةٌ لها وواسطةٌ مُوصِلة إليها غيرُ مرادةٍ في نفسها، فإذا حصلت الثّمرة والمطلوبُ استُغْنِيَ عن الواسطة والسّبب.

كلُّ هذا مِن فضائله ومآثره وشرفه كما ذكرناه، فمَنْ أورد شيئًا مِنْها مَوْرِدَه وقصد بها مقصده كان حسنًا، ومَنْ أورد ذلك على غير وجهه وعُلِمَ منه بذلك سوءُ قصدِه لَحِقَ بالفصولِ التي قدَّمنا.

وكذلك ما ورد مِن أخباره وأخبارِ سائرِ الأنبياءِ عليهم السّلام في الأحاديثِ ممّا في ظاهره إشكالٌ يقتضي أمورًا لا تليقُ بهم بحالٍ وتحتاج إلى تأويلٍ وتردّد احتمال، فلا يجب أن يتحدّث منها إلا بالصحيح، ولا يروى منها إلّا المعلوم الثّابت.

ورحم الله مالكًا، فلقد كَرِهَ التّحدُّث بمثل ذلك مِن الأحاديث الموهمة للتّشبيه والمشكلة المعنى، وقال: ما يدعو النّاس إلى التّحدّث بمثل هذا؟ فقيل

(٣٨) صحيح البخاري (١/٨)، وصحيح مسلم (٣/١٣٩٣).

لـه: إنّ ابن عجلان يحدِّث بهـا، فقال: لم يكن مِن الفقهـاء، وليت النّاس وافقوه على ترك الحديث بها وساعدوه على طيّها، فأكثرها ليس تحته عملٌ [٣٩].

وقد حُكِيَ عن جماعةٍ مِن السّلف بل عنهم على الجملة أنهم كانوا يكرهون الكلام فيما ليس تحته عملٌ، والنّبيُّ ﷺ أوردها على قومٍ عربٍ يفهمون كلام العـرب على وجهه وتصرفاتهم في حقيقته ومجازه واستعارته وبليغه وإيجازه، فلم تكن في حقهم مشكلة.

ثمّ جاء مَنْ غلبت عليه العُجْمةُ وداخلتْه الأمِّيَّة، فلا يكاد يَفْهَم مِن مقاصد العـرب إلّا نصَّها وصريحَها، ولا يتحقَّـق إشاراتِها إلى غرضِ الإيجاز ووحيها وتبليغها وتلويحها، فتفرَّقوا في تأويلها أو حملها على ظاهرها شَذَرَ مَذَرَ، فمِنْهم مَنْ آمن به ومنهم من كفر.

فأمَّـا مـا لا يصحُّ مِن هـذه الأحاديث فواجبٌ أنْ لا يُذْكَـرَ منها شيءٌ في حـقّ الله ولا في حقّ أنبيائه ولا يُتحدَّث بها ولا يُتكلَّف الكلامُ على معانيها، والصـوابُ طرحُهـا وتركُ الشُّغلِ بهـا إلا أن تُذْكَرَ على وجـه التّعريف بأنّها ضعيفةُ المَقاد واهيةُ الإسناد.

فصل فيما يجب على المتكلم عند ذكر أحواله ﷺ المختلفة

ومما يجب على المتكلم فيما يجوز على النّبيّ ﷺ وما لا يجوز، والذّاكرِ مِن حالاته ما قدّمنـاه على طريق المذاكرة والتعليم أنْ يلتزمَ في كلامه عند ذكره

(٣٩) انظر: سير أعلام النبلاء (١٠٤/٨).

ﷺ وذكر تلـك الأحوالِ الواجبَ مِنْ توقيرِه وتعظيمِـه، ويُراقِب حالَ لسانِه ولا يُهمِلَه، وتظهرَ عليه علاماتُ الأدبِ عند ذكره.

فإذا ذكر ما قاساه مِن الشّدائدِ ظهر عليه الإشفاقُ والارتماضُ والغيظُ على عدوِّه ومودَّةُ الفداءِ للنّبيِّ ﷺ لو قدر عليه والنُّصرة لو أمكنته.

وإذا أخـذ في أبوابِ العصمة وتكلَّم على مجاري أعماله وأقواله ﷺ تحرَّى أحسنَ اللّفظ وآدبَ العبارةِ ما أمكنه، واجتنب بشيعَ ذلك وهجر مِن العبارة ما يقبح.

وإذا كان مثـل هـذا بين النّاس مستعملًا في آدابهم وحسـن معاشرتهم وخطابهـم فاستعماله في حقِّه ﷺ أوجبُ والتزامه آكـدُ، فجودةُ العبارة تقبِّح الشيءَ أو تحسِّنه، وتحريرُها وتهذيبُها يعظِّم الأمرَ أو يهوِّنه. ولهذا قال ﷺ: «إنَّ مِنَ البيانِ لسِحْرًا»[٤٠].

فأمّـا ما أورده على جهـة النّفي عنه والتّنزيه فلا حـرج في تسريحِ العبارة وتصريحهـا فيه، كقوله: لا يجوز عليه الكذبُ جملة، ولا إتيانُ الكبائر بوجهٍ، ولا الجَـوْرُ في الحكـم على حالٍ، ولكنْ مع هذا يَجِبُ ظهـورُ توقيرِه وتعظيمِه وتعزيزِه عند ذكرِه مجرَّدًا، فكيف عند ذكر مثل هذا!.

(٤٠) صحيح البخاري (١٩/٧).

فصل في حكم سابه ﷺ وشانئه ومتنقصه ومؤذيه وعقوبته وذكر استتابته ووراثته

قد قدّمنا ما هو سبٌّ وأذًى في حقّه ﷺ، وذكرنا إجماع العلماء على قَتْلِ فاعل ذلك وقائله، وتخيير الإمام في قتله أو صلبه على ما ذكرناه، وقرّرنا الحجج عليه.

وبعد، فاعلم أنَّ مشهور مذهبِ مالكٍ وأصحابه وقول السّلف وجمهور العلماء قَتْلُه حدًّا لا كُفْرًا إنْ أظهر التّوبة منه[٤١]، ولهذا لا تُقْبَلُ عندهم توبتُه ولا تنفعه استقالتُه ولا فَيْأَتُه كما قدّمناه قبلُ، وحكمُه حكمُ الزِّنْدِيق ومُسِرِّ الكفرِ في هذا القول، وسواءٌ كانتْ توبتُه على هذا بعدَ القدرةِ عليه والشّهادةِ على قوله، أو جاء تائبًا مِنْ قِبَلِ نفسِه، لأنّه حدٌّ وجب لا تُسْقِطُه التّوبةُ كسائر الحدود.

قال أبو الحسن القابسيّ: إذا أقرَّ بالسّبّ وتاب منه وأظهر التّوبة قُتِلَ بالسّبِّ لأنّه هو حدُّه. وقال أبو محمّد ابن أبي زيد مثله[٤٢]. وأمّا ما بينه وبين الله فتوبتُه تنفعه.

وقال ابن سحنون: مَنْ شتم النبيَّ ﷺ مِن الموحِّدين ثمَّ تاب عن ذلك لم تُزِلْ توبتُه عنه القتلَ[٤٣].

---

(٤١) انظر: البحر الرائق (٥/١٣٥)، الذخيرة للقرافي (٣/٤٦٠)، البيان (١٢/٢٨٨).

(٤٢) انظر: النوادر والزيادات (١٤/٥١٩).

(٤٣) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٦).

وكذلـك قد اختلف في الزّنديق إذا جاء تائبًا، فحكى القاضي أبو الحسن ابن القصّار في ذلك قولين، قال: مِنْ شُيوخنا مَنْ قال: أقتله بإقراره لأنّه كان يقـدر على سَتْرِ نفسه، فلما اعترف خِفْنا أنَّه خشي الظّهور عليه فبادر لذلك، ومنهم مَـنْ قال: أقبل توبته لأني أستدلُّ على صِحَّتهـا بمجيئه، فكأنَّنا وقفنا على باطنه بخلاف مَنْ أَسَرَتْهُ البيِّنة(٤٤).

ومسألـةُ سـابِّ النّبـيِّ ﷺ أقوى، لا يُتصـوَّر فيها الخـلافُ على الأصل المتقـدم؛ لأنّه حـقٌّ متعلِّقٌ للنّبيِّ ﷺ ولأمّته بسببـه، لا تسقطه التّوبة كسائر حقوق الآدميّين.

والزّنديـقُ إذا تاب بعد القدرة عليـه فعند مالك واللّيث وإسحاق وأحمد لا تُقْبَـلُ توبتُـه، وعنـد الشّافعيّ تُقْبَـل، واختلف فيه عن أبـي حنيفة وأبي يوسف(٤٥).

وقـال أبو عمران الفاسيّ: مَنْ سبَّ النّبـيَّ ﷺ ثمّ ارتدَّ عن الإسلام قُتِلَ ولم يُسْتَتَبْ، لأنَّ السبَّ مِنْ حُقوقِ الآدميّين الّتي لا تَسْقُطُ عن المرتدّ.

هذا حكمُ مَـنْ ثبت عليه ذلك بما يجب ثبوتُه مِنْ إقرارٍ أو عُدولٍ لم يُدْفَعْ فيهم.

(٤٤) النوادر والزيادات (٥١٩/١٤)، البيان والتحصيل (٤٤٤/١٦).

(٤٥) انظر: فتح باب العناية (١٢٩/٣)، النوادر والزيادات (٥١٨/١٤)، المجموع (٢٢٢/١٩)، المغني (٦/٩).

فصل

فأمّـا مَنْ لم تتمَّ الشّهادةُ عليـه بما شهد عليه الواحدُ أو اللّفيفُ مِن النّاسِ أو ثبـت قولُه لكـن احتمل ولم يكن صريحًا، وكذلـك إن تاب على القول بقبول توبتـه، فهذا يُدْرَأُ عنه القتلُ ويتسلَّط عليه اجتهـادُ الإمامِ بقَدْرِ شُهْرة حاله وقوةِ الشّهادة عليه وضعفها، وكثرةِ السماع عنه وصورةِ حالهِ مِنَ التهمة في الديـن والنَّبْزِ بالسَّفَه والمجون، فمَنْ قَوِيَ أمرُه أذاقه مِنْ شديدِ النَّكالِ مِنَ التضييـقِ في السجن والشدِّ في القُيودِ إلى الغاية التي هي منتهى طاقته ممّا لا يمنعـه القيامَ لضرورته ولا يُقْعِدُه عـن صلاته. وهو حكمُ كلِّ مَنْ وجب عليه القتـلُ، لكن وُقِفَ عَنْ قتلِه لمعنى أوجبـه وتُرُبِّصَ به لإشكالٍ وعائقٍ اقتضاه أمرُه، وحالاتُ الشدَّة في نَكاله تختلفُ بحسب اختلاف حاله.

وقال القابسي في مثل هذا ومَنْ كان أقصى أمره القتلَ فعاق عائقٌ أشكل في القتل: لم يَنْبَـغِ أنْ يُطْلَقَ مِنَ السِّجْن، ويُسْتَطالُ سَجْنُهُ ويُحْمَلُ عليه مِن القيـد ما يُطيق. وقال في مثله ممّن أشكل أمرُه: يُشَدُّ في القيود شدًّا، ويُضيَّق عليه في السّجن حتّى يُنْظَرَ فيما يجب عليه.

فصل

فأمـا الذّمّيُّ إذا صرَّح بسبِّه أو عرَّض أو استخفَّ بقدره ﷺ أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فلا خلافَ عندنا في قتله إن لم يُسْلِمْ، لأنا لم نُعْطِه الذِّمَّة أو العهـدَ على هذا، وهو قولُ عامَّة العلماءِ إلّا أبـا حنيفة والثّوريَّ وأتباعَهما

مِنْ أهل الكوفةِ فإنّهم قالوا: لا يُقْتَلُ لأنَّ ما هو عليه مِن الشِّرك أعظمُ، ولكن يُؤدَّب ويُعزَّر.

واستدلَّ بعضُ شُيوخِنا على قتله بقوله تعالى ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢].

ويُستدلُّ أيضًا عليه بقتل النّبيِّ ﷺ لابن الأشرف وأشباهه، ولأنّا لم نُعاهِدْهم ولم نُعْطِهم الذمَّة على هذا، ولا يجوزُ لنا أن نفعلَ ذلك معهم، فإذا أَتَوْا ما لم يُعْطَوْا عليه العهدَ ولا الذمَّة فقد نقضوا ذمّتهم وصاروا كُفَّارًا أهلَ حربٍ يُقْتَلُونَ لِكُفْرِهِمْ.

وأيضًا فإنَّ ذمّتهم لا تُسْقِطُ حدودَ الإسلامِ عنهم مِن القطعِ في سرقةِ أموالهم والقتلِ لمن قتلوه منهم، وإن كان ذلك حلالًا عندهم فكذلك سبُّهم للنبيِّ ﷺ يُقْتَلُون به.

واختلفوا إذا سبَّه ثمَّ أسلم، فقيل: يُسْقِطُ إسلامُه قَتْلَه، لأنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبله بخلافِ المسلم إذا سبَّه ثم تاب، لأنا نعلمُ باطنةَ الكافرِ في بُغْضِه له وتنقُّصِه بقلبه، لكِنَّا منعناه مِنْ إظهاره، فلم يزدنا ما أظهره إلّا مخالفة للأمر ونقضًا للعهد، فإذا رجع عن دينه الأوّل إلى الإسلام سقط ما قبله. قال الله تعالى ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، والمسلمُ بخلافه؛ إذ كان ظنُّنا بباطنه حكمَ ظاهرِه وخلافَ ما بدا منه الآن، فلم نقبل بعدُ رجوعَه ولا اسْتَنَمْنا إلى باطنه، إذ قد بَدَتْ سرائرُه وما ثبت عليه مِن الأحكام باقيةٌ عليه لم يُسْقِطها شيءٌ.

وقيل: لا يُسْقِطُ إسلامُ الذمّي السابِّ قَتْلَهُ لأنّه حقٌّ للنّبيِّ ﷺ وجب عليه لانتهاكه حرمته وقصده إلحاق النَّقيصة والمعرَّة به، فلم يكنْ رجوعُه إلى الإسلام بالذي يسقطه كما وجب عليه مِنْ حقوق المسلمين مِنْ قبل إسلامه مِنْ قتلٍ وقذفٍ، وإذا كنَّا لا نقبل توبة المسلم فأنْ لا نقبل توبة الكافر أولى.

قال مالك وابن القاسم وابن الماجشون وابن عبد الحكم وأصبغ فيمن شتم نبيّنا من أهل الذمَّة أو أحدًا مِنَ الأنبياء عليهم السّلام: قُتِلَ إلّا أن يسلم[٤٦].

وقد روى ابن وهب عن ابن عمر رضي الله عنه أنّ راهبًا تناول النّبيّ ﷺ، فقال ابن عمر: فهلا قتلتموه[٤٧].

وروى عيسى عن ابن القاسم في ذمّيٍّ قال: إنَّ محمَّدًا لم يُرْسَلْ إلينا إنّما أُرْسِلَ إليكم وإنّما نبينا موسى أو عيسى ونحو هذا لا شيءَ عليهم لأنّ الله تعالى أقرَّهم على مثله، وأمّا إن سبَّه فقال: ليس بنبيٍّ أو لم يُرْسَلْ أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو شيءٌ تقوَّله أو نحو هذا فيُقْتَلُ[٤٨].

قال محمّد بن سحنون: فإن قيل: لم قتلْتَه في سبِّ النّبيِّ ﷺ ومِنْ دينِه سبُّه وتكذيبه؟ قيل: لأنّا لم نعطهم العهد على ذلك، ولا على قَتْلِنا وأخذِ أموالنا، فإذا قتل واحدًا مِنَّا قتلناه وإن كان مِنْ دينه استحلالُه، فكذلك

(٤٦) انظر في كل ذلك: النوادر (١٤/٥٢٨-٥٢٩).

(٤٧) أخرجه ابن وهب في كتاب المحاربة من موطئه، وانظر: النوادر والزيادات (١٤/٥٢٠)، البيان والتحصيل (١٦/٤٤٥).

(٤٨) النوادر والزيادات (١٤/٥٣٠).

إظهـارُه لسـبِّ نبينا ﷺ. قال سحنـون: كما لو بذل لنا أهـلُ الحرب الجزيةَ علـى إقرارهم على سبِّه لم يَجُزْ لنـا ذلك في قول قائلٍ، كذلك ينتقض عهدُ مَـنْ سبَّ منهم ويحِلُّ لنا دمُه. وكما لم يحصِّن الإسلامُ مَنْ سبَّه مِنَ القتل كذلك لا تحصِّنه الذّمّة[٤٩].

وحكـى أبو المصعب الزّهريّ قال: أُتِيـتُ بنصرانيٍّ قال: والذي اصطفى عيسى على محمّد، فاختلف عليَّ فيه فضربته حتّى قتلته أو عاش يومًا وليلة، وأمرتُ مَنْ جرَّ برجله وطـرح على مَزْبَلَةٍ فأكلته الكلابُ. وسئل أبو المصعب عن نصرانيٍّ قال: عيسى خلق محمّدًا فقال: يُقْتَلُ[٥٠].

وقـال ابن القاسـم: سألنا مالكًا عـن نصرانيّ بمصر شهد عليـه أنّه قال: مسكـينٌ محمّد يُخْبِرُكم أنَّه في الجنة، ما لـه لم يَنْفَعْ نفسَه إذ كانت الكلابُ تـأكل ساقيه؟ لو قتلوه استراح منه النّاس، قال مالك: أرى أن تُضْرَبَ عنقُه، قال: ولقد كِدْتُ أن لا أتكلَّم فيها بشيءٍ ثمَّ رأيتُ أنّه لا يسعني الصمتُ[٥١].

قال ابـن كنانة في المبسوطة: مَـنْ شتم النّبيَّ ﷺ مِن اليهـود والنّصارى فـأرى للإمام أن يحرقه بالنار، وإن شاء قتله ثمَّ حـرَّق جثته، وإن شاء أحرقه بالنـار حيًّا إذا تهافتـوا في سبِّه، ولقد كُتِبَ إلى مالكٍ مِنْ مصر - وذكر مسألة ابـن القاسم المتقدّمة — قال: فأمرني مالكٌ فكتبتُ بأنْ يقتلَ وتضربَ عنقُه، فكتبـتُ ثمَّ قلت: يا أبا عبـد الله، وأكتب: ثمَّ يحرق بالنار؟ فقال: إنَّه لحقيقٌ

(٤٩) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٨).
(٥٠) نقله المقريزي في إمتاع الأسماع (١٤/٤٠٥).
(٥١) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٧).

بذلــك، ومــا أولاه به! فكتبته بيــدي بين يديه، فما أنكــره ولا عابه، ونَفَذَتِ الصحيفةُ بذلك فقُتِلَ وحرق.

وقال أبو القاسم ابن الجلّاب: مَنْ سبَّ الله ورسوله مِن مسلمٍ أو كافرٍ قُتِلَ ولا يستتاب[٥٢].

وحكى القاضي أبو محمَّد في الذِّمي يسبُّ ثمّ يُسْلِمُ روايتين في دَرْءِ القتلِ عنــه بإسلامه، وقال ابن سحنون: وحدُّ القــذف وشبهه مِنْ حقوق العباد لا يُسْقِطُــه عن الذّمّيّ إسلامُــه، وإنّما يَسْقُطُ عنه بإسلامه حــدودُ الله، فأمّا حدّ القــذف فحقٌّ للعباد كان ذلك لنبــيٍّ أو غيره، فأُوجب على الذّمّيّ إذا قذف النّبيَّ ﷺ ثمّ أسلم حدُّ القذف.

فصل في ميراث مَنْ قُتِلَ في سبّ النبي ﷺ وغسله والصلاة عليه

اختلف العلماء في مــيراث مَنْ قُتِلَ بسبِّ النّبيِّ ﷺ، فذهب سحنون إلى أنّه لجماعة المسلمين مِنْ قِبَلِ أنَّ شَتْمَ النّبيِّ ﷺ كُفْرٌ يُشْبِهُ كفرَ الزّنديق. وقال أصبغ: ميراثه لورثته مِنَ المسلمين إنْ كان مُسْتَسِرًّا بذلك، وإن كان مُظْهِرًا له مُسْتَهِلًّا به فميراثُه للمسلمين، ويُقْتَلُ على كلِّ حالٍ ولا يُستتاب[٥٣].

قــال أبو الحســن القابسي: إنْ قُتِــلَ وهو مُنْكِرٌ للشهــادةِ عليه فالحكمُ في ميراثــه على ما أظهر مِنْ إقرارِه، يعني لورثته، والقتلُ حدٌّ ثبت عليه ليس مِنَ المــيراثِ في شيءٍ، وكذلك لو أقــرَّ بالسبِّ وأظهر التّوبة لقُتِــلَ؛ إذ هو حدُّه،

(٥٢) التفريع لابن الجلاب (٢/٢٣٢).

(٥٣) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٤).

وحكمُه في ميراثه وسائر أحكامه حكمُ الإسلام، ولو أقرَّ بالسبِّ وتمادى عليه وأبى التّوبة منه فقُتِلَ على ذلك كان كافرًا وميراثُه للمسلمين، ولا يُغْسَلُ ولا يُصَلَّى عليه ولا يُكَفَّنُ وتُسْتَرُ عورتُه ويُوارى كما يُفْعَلُ بالكفار.

وقـول الشّيخ أبي الحسن في المجاهر المتمادي بـيِّنٌ لا يُمْكِنُ الخلافُ فيه؛ لأنَّه كافرٌ مرتدٌّ غيرُ تائبٍ ولا مُقْلِعٍ، وهو مثل قول أصبغ.

وكذلـك في كتاب ابن سحنون في الزّنديق يتمادى على قوله، ومثله لابن القاسـم في العتبيّة، ولجماعة مِـنْ أصحاب مالك في كتاب ابن حبيب فيمن أعلن كفره مثله.

قـال ابن القاسم: وحكمُه حكمُ المرتـدِّ لا ترثه ورثتُه من المسلمين ولا مِنْ أهـل الدِّين الذي ارتدَّ إليه، ولا تجوز وصاياه ولا عِتْقُه، وقاله أصبغ، قُتِلَ على ذلك أو مات عليه(٥٤).

وقال أبو محمّد ابن أبي زيد: وإنّما يختلف في ميراث الزّنديق الذي يَسْتَهِلُّ بالتّوبة فلا تُقْبَلُ منه، فأمّا المتمادي فلا خلافَ أنّه لا يورث(٥٥).

وقـال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وابـن مسعود رضي الله عنه وابن المسيب والحسن والشعبي وعمـر بن عبد العزيز والحكم والأوزاعـي والليث وإسحاق وأبو حنيفـة: يرثـه ورثتـه مِـن المسلمـين(٥٦).

(٥٤) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٠-٥٢١).

(٥٥) المصدر السابق (١٤/٥٢٣).

(٥٦) المبسوط للسرخسي (١٠/١٠١)، بدائع الصنائع (٧/١٣٨)، وانظر: التمهيد (٩/١٦٤-١٦٧).

وروى أصبغ عن ابن القاسم في كتاب ابن حبيب فيمن كذَّب برسول الله ﷺ أو أعلن دينًا ممّا يُفارق به الإسلامَ أنَّ ميراثه للمسلمين.

وقال بقول مالك: إن ميراث المرتد للمسلمين ولا ترثه ورثته ربيعة والشّافعيّ وأبو ثور وابن أبي ليلى واختلف فيه عن أحمد[٥٧].

وسُئِلَ أبو القاسم ابن الكاتب عن النصراني يسبُّ النّبيَّ ﷺ فيُقْتَلُ: هل يرثه أهلُ دينه أم المسلمون؟ فأجاب أنَّه للمسلمين ليس على جهة الميراث لأنه لا توارُثَ بين أهل ملّتين، ولكن لأنّه مِنْ فيئهم لنقضه العهد، هذا معنى قوله واختصاره[٥٨].

(٥٧) النوادر والزيادات (١٤/٥٠٨)، الأم (٤/٨٧)، الحاوي الكبير (٨/١٤٥)، الكافي في فقه الإمام أحمد (٢/٣١١).
(٥٨) انظر: النوادر والزيادات (١٤/٥٠٨).

هنا انتهى القول بنا فيما حرّرنـاه وانتجز الغرضُ الذي انتحيناه، واستوفي الشّـرطُ الذي شرطناه، ممّا أرجو أنَّ في كلِّ قِسْمٍ منـه للمُرِيدِ مَقْنَعًا، وفي كلِّ بابٍ منهجًا إلى بُغْيَتِه ومَنْزَعًا.

وقـد سفرت فيه عن نُكَـتٍ تُسْتَغْرَبُ وتُسْتَبْدَعُ، وكرعـتُ في مشاربَ مِنَ التّحقيـقِ لم يُورَدْ لهـا قبلُ في أكثر التّصانيفِ مَشْـرَعٌ، وأودعتُه غيرَ ما فَصْلٍ وَدِدْتُ لـو وجدتُ مَنْ بَسَطَ قبلي الكلامَ فيه، أو مُقْتَدًى يُفيدُنيه عن كتابه أو فيه لِأكتفيَ بما أرويه عمَّا أروِّيه.

وإلى الله تعـالى جزيـلُ الضّراعـةِ والمنّة بقبول ما منه لوجهـه، والعفوُ عمّا تخلَّلـه مِنْ تزيُّنٍ وتصنُّعٍ لغـيره، وأنْ يهبَ لنا ذلك بجميـل كرمه وعفوه، لما أودعنـاه مِنْ شـرفِ مصطفاه وأمينِ وَحْيِه، وأسهرْنا بـه جُفونَنا لتتبُّع فضائلِه، وأعملْنـا فيه خواطرَنا مِنْ إبرازِ خصائصِـه ووسائلِه، ويحميَ أعراضَنا عن نارِه الموقـدة لحمايتنا كريمَ عِرْضِهِ، ويجعلَنا ممن لا يُذادُ إذا ذِيدَ المبدِّلُ عن حَوْضِهِ، ويجعلَهُ لنـا ولمن تهمَّم باكتتابِه واكتسابِه، سببًا يَصِلُنا بأسبابه، وذخيرةً نجدُها يـومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ مِنْ خـيرٍ محضرًا، نَحُوزُ بها رضاه وجزيلَ ثوابه، ويخصَّنا بخِصِّيصَـى زُمرةِ نبيِّنا وجماعتِه، ويحشرَنـا في الرَّعِيلِ الأوّلِ وأهلِ البابِ الأيمنِ مِنْ أهلِ شفاعته.

ونحمـده تعالى علـى ما هـدى إليه مِـنْ جَمْعِـهِ وألهم، وفتـح البصيرة لِـدَرْكِ حقائـقِ مـا أودعنـاه وفهَّـم، ونستعيـذُه جـلَّ اسمُـه مِـنْ دُعاءٍ لا يُسْمَـع، وعِلْـم لا ينفـع، وعَمَـلٍ لا يُرْفَـع، فهـو الجـوادُ الـذي لا يُخيِّـبُ

مَـنْ أمَّلـه، ولا يَنْتَصِـرُ مَـنْ خَذَلَهُ، ولا يـردُّ دعـوةَ القاصديـن، ولا يُصْلحُ عَمَـلَ المفسدين، وهـو حسبُنا ونِعْـمَ الوكيـلُ، وصلاتُه على سيِّدنـا ونبيِّنا محمَّد خـاتم النّبيِّـين، وعلى آلـه وصحبه أجمعـين، وسلّم تسليمًـا كثيرًا، والحمد لله ربّ العالمين.

محتوى الكتاب

الباب الأوّل في ثناء الله عليه ﷺ وإظهارِه عظيمَ قَدْرِه لديه ٧

فصلٌ فيما جاء من ذلك مجيءَ المدح والثّناء وتعداد المحاسن ٧

فصلٌ في وصفِه تعالى له ﷺ بالشهادةِ وما يتعلَّقُ بها من الثناءِ والكرامةِ ١٢

فصل فيما ورد من خطابه تعالى مورد الملاطفة والمبرّة ١٤

فصل في قَسَمِه تعالى بعظيم قدره ﷺ ١٦

فصل في قَسَمِه تعالى له ﷺ لتحقُّقِ مكانته عنده ١٦

فصلٌ فيما ورد من قوله تعالى في جهته ﷺ مورد الشّفقة والإكرام ٢٠

فصل فيما أخبر الله تعالى به من عظيم قدره ﷺ

وشريف منزلته على الأنبياء عليهم السلام ٢١

فصلٌ في إعلام الله تعالى خلقه

بصلاته عليه ﷺ وولايته له ورفعه العذاب بسببه ٢٣

فصلٌ فيما تضمَّنته سورة الفتح من كراماته ﷺ ٢٥

فصلٌ فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز

من كرامته ﷺ عليه ومكانته عنده وما خصّه به ٢٧

الباب الثّاني في تكميل الله تعالى له ﷺ المحاسن خلقًا وخلقًا

وقرانه جميع الفضائل الدّينيّة والدّنيويّة فيه نسقًا ٢٩

فصلٌ فيه أنه اجتمع فيه ﷺ من خصال الكمال ما يشرف غيره بواحدة منها ٣٠

فصلٌ في صفاته ﷺ الخَلْقية ٣١

فصل في نظافة جسمه ﷺ وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن عورات الجسد ٣٤

فصل في وفور عقله ﷺ وقوة حواسه ٣٥
فصل في فصاحة لسانه ﷺ وبلاغة قوله ٣٦
فصل ٣٨
فصل ٤٠
فصل ٤٢
فصل في أخلاقه ﷺ ٤٤
فصل في حلمه ﷺ وعفوه وصبره ٤٥
فصل في جوده ﷺ وكرمه وسماحته ٤٨
فصل في شجاعته ﷺ ونجدته ٥٠
فصل في حيائه ﷺ وإغضائه ٥٢
فصل في حسن عشرته ﷺ وأدبه ٥٣
فصل في شفقته ﷺ ورأفته ورحمته لجميع الخلق ٥٦
فصل في وفائه ﷺ وحسن عهده وصلة رحمه ٥٩
فصل في تواضعه ﷺ ٦٠
فصل في عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته ٦٢
فصل في وقاره ﷺ وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه ٦٤
فصل في زهده ﷺ في الدنيا ٦٥
فصل في خوفه ﷺ ربه وطاعته له وشدة عبادته ٦٧

الباب الثالث فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها
بعظيم قدره ﷺ عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين من كرامته ٧١

فصل في تفضيله ﷺ بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية
وإمامة الأنبياء والعروج به إلى سدرة المنتهى وما رأى من آيات ربه الكبرى .. ٧٤
فصل في تفضيله ﷺ بالمحبة والخلة ٧٨
فصل في ذكر تفضيله ﷺ في القيامة بخصوص الكرامة ٧٩

فصل في تفضيله ﷺ بالشفاعة والمقام المحمود ٨٠
فصل في تفضيله ﷺ في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة... ٨٥
فصل في أسمائه ﷺ وما تضمنته من فضيلته ٨٧

الباب الرابع فيما أظهره الله تعالى على يديه ﷺ من المعجزات
وشرَّفه به مِن الخصائص والكرامات ٩١

فصل في معنى النبوة والرسالة والوحي ٩٢
فصل في معنى المعجزة..... ٩٣
فصل في إعجاز القرآن ٩٥
فصل ٩٩
فصل ١٠١
فصل ١٠٣
فصل ١٠٥
فصل ١٠٦
فصل ١٠٩
فصل وجوه أخرى للإعجاز..... ١١٠
فصلٌ انشقاق القمر..... ١١٢
فصل في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته ﷺ ١١٣
فصل ١١٧
فصل في كلام الشجر وشهادتها له ﷺ بالنبوة وإجابتها دعوته..... ١٢٠
فصل في قصة حنين الجذع ١٢١
فصل فيما جاء في الطعام والشجر والحجر..... ١٢٢
فصل في الآيات في ضروب الحيوانات..... ١٢٣
فصل في إبراء المرضى وذوي العاهات ١٢٤
فصل في إجابة دعائه ﷺ ١٢٥

فصل في كرامته ﷺ وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره..... ١٢٨
فصل ١٣١
فصل في عصمة الله تعالى له ﷺ من الناس وكفايته من آذاه ١٣٩
الباب الخامس في فرض الإيمان به ﷺ ووجوب طاعته واتباع سنته ١٤٣
فصل في وجوب طاعته ﷺ ١٤٥
فصل فيما ورد عن السّلف والأئمّة من اتّباع سنّته ﷺ
والاقتداء بهديه وسيرته ١٥٠
فصل ١٥٣
الباب السادس في لزوم محبته ﷺ ١٥٥
فصل في ثواب محبته ﷺ ١٥٦
فصل فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي ﷺ وشوقهم له ١٥٧
فصل في علامة محبته ﷺ ١٥٧
فصل في معنى المحبّة للنبي ﷺ وحقيقتها ١٦١
فصل في وجوب مناصحته ﷺ ١٦٢
الباب السابع في تعظيم أمره ﷺ ووجوب توقيره وبره ١٦٥
فصل في عادة الصّحابة رضي الله عنهم في تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله..... ١٦٨
فصل في أن حرمته ﷺ وتوقيره بعد موته لازم كما كان حال حياته ١٧٠
فصل في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله ﷺ وسنته..... ١٧٢
فصل ١٧٤
فصل ١٧٨
الباب الثامن في حكم الصلاة عليه ﷺ والتسليم وفرض ذلك وفضيلته..... ١٨٣
فصل في حكم الصلاة على النبي ﷺ ١٨٤
فصل في المواطن التي يستحب فيها الصّلاة والسّلام على النّبيّ ﷺ ١٨٥

فصل في كيفية الصلاة عليه ﷺ والتسليم ١٨٩
فصل في فضيلة الصّلاة على النّبيّ ﷺ والتسليم عليه والدّعاء له..... ١٩٠
فصل في ذم من لم يصلّ على النّبيّ ﷺ وإثمه ١٩٢
فصل في تخصيصه ﷺ بتبليغ صلاة من صلّى عليه أو سلم من الأنام ١٩٣
فصل في الاختلاف في الصّلاة على غير النّبيّ ﷺ
وسائر الأنبياء عليهم السّلام ١٩٤
فصل فيما يلزم من دخل مسجد النّبيّ ﷺ من الأدب
وفضله وفضل الصّلاة فيه ١٩٥

الباب التاسع فيما يجب للنّبيّ ﷺ وما يستحيل في حقّه أو يجوز عليه
وما يمتنع أو يصحّ من الأحوال البشريّة أن يضاف إليه ١٩٩

فصل فيما يختصّ بالأمور الدّينيّة والكلام في عصمة نبيّنا ﷺ ٢٠٠
فصل ٢٠٢
فصل في أنه ﷺ معصوم في أقواله وأفعاله فيما طريقه البلاغ..... ٢٠٥
فصل في أنه ﷺ معصوم في أقواله وأفعاله فيما ليس طريقه البلاغ كذلك . ٢٠٦
فصل في المباحات من تصرفاته ﷺ..... ٢٠٧
فصل فيما يخصه ﷺ في الأمور الدنيوية
وما يطرأ عليه من العوارض البشرية ٢٠٩
فصل في الجواب عن كون النبي ﷺ سُحِر ٢١١
فصل فيما يعتقده ﷺ في أمور أحكام البشر الجارية على يديه..... ٢١٤
فصل في الإجابة على بعض الشبه في ذلك ٢١٥
فصل في أفعاله ﷺ الدنيوية ٢١٩
فصل في الكلام على الحكمة في إجراء الأمراض
وشدتها عليه ﷺ وعلى غيره من الأنبياء من قبل ٢٢٢
الباب العاشر في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقّصه أو سبّه ﷺ..... ٢٢٥

فصل في بيان ما هو في حقه ﷺ سَبٌّ أو نَقْصٌ من تعريض أو نص..... ٢٢٧
فصل في الحجة في إيجاب قتل من سبه أو عابه ﷺ..... ٢٣٢
فصل في أسباب عدم قتل النبي ﷺ لبعض من سبَّه أو تنقَّصه ٢٣٦
فصل ٢٤٢
فصل فيما يجب على المتكلم عند ذكر أحواله ﷺ المختلفة..... ٢٥٣
فصل في حكم سابه ﷺ وشانئه ومتنقصه ومؤذيه
وعقوبته وذكر استتابته ووراثته ٢٥٥
فصل ٢٥٧
فصل ٢٥٧
فصل في ميراث مَنْ قُتِلَ في سبّ النبي ﷺ وغسله والصلاة عليه ٢٦١
محتوى الكتاب..... ٢٦٧